أبو الحسن علي الحسني الندوي
أمين عام ندوة العلماء (لكهنو) الهند

من نهر "كابل" إلى نهر "اليرموك"

جولة في غرب "آسيا"

منشورات
دار الهلال
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٤٤٨ أنقره

ابو الحسن علي الحسنّي النَّدويّ

امين عام ندوة علماء الهند

من نهر كابل
الى
نهر اليرموك

١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م

من نهر كابل الى نهر اليرموك

جميع الحقوق محفوظة
دار الهلال للطباعة والنشر والتوزيع
– أنكره – صندوق البريد ٤٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدى الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد كان لمؤلف هذا الكتاب شرف قيادة وفد زار ستة أقطار إسلامية وعربية في غرب آسيا . وفي الشرق العربي ، وهي أفغانستان وإيران ولبنان وسوريا والعراق والأردن . وكان هذا الوفد من ضمن الوفود الكثيرة التي أرسلتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة في سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م إلى مختلف أنحاء العالم ، وانتظمت القارات الخمس للتعرف على واقع المسلمين وأوضاعهم ، ومؤسساتهم ومتطلباتهم والتعريف بأهداف الرابطة ورسالتها .

وقد كانت الجولة التي يتحدث عنها هذا الكتاب في فترة بين ٤ من حزيران ١٩٧٣م و٢٠ من آب ١٩٧٣م ، وقد سجل المؤلف أخبار هذه الجولة وإنطباعاته وملاحظاته ، وما دار فيها من حديث وما ألقاه فيها من محاضرات ، وما حظي به من لقاءات وزيارات ، معتمداً في ذلك على ذاكرته غالباً ، وعلى بعض الأشرطة التي كانت معه نادراً ، فجاء الكتاب مصوراً لجوانب الحياة في هذه البلاد ، وما تواجهه من قضايا ومشكلات ، وما تعانيه من صراع فكري وحضاري ونفسي ، وما تحتاج إليه من إرشاد أو إسناد ، حتى يكون القارئ والمعنى بمصير هذه البلاد على بيّنة من أمرها ، ووعيٍ لطبيعة الأمور والأوضاع في هذه البلاد .

ولا بد من التنبيه على نقطتين في هذه الكلمة الوجيزة :

١ – إن ما جاء في هذا الكتاب من إنطباعات وملاحظات ومقترحات وانتقادات إنما هي ظلال وانعكاسات في نفس المؤلف أحدثتها هذه الجولة وهي ترجع إلى دراسته وتجاربه الخاصة وأرائه ونظرياته التي اقتنع بها وهو مسؤول عنها شخصيا وهو يعبّر في ذلك عن آرائه وانطباعاته ، ولا يتكلم في ذلك بلسان الرابطة دائما ، وليس من الضروري أن توافق على كل ما جاء في هذا الكتاب ، ولا تعتبر الرابطة مسؤولة عن كل ما تضمنه هذا الكتاب من آراء وملاحظات وأفكار .

٢ – لقد تحرى المؤلف الدقة والإتقان وتوخى الصدق والإنصاف وعدم الأنحياز ، والوصول إلى الحقيقة بقدر الامكان ،

ولكنه لا يأمن أن يكون قد تورط في افراط وتفريط ، أو تعرض لخطأ أو سوء فهم في الحكم على الأشخاص أو الحركات والمؤسسات ، وذلك يقع كثيراً لمن لا تمكّنه الظروف من الإقامة الطويلة والمعرفة الشخصية ونخل الأمور وتنقيح الأخبار وقد وقع كثيراً من الجوّابين والرّحّالين فريسة هذه الأخطاء والأوهام فمعذرة الى القارئ الكريم من أبناء هذه البلاد ، إذا وجد شيئا من هذا النوع ، فالعصمَة لله وحده .

ولمّا كانت بداية هذه الرحلة من كابل عاصمة افغانستان كانت نهايتها عمان عاصمة الأردن ، حلا للمؤلف أن يسمي هذا الكتاب بـ« من نهر كابل إلى نهر اليرموك » وهما نهران عظيمان في هاتين المدينتين تكتنفهما حوادث تاريخية إسلامية ، وقد وصل بينهما المدّ الإسلامي في القرن الأول .

وقد سبق للمؤلف تأليف كتاب « مذكرات سائح في الشرق العربي » صدر من القاهرة في سنة ١٩٥٢ فجاء هذا الكتاب حلقة ثانية من هذه السلسلة ، يعرف بهما القارئ ما جدّ من حوادث وما وقع من إنقلاب ، وتطور في فترة لا تتجاوز ٢٢ سنة .

ونسأل الله جاهدين مخلصين أن ينفع هذا الكتاب وينير به السبيل ويقوى به العزم على خدمة الرسالة الإسلامية وخدمة هذه البلاد وحمايتها من الأخطار المحدقة والتحديات المعاصرة وعلى الله قصد السبيل ،

ابو الحسن علي الحسني الندوي

المدينة المنورة ١٩٧٣/١٢/٢١

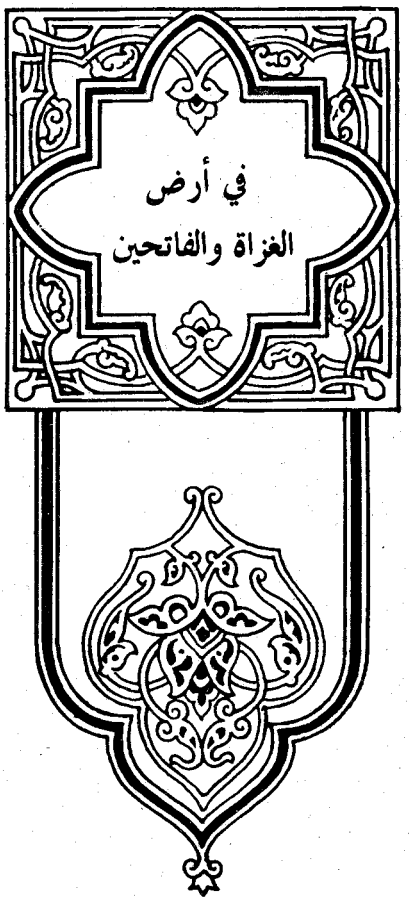
في أرض
الغزاة والفاتحين

دور افغانستان في تاريخ الإسلام وفي تاريخ الهند

إنّ أفغانستان هي البلد الذي ظل في تاريخ الإسلام معدن الفروسية ، وعرين الأسود ، ومولد الفاتحين ، ومعقلاً من معاقل الإسلام ، وحين تحدّث أمير البيان الأمير شكيب أرسلان عن هذا البلد أخذته نشوة الحماس الإسلامي ، وتمثل له تاريخ هذا البلد المناضل ، فأطلق عنان القلم ، وقال : « ولعمري لو لم يبق للإسلام في الدنيا عرق ينبض لرأيت عرقه بين سكان جبال الهملايا والهندكوش نابضاً ، وعزمه هنالك ناهضاً »[1]

وهو البلد المجاور للهند الذي اقترن تاريخه بتاريخها منذ فجر القرن الخامس الهجري[2] وتداخلت حضارة إحداهما وثقافتها وآدابها وأساليب حكمها في حضارة الأخرى وثقافتها وآدابها وسياستها وتفاعلت هذه العوامل ، واختمرت حتى حدث من ذلك مزيج من حضارة وثقافة وإدارة لم تكن أفغانية خالصة

---

١) حواشي « حاضر العالم الإسلامي » للأمير شكيب أرسلان ، المجلد الثاني ص ١٩٧ .

٢) حين غزا السلطان محمود الغزنوي (المتوفي ٤١١ هـ) الهند ، وأسّس فيها حكومة إسلاميّةً .

ولا هندية مجرّدةً ، حتى ولا إسلامية بحتة ، سمّى في العهد الأخير بالحضارة الإسلاميّة الهنديّة .

وقد حكمت الهند منذ القرن الخامس الهجري إمّا سلالات وأسر تركية الأصل ، قد دخلت الهند عن طريق أفغانستان ورافقها فرسان ومتطوعون من البلاد التي مرّوا بها ، كالغزنوية والمماليك والخلج والتغالقة والمغول أخيراً ، وإمّا كانت افغانية الأصل والحضارة والتقاليد ، كالأسر الغوْريّة واللوديّة والسوريّة وكانت الهند منتجع أصحاب الطموح والفروسيّة ، والعصاميّين والنوابغ الذين لم يجدوا مجالاً واسعاً لإرضاء غريزة الطموح والتسامي في بلادهم المحصورة بالجبال فيدخلون الهند – وقد أصيبت في فترات تاريخية بالإعياء الفكري وضعف في الإرادة والإدارة واضطراب في الحكم – فيدخلون وهم متدفقون بالحيوية والنشاط زاخرون بالطموح والحماس ، أصحاب جلد وتقشف ، وأحلاس خيل ومغاوير حرب ، فينتصرون بالعدد القليل على العدد الكثير ويؤسّسون حكومات قويّة فتيّة ويدخلون في هيكل المجتمع الهندي دمًا فاتراً جديداً .

وكان كثير من الأسر الأفغانية التي تقطن في داخل البلاد أو على حدودها تنزح لضيق مواردها إلى الهند في التماس الرزق الكريم أو المركز العظيم وقد اتجهت هذه الموجات البشرية منذ العصر الإسلامي الأول ، وكانت تحمل معها خير خصائصها السلالية ومواهبها الموروثة ، وتضيف إليها ما تكتسبه من الشعوب

الهندية والمجتمع الهندي من خصائص وأعراف وآداب إسلامية وأخلاق هنديّة فتزداد بذلك فتوّة ، ومروءة على مروءة ، وذكاءاً على ذكاء ، حتى تتفوقّ في كثير من الأحيان – على أبناء وطنها القديم في الشجاعة والنخوة والإباء والشمم ورقّة الشعور ولطافة الحسّ ، وقد انتشرت هذه القبائل في الهند ، وكوّنت امارات وإقطاعات ، وتكوّن منها جهاز الحكم في الحكومات المختلفة ، وكانت مادة الجيش في كل عهد وعموده الفقري .

وظل المسلمون مدّة طويلة ينظرون إلى أفغانستان كبلادٍ تصدر إلى الهند ولاة وحكّاماً وإداريين وعسكريين وكانوا يسمونها « ولايت »[1] كما اعتادوا أن يسمّوا انجلترا وعاصمتها بذلك في الحكم الإنجليزي ، وكانوا يسمّون الوارد من بلاد افغانستان « ولايتي » ولم تقتصر حركة « التصدير » على الغزاة والفاتحين والقادة العسكريين بل عمت وتوسّعت ، فورد من أفغانستان إلى الهند خيرة العلماء والأساتذة الذين أحدثوا في الهند حركة علمية جديدةً[2] وأتحفوها ببعض الكتب والمؤلّفات التي شغل علماء الهند زمناً طويلاً بتفهمها وشرحها وتدريسها .

---

١) يعني مركز الأمراء والحكام .

٢) كالعلامة محمد أسلم الهروي (م ١٠٦١ هـ) وابنه البارع مير زاهد صاحب الكتاب المعروف « مير زاهد رساله » في المنطق (م ١١٠١ هـ) . اقرأ ترجمتهما وتراجم العلماء الأفغان في الهند في كتاب « نزهة الخواطر » لوالدي العلامة السيد عبد الحيّ الحسني ، خاصّة المجلد الخامس والسادس من هذا الكتاب .

نظرة مسلمي الهند إلى أفغانستان

وكان المسلمون في الهند ينظرون إلى أفغانستان في فترات حالكة وساعات عصيبة يشتد فيها اليأس ، ويغلب فيها الاتكال على المفاجئات والنجدات الخارجية – كبلاد منقذة لها من هذه الأزمات ، وقد استرسلوا في الخيال ، وأغرقوا في التفاؤل حتى وصلوا في ذلك إلى حد الأحلام والأماني المعسولة ، والتواكل الذي أضرّ بهم ، وقد تحقق هذا الظن مرة بشكل رائع حين استفحل أمر المرهته ، وكادوا يستولون على الهند كلها ويقضون على البقية الباقية من نفوذ المسلمين واعتبارهم السياسيّ ، وكانت حكومة « دهلى » لعبة في أيديهم ، والمسلمون تحت رحمتهم ، وعجزت قوة المسلمين العسكريّة المصابة بالشلل والإعياء والتمزق عن مقاومة هذه القوة الناهضة ، وصار المسلمون ينظرون إلى أفغانستان كمخلّص لهم من هذا الاحتضار واستحث بعض زعماء المسلمين[1] همّة القائد العسكري الشرقي الأكبر أحمد شاه ابدالي الذي علا نجمه ، وظهرت صلاحيته القياديّة في معارك حربيّة كثيرة ، وكان ذلك في سنة ١٧٦١ م واجتمعت القوات الإسلامية على اختلاف نزعاتها ومذاهبها – تحت رايته وحاربت « مرهته » فكانت معركة حاسمة وضربة قاضية عليهم ، ولم تقم لهم قائمة بعدُ .

---

١) كان في مقدمتهم حكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) وله رسائل كتبها إلى القائد الأفغاني ، تدل على بعد نظره ومعرفته بالأوضاع ، انظر كتاب رسائل ولي الله السياسيّة للبرفيسور خليق أحمد نظامي

وقد تطرّف المسلمون في اعتمادهم الزائد على أفغانستان ، والنظر إليها كمسعف أو منجد أيّام الحكم الإنجليزي ، فكانوا يستشرفون الحدود الشمالية الغربية وينتظرون أن يدخل من مضيق « خيبر » قائد كأحمد شاه بجيشه الكثيف ، ويحررهم من حكم الإنجليز الأجنبي ، وكان طبيعيا أن يخيب ظنهم في كل مرّة ، فقد شغلت أفغانستان بقضاياها الداخلية ، وبالمحافظة على استقلالها المهدد من روسيا من جانب ومن بريطانيا من جانب آخر ، وكانت أصغر وأضعف من أن تهاجم الهند وتنتصر على الحكومة الإنجليزية القوية الموطدة ، وعل كل ، فقد عاش المسلمون وكثير من المواطنين الهائمين بالحرية والاستقلال زمناً رغداً من هذه الأماني والأحلام .

ولما قتل الأمير حبيب الله خان بن عبد الرحمن خان سنة ١٩١٩ م وبويع ابنه أمان الله خان بالملك ، ووقف أمام السياسة الإنكليزيّة موقفاً فيه القوة والرجولة ، وحقّق الجيش الأفغاني على الجيش الإنجليزي تحت قيادة الجنرال محمد نادر خان بعض الانتصارات شغف المسلمون وأنصار حركة التحرير بأمان الله خان شغفاً عظيماً ، وكان الحديث عنه حديث المحافل والشغل الشاغل ، وضاق المسلمون ذرعاً بالسياسة الإنجليزيّة ، وضاقت عليهم البلاد بما رحبت وانطلقت فيهم موجة الهجرة إلى أفغانستان ، فهاجر مئات من المسلمين الغيارى ، والشباب الجامعي الثائر إلى كابل ، ولما كانت هذه الخطة غير مدروسة ولم يفكر أحد من زعمائها في عواقبها ولم يتفاهموا مع الحكومة الأفغانية أخفقت هذه الحركة ، وواجه

أصحابها مشاكل كبيرة .

ثم وقع في أفغانستان من الاضطراب ما يعرفه الجميع ، لشذوذ أمان الله خان في بعض تصرفاته ، وخروجه عن العادات الإسلامية والتشبّه بالإفرنج تقليداً لمصطفى كمال ، وسفور قرينته ، الذي هاج عليه الشعب الأفغاني ، واستغلّه الإنكليز الذين كانوا بالمرصاد وقضوا به وطرهم في التخلّص منه ، وكان ذلك في سنة ١٩٢٨ م ، وخلع الملك أمان الله خان ، واستولى حبيب الله المعروف بـ « بَجّه سَقّه » على البلاد ، وأقلقت هذه الحوادث أهل الهند ، واهتموا بها اهتمامهم بقضيّة بلادهم ، فكانت موضوع كل متحدّث ، حتى جاء الجنرال محمد نادر خان ، وأخذ زمام الحكم في يده واستقرّت الأمور ، وفرح الذين يهمّهم مصير تلك البلاد .

ولا أنسى دعوته للدكتور محمد إقبال وسر رأس مسعود رئيس الجامعة الإسلامية في عليكره ، والعلاّمة السيد سليمان الندوي إلى كابل سنة ١٩٣٣ م للبحث والمذاكرة في قضايا تعليميّة وإسلامية وقد لبوّا دعوته وانتهزوا هذه الفرصة لزيارة هذه البلاد العريقة في تاريخ الإسلام ومقابلة الملك المسلم المجاهد ، ولا أزال أذكر عودة أستاذنا العلاّمة السيد سليمان الندوي وحديثه الشائق المثير عن كابل ومعالمها وما تركته مقابلة الملك في نفسه من الأثر الطيب العميق – ولكنه فوجئ وهو مقيم في لكهنؤ بنبأ اغتياله وقد حزن للحادث حزناً شديداً ، وقد كان أمر الله قدراً مقدوراً .

وكانت الحدود مفتوحة بين أفغانستان والهند أيّام الحكومة

الإنجليزيّة يرد منها التجار وطلبة العلم والعلماء ، وكان أهل البلاد ينظرون إليهم نظر إكبار واحترام . ويعتقدون فيهم قوة فائقة ، ونخوة زائدة ، وكنا نراهم في الصّبا في القرى والمدن يحملون معهم بضائع بلادهم ويحافظون على الصلوات محافظة شديدة ، وكان فيهم فضل قوة جسمانية وهيئة ولباس يجذب الأنظار ويسترعي الانتباه ، فكنا نتهيّبهم ونحن أطفال ، ونسمّيهم « آغا » ولم نجرّب ونحن في أيام الصّبا إلاّ صنفاً واحداً من هؤلاء التجار والمتنقلين في البلاد ، فلمّا تقدمنا في السنّ والدراسة قرأنا عن جيراننا الشيء الكثير ، وعرفنا الشيء الكثير فتاقت نفوسنا إلى زيارة هذه البلاد .

تأخير زيارة أفغانستان :

وجاء دور الرحلات في حياتي ، فكانت إلى الشرق العربي ، ولم تبق عاصمة من عواصمه إلاّ وزرتها ، وزرت « تركيا » مرتين ، وأوربّا ثلاث مرّات بما فيها من عواصم شهيرة ومدن كبيرة واسبانيا – الفردوس الإسلامي المفقود – وزرت بعض بلاد المحيط الهندي في شرق آسيا . وكانت كل القرائن تدل على أن تكتب لي زيارة لهذا البلد المجاور القريب خصوصاً بعدما تحرّرت الهند وتوثقت بينها وبين أفغانستان صداقة ، وكان لنا في كابل وغزنين أصدقاء ورجال تربطنا بهم رابطة الدين والعلم .

وكان لأفغانستان دور خطير في تاريخ الإصلاح والتجديد والكفاح والجهاد الذي انبثق عن دعوة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد المتوفي ١٢٤٦ هـ وجهاده ، وفي حركته التي قادها فقد وصل

إلى مركزه الذي بدأ منه نشاطه وتحركاته العسكريّة عن طريق أفغانستان ، واستقبلته البلاد استقبالاً منقطع النظير ، وتقاطر عليه أهلها حكومة وشعباً ، وطابت إقامته في كابل ، وكانت له مع الأسرة الحاكمة[1] حينئذٍ صلات تضعف أحيانا ، وتقوى أحياناً ، وله معهم قصّة طويلة زخرت بها كتب التاريخ[2] ولو عرف أمراء أفغانستان في تلك الفترة التاريخية الحاسمة قيمة الوقت وعرفوا فضل هذه الدعوة ومكانة قائدها العظيم ومدى إخلاصه وتألمه وتأثيره لكان للإسلام والمسلمين في هذه المنطقة تاريخ أجمل وأشرف بكثير من تاريخها اليوم ، وقد ألّفت كتاباً في سيرة هذا الإمام وتاريخ هذه الدعوة وأنا في ريعان الشباب ، وزرت المنطقة التي وقعت فيها المعارك وقام فيها نظامه الإسلامي في الحدود الشماليّة الغربيّة أكثر من مرّة ، ولم تكتب لي زيارة أفغانستان مع ولعي بهذا التاريخ وعكوفي على البحث والتحقيق في هذا الموضوع وحبي للشعب الأفغاني الباسل الغيور ، ووطنه العريق في النضال في سبيل الإسلام وفي سبيل الاحتفاظ بالاستقلال والكرامة .

في وفد رابطة العالم الاسلامي :

وجزى الله رابطة العالم الإسلامي خيراً إذ أتاحت لي فرصة زيارة هذه البلاد ، وهيّأت لي أسبابها وتغلّب جِدّها وإلحاحها على

---

١) وهي التي تحكم أفغانستان الآن .

٢) اقرأ كتاب المؤلف « إذا هبت ريح الإيمان »

معاذيري وكثرة أشغالي والعوائق التي تعترضني في تحقيق هذه الأمنيّة ؛ فشكّلت وفداً من وفودها يزور أفغانستان وإيران وبعض الأقطار العربية في غربي آسيا ، واختارت اثنين من أعضاء المجلس التأسيسي للرابطة ليكونا عضوين في هذا الوفد واختارت الدكتور عبدالله عباس الندوي المسؤول عن المنظمات الإسلامية في الرابطة ، ليكون سكرتيراً للوفد ومرافقي الخاص ومساعدي في هذه الرحلة ، إلاّ أن العضوين الكريمين ، وهما فضيلة الشيخ سعدي ياسين من بيروت ومعالي الشيخ حنيفه محمد حنيفه من سيلان – لم يتمكّنا من الوصول إلى الهند لبعض الأسباب ، فوَقع اختيار الأمانة العَامّة على الكاتب الاسلامي المعروف سعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال عضو مجلس الشورى في المملكة العربية السعوديّة وأستاذ الثقافة الإسلاميّة في جامعة الملك عبد العزيز بجده ، فكان اختياراً موفقاً قد صادف أهله ، ووصل إلى كابل من مكّة رأساً يوم الأحد ٣ / يونيه ١٩٧٣ م صباحاً وتأخّر سفرنا لبعض الأسباب إلى يوم الإثنين ٤ / يونيه مساءً .

وكانت الأمانة العامة وعلى رأسها معالي الشيخ محمّد صالح القزاز الأمين العام للرابطة – قد اتصّلت بالجهات الرسميّة في أفغانستان وبسفارة المملكة العربية السعوديّة في كابل بشأن هذه الزيارة وتخطيط برامجها ، وتمكين الوفد من القيام بمهمّته وأداء رسالته على أفضل طريق ، وقد رحّبت حكومة أفغانستان بهذا الوفد الذي يمثل أكبر مؤسّسة إسلاميّة يمثل فيها أكبر عدد من كبار علماء الأقطار الإسلاميّة ، وقادة الرأي وأصحاب الفكرة ، وتقوم

في بلد له في قلوب المسلمين أشرف مكان ويشرف على هذه المؤسّسة جلالة الملك فيصل المعظّم خادم الحرمين الشريفين والداعي الأكبر إلى التضامن الإسلامي .

وألحت – والأفغان معروفون بالاحتفاء بالضّيوف والحرص الشديد على إكرامهم – على أن ينزل الوفد في ضيافتها الكريمة وأن تكون وزارة المعارف هي النائبة عنها والقائمة بتيسير مهمّته ورسم مخطّطه وبرامج الزيارة واللقاءات وقبلت السفارة شاكرة هذا العرض الكريم .

في كابل :

وكان توجهنا من دهلي مساء يوم الاثنين ٤ / يونيه بطائرة أفغانية ولمّا أعلن المذيع دنو الطائرة من كابل كان لهذا الإسم رنين في الآذان وحنين في القلوب فقد آن لأمنيّة قديمة أن تتحقّق ، ووصلت الطائرة الى مطار كابل في الساعة الخامسة نهاراً بتوقيت كابل ، وكان الطقس مقبولاً وأميل إلى الاعتدال بالنسبة إلى طقس دهلى القاسي ، وكان في استقبالنا سعادة سفير المملكة العربيّة السعوديّة الصديق القديم والأخ الأكبر الحميم الشيخ محمّد الحمد الشبيلي سفير المملكة في دهلي سابقاً ، وقد أحبّه المسلمون في الهند وأحبّهم ، وسعادة الأستاذ علي الفوزان المستشار الأوّل في السفارة ، وسعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال عضو الوفد ، والأستاذ غلام محمّد نيازي عميد كليّة الشريعة في جامعة كابل ، وفضيلة الشيخ محمّد إسلام تسليم المشرف على

المدارس الدينيّة والتعليم الديني في وزارة المعارف الأفغانية وسيّد محمّد يعقوب الهاشميّ مدير دار الحفاضا في كابل ، والأستاذ عبد الرّسول سياف أستاذ كليّة الشريعة ، وهو الذي اختارته وزارة المعارف ليكون مرافقاً لنا في هذه الزيارة ومترجماً للوفد ، وعدد من علماء كابل ورجال العلم والدين .

وكان نزولنا في فندق « اوتيل كابل » ومن حسن المصادفة أن الوفد المؤلّف من سماحة مولانا السيد سليمان الندوي والعلامة محمّد اقبال وسرّ رأس مسعود نزل في هذا الفندق قبل أربعين عاماً إلاّ أنه قد تجدّد بناؤه وأدخلت عليه تحسينات كثيرة ، وكانت نافذة الغرفة التي نزلت فيها تفتح على مقبرة الأمير عبد الرحمن الغازي الذي كانت له مواقف محمودة مشرفة في محاربة الإنجليز وفي نشر الإسلام في المناطق التي ظلت بعيدة عنه[1] ، فاستحضرنا تاريخه المجيد وأيامه الطيّبة .

---

١) يقول الأمير شكيب أرسلان في حواشيه المعروفة عن الأمير عبد الرحمن خان بعد ما ذكر فضائله الإداريّة والسياسيّة : « ووسع حدود البلاد من جهة الشرق ، واستولى على ولاية كافرستان التي هدى الله أهلها على يده إلى الإسلام ، فسمّاها « نورستان » وبالإجمال فقد ذاقت مملكة الأفغان في زمانه طعم الراحة وعرفت معنى الوحدة ، وما زال يسدّد أمورها إلى أن قبضه الله إليه سنة ١٣١٩ هجريّة وفق ١٩٠١ ميلاديّة ، وهو معدود من أفضل ملوك هذا العصر في سداده وحكمه ومضاء عزيمته » (حاضر العالم الإسلامي ، المجلد الثاني ، ص ٢٠٩)

في ضيافة وزارة المعارف وتوجيهها :

وكانت الأيام التي كنا نقضيها في كابل ستة أيّام ، وضعت وزارة المعارف برامجها بالتعاون مع السفارة السعوديّة للزيارات واللقاءات والحفلات والأحاديث ، وكان الفضل الأكبر في هذا التخطيط والرسم بل في الاهتمام بموضوع الوفد والاحتفاء به للأستاذ الكبير ريوهاند غلام محمّد نيازي عميد كليّة فاكتوله شرعيّات – بوهنتون – كابل ، يعني عميد كليّة الشريعة في جامعة كابل ، وكان أول التوفيق اختيار الأستاذ عبد الرسول[1] سياف أستاذ كليّة الشريعة كمرافقٍ ومترجم ، وهو رجل مهيّأ لهذه المهمّة الدقيقة الصعبة ، فكرةً ومقدرةً وعقيدةً وحماساً ، ولم أجد مترجماً أقدر على الترجمة وأكثر إخلاصاً ووفاءً لما ينقله من لغة المتحدّث إلى لغتهم ، وله اتصال وثيق بالشباب الجامعي واهتمام خاصّ بالتوجيهِ الإسلامي والتربية الفكرية على الأسس السليمة في طلبة الكليات والجامعة ، وقد تخرّج من كليّة أصول الدين في الأزهر ، وقرأ بعض مؤلّفاتي قبل أن يلقاني وهو وكثير من زملائه معجبون بكتب الأستاذ سيّد قطب والأستاذ المودودي ومؤلّفات كاتب السّطور ، وحريص على نقلها إلى لغتي البلاد الفارسيّة والبَشْتويّة ، ويشاركه في هذا الاتجاه أستاذان آخران وهما الدكتور محمّد موسى توانا وبرهان الدين ربّاني ، وللأخير تراجم منشورة وكتابات مطبوعة .

---

١) إن هذه التسمية محل نظر ، وامثال هذه الأسماء شائعة في بلاد العجم ، وكان الأولىٰ أن يكون الإسم عبد ربّ الرسول .

وكانت الأيام الستة التي قضيناها في كابل قليلة بالعدد غير كافية بالنظر إلى أهمية البلاد ، وسعتها ، ولكنّها كانت كبيرة القيمة كثيرة الجدوى بالنظر إلى البرامج والأعمال . وقد دفعنا غرامة قصر الإقامة – الذي كنا مضطرّين إليه لبعض الأسباب ، وتحمّلنا عقوبته في الإشتغال المرهق والعمل الدائب والبرامج المتصلة بعضها ببعض ، فقد تجتمع في يوم واحد أربعة برامج أو خمسة ، فيها زيارة المعاهد الكبيرة والحديث فيها ولقاء شخصيات بارزة وحضور مآدب ، وكنا لا نرجع في بعض الأيام إلاّ متأخّرين في اللّيل متعبين لكثرة التنقل والحديث والسهر ، ولكن كان فيما كنا نلقاه من ترحيب إخواننا الأفاضل وحماسة الشباب وحسن استجابتهم تعويض كريم لما كنا نبذله بقوتنا ونشاطنا ، ونفقده من راحتنا واستجمامنا .

زيارة المعاهد العلمية والمراكز الثقافية :

كانت في مقدمة المعاهد العلمية والمراكز الثقافية التي زرناها وتحدّثنا إلى أساتذتها وطلبتها مدرسة أبي حنيفة في « بكرامي » من ضواحي كابل ، وهي مدرسة تشتمل على المراحل الثلاث الابتدائيّة والمتوسطة والثانويّة ، وقد طاف بنا مدير المدرسة الفاضل الأستاذ محمّد سيلاني على فصولها ورواقاتها ومطعمها ، ثم تحدّثنا إلى عدد كبير من الشباب والأساتذة وطمأنونا على أن المستمعين يفهمون اللغة العربية فلم نحتج إلى ترجمان ، وكان المعهد الثاني الذي زرناه مدرسة دار الحفاظ وقد استقبلنا مديرها السيد محمد يعقوب

الهاشمي وعقد حفلة تكريم حضرها أساتذة الدار وعدد من علماء كابل وشيوخه ، والمعهد الثالث الذي زرناه دار العلوم ، وهو المركز العلمي الديني الرئيسي في كابل وأكبر مدرسة دينيّة في العاصمة ، وسمعت أن رئيس الوزراء الحالي الدكتور محمّد موسى شفيق من المتخرّجين فيها ، وفيها أساتذة فضلاء وشيوخ أجلاّء ورئيس الأساتذة فيها وشيخ الحديث هو الشيخ محمّد كل ، وقد عقدت في فنائها حفلة كبيرة حضرها أكثر علماء البلد وكثير من الأعيان والوجهاء ، واستقبل الوفد بحماسة وحفاوة ، وتكلّمت أنا والأستاذ أحمد محمّد جمال وكان حديثي عن مأثر خليفة رسول الله أبي بكر الصّديق في غيرته على الدين وحمايته من المحرفين والمرتدين ، وكلمته المأثورة الخالدة : « أينقص الدين وأنا حيّ » ومسؤولية العلماء في بلادهم ، وأرسلنا النفس على سجيتها لأنّ الجوّ علميّ دينيّ ، وأكثر الحاضرين يفهمون اللغة العربية .

وكان في مقدمة المؤسّسات العلمية الكبيرة التي سعدنا بزيارتها والتحدّث إلى أساتذتها وشبابها : كليّة الشريعة ، وهي المكان الطبيعي لأعضاء الوفد الذين ينتمون إلى الأسرة العلمية الدينيّة ويشتغلون بالبحث في الموضوعات الشرعيّة ، وهي المضيفة الحقيقية للوفد ، وعميدها الدكتور غلام محمد نيازي من كبار الأساتذة والباحثين المتعمقين في فهم الدين والمتوسعين في الدراسات الإسلاميّة ، وقد عقدت الكليّة حفلة عشاءٍ للتعارف بالإخوان والزملاء الأفاضل ، وإليها يرجع الفضل في الحفلة الكبيرة التي انعقدت في مدرج جامعة

كابل الكبيرة ، وحضرها بعض السفراء وكبار الأساتذة والمثقّفين والموظفين وعدد كبير من طلبة الكليات والشباب الجامعي ، ونصّ المحاضرة التي ألقيت فيها سيمرّ بالقارئ قريباً .

وزرنا ثانويّة « ملالي » للبنات ، المنسوبة إلى سيّدة أفغانية اسمها « ملالي » قادت حركة الاستقلال ، وألقى فيها سعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال كلمة لطيفة تلقي ضوءاً على مركز الفتاة المسلمة في الشريعة الإسلاميّة وحقوقها وكرامتها ومكانتها في المجتمع ، وكنا نشعر ونحن في هذه الثانوية أننا في معهد للبناتِ في عاصمة أوربيّة أو مركز من مراكز الثقافة الغربيّة ، وقد كان السفور عامًّا يشوبه شيء من الحياء الذي امتاز به الشعب الأفغاني وقد وجّهت إلى الخطيب بعض الأسئلة في رزانة وتحفّظ ، وأجاب عنها في لباقة ولياقة ، وهو صاحب اختصاص في موضوع حقوق المرأة المسلمة ودراسة مقارنة للتشريع الإسلامي والتشريعات الأجْنبيّة ، وطالبت الناظرة أن تصدر فتوى جماعيّة في تحريم حقّ تعدّد الزوجات لأنّه إهانة للمرأة ، وشرح الأستاذ الأسباب التي جعلت الإسلام يبقي على إباحة هذا الحقّ .

وزرنا ثانويّة للبنين تسمّى « مدرسة الإستقلال » على أحدث طراز يغلب عليه الطابع الفرنسي (ومديرها الأستاذ عبد الهادي تثقّف في فرنسا) وكان لي فيها شرف التحدّث إلى الشباب ، وكان حديثي يدور حول (المثل الكامل) أو القدوة وما لها من تأثير في تربية الشباب وصياغة السيرة والأخلاق .

حديث مع السيدات الأفغانيات « المتجدّدات » :

وكانت السفارة العربية السعوديّة حريصة شديدة الحرص على الاستفادة والإفادة من هذه الفترة القصيرة التي نقضيها في كابل ، وانتهاز فرصة لعقد ندوات علمية ودينية وللتعرّف على أبرز الشخصيّات المثقفة من مختلف الطبقات ، فعقدت ندوتين في منزل سعادة السفير الواسع العامر ، إحداهما ندوة للسيدات المسلمات المنتميات إلى البيوتات الكريمة والأسر المحترمة ذات الاتجاه الدّيني ، ولم تكن السيّدات التي حضرن هذه الندوة ثائرات على العقيدة الإسلاميّة ، متنكرات للدّين رغم ثقافتهنّ العصريّة.

تغلغل الثقافة العصرية وأفكار المستشرقين في المجتمع الأفغاني النسوى

ولكن لاحظنا أن المدنية الغربيّة قد قطعت شوطاً بعيداً في هذه البلادِ ، وأن الثقافة الغربيّة قد آتت أكلها يانعةً ناضجة ، وأن المسافة بين الفترتين ١٩٢٨ م – و١٩٧٣ م كانت واسعة بعيدة ، فقد كان الشعب الأفغاني إلى عهد أمان الله خان متمسكاً بالتقاليد الإسلاميّة الأفغانيّة عاضًّا عليها بالنواجذ ، حتى بلغ في ذلك حد التطرّف والمغالاة ، وكان نتيجة ذلك أنّ خروج الملك أمان الله خان عن بعض هذه التقاليد أحدث ثورة أطاحت بعرشه ، أمّا الوضع الآن فمختلف جدّاً ، إنّها مسافة قصيرة بالحساب الرياضي ، وهي مدة خمس وأربعين سنة ، ولكن المسافة الفكريّة والثقافيّة هي مسافة شاسعة يقطعها بعض الشعوب في قرن ، فقد أصبح

الحجاب الآن رمزاً للتخلّف والجهل والفقر ، ولذلك انكمش ولجأ إلى القرى والأرياف وبيوت بعض العلماء المحافظين والفلاحين البعيدين عن العاصمة ، وكان اللّباس افرنجيّاً خالصاً ، ولكن البيئة القديمة والطبيعة الأفغانيّة المسلمة كانت لا تزال لها بقايا في حديث هؤلاء السيّدات المسلمات المثقفات ، ولم تكن هنالك ثورة عارمة على الدين وعلى الشريعة الإسلامية ولم يبلغن إلى حدّ السخريّة والاستهزاء بالدين ، بل كنّ في غالب ما يتحدّثن به محتشمات عارفات قيمة الدين ومكانته ، يبدين رغبتهنّ في معرفة مكانة المرأة في الإسلام وما منحها من حقوق وكرامة ، وكانت أسئلتهنّ تنمّ عن مدى تأثير كتابات المستشرقين ، وما قاموا به من دعاية دقيقة مصمّمة تصميماً حكيماً حول الإسلام ومبادئه ونُظمه ، وما نشرته الحضارة الغربيّة من فكرة مساواة المرأة والرجل مساواة كليّة ، وبجانب ذلك كنا نلاحظ تقصير علماء المسلمين وكتّابهم ودعاتهم في عرض الشريعة الإسلاميّة والثقافة الإسلاميّة في الأسلوب العصري الجذّاب ، وفي إقناع الطبقات المثقفة إقناعاً عقلياً ، وعلى كلّ فقد اتسعت الفجْوة بين الطبقتين ، طبقة العلماء ممثلي الدّين وبين الطبقة المثقّفة واتسع الخرق على الراقع .

كانت الكلمة في هذه الندوة لزميلنا الفاضل سعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال ، فهو كما قدّمنا صاحب الاختصاص في هذا الموضوع وله فيه جولات ، وكتابه « مكانَدِ تُحمَدي » من أحسن ما كتبّ في هذا الموضوع ، ورأيت من المناسب أن ألقي كلمة عامّة تهيئة للعقول والأسماع فقلت :

«إنني عنيت بدراسة تاريخ الحضارات والمجتمعات وخاصّةً تاريخ أسباب التقدّم والانحطاط في الأمم والمدنيات ، فوجدت أن من أعظم أسباب الانحطاط والفوضى التي أدّت إلى زوال الأمم وانقراضها وانحطاط المدنيات وانهيارها – هو تفكّك نظام الأسرة واختلال الميزان في الحياة المنزليّة وسوء علاقة الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ، وزهد النساء في الحياة المنزليّة والتهرّب من مسؤولياتها ، فما رأينا مجتمعاً مائلاً إلى التدلي والإنحطاط وأمّة تسير بخطى سريعة واسعة إلى الزوال والإنقراض إلاّ وقد فشا فيها هذا الداء ، وبدأت السيدات فيها ينصرفن عن الحياة المنزليّة وتكاليفها ، ويزهدن في (الأمومة) ومسؤولياتها وحضانة الأولاد وإنشاء الجيل الجديد والاعتناء بتكوين البيت الصالح الذي يجد فيه الرجل جميع أسباب الراحة والهدوء ويتخيّل إذا دخله أنه الجنّة إلى مشاركة الرجال في وظائفهم ومجالات نشاطهم ومزاحمتهم بالمناكب ومسايرتهم بل ومنافستهم في جميع ميادين الحياة ، وهذا الذي جرّ على تلك المجتمعات قلقاً فكريّاً وفوضى اجتماعيّة وثورة خلقيّة ، وعجّل وصولها إلى الهاوية التي لا قرار لها وهذه قصة اليونان القديم وروما وفارس القديمة ، وإني أخشى على الأمم الشرقيّة هذا المصير المؤلم وقد بدت طلائعه في مجتمعنا الإسلامي الشرقي »

هذه خلاصة كلمتي مع زيادة وإيضاح للفكرة ، فإنّ الكتابة تبلغ حيث لا تبلغ الخطابة ، ولعل هذه السطور التي نسطرها الآن تصل إلى أخواتنا الأفغانيّات الفاضلات الكريمات فيتنبّهن إلى الخطر المحدق بالمجتمع الأفغاني المسلم وتحرص على ألاّ يكنّ أقوى العوامل

في الوصول إلى هذه النهاية الأليمة .

ثمّ تحدّث الأستاذ أحمد محمّد جمال حديثاً علمياً ، وشرح نظرة الإسلام إلى المرأة وتحدّيده لمكانتها في المجتمع ووظيفتها في الحياة وفضلها في تكوين الأسرة الصالحة والمجتمع الفاضل السليم ، وتوجّه فيض من الأسئلة يدور أكثرها حول تعدد الزوجات ، وتخصيص حق الطلاق بالرجل ، والحجاب الشرعي ، وانتهت الندوة في جوّ من الهدوء والوقار ، وانصرف الضيوف والضيّفات إلى العشاء وصلاة العِشاء .

وقد حضر زميلنا الفاضل الأستاذ أحمد محمّد جمال ندوةً نسوية أخرى لإحدى الجمعيات النسائيّة في كابل لم أحضرها لكوني في ذلك الوقت في غزنين ، فأخبرني بأنّ المناقشة كانت حادّة في موضوع الحجاب وتعدّد الزوجات وحق الرجل في الطلاق وقد دلّ كلّ ذلك على القلق الفكري الشديد الذي يوجد في المجتمع النسوي الأفغاني ومدى تأثير الدعاية الأجنبيّة في ثقافته .

حديث مع علماء كابل :

وكانت الندوة الثانية خاصّة بالعلماء ، وقد لبيّ دعوة السفارة التي تتمتّع بالاحترام الزائد في الأوساط الدينيّة والمجتمعات الإسلاميّة في البلد أكبر عدد من العلماء والشيوخ وجلسنا في جوّ من الإخاء والبساطة والبعد عن التكلّف ، وكان حديثي في هذه الليلة يدور حول مسئولية العلماء نحو الدعوة والاتصال

بالشعب اتصالاً مباشراً ، ونوهت بأهميّة طبقتين بصفة خاصّة الجماهير والشباب ، وذكرت في ذلك تجارب بعض الجماعات والدعوات ، وأشرت إلى جماعة التبليغ في شبه القارّة الهنديّة ، ومنهج دعوتها وكيف نجحت إلى حدّ كبير في الإتصال بالشعب والوصول إلى عامّة المسلمين في بيوتهم ومتاجرهم ، وما كان لها من انتشار في الأقطار الإسلاميّة ومن تأثير وفضل في إيقاظ الشعور الديني وإثارة العاطفة الدينية والبعث على الرجوع إلى الله وإصلاح الحال وتقويم الأخلاق والأعمال والإيثار وبذل الجهود وعلوّ الهمّة في سبيل الله ، وقلت : إنّ بقاء الشعب من غير توجيه ديني وتربيّة إسلاميّة ووعيّ شامل خطر كبير وانه يصير لقمةً سائغة ومالاً سائباً لكلّ مفسد وملحد ، وللدعوات الهدّامة والفلسفات المحاربة للإسلام .

ثمّ نوّهت بضرورة العناية بالشباب وخاصّة الشباب الجامعيّ وانهم رجال الغد وأمة المستقبل وهم الذين يتولون قيادة البلاد وصياغة الحياة وتشريع القوانين وتوجيه المعارف ، ويملكون مفاتيح الأمور وزمام الحكم ، وفي صلاحهم صلاح البلاد وفي اقتناعهم بفضل الإسلام وإيمانهم بقيمه ومفاهيمه وحماسهم للدّين بقاء الإسلام وقوته وسيطرته وفي عدم ثقتهم بصلاحية الإسلام واضطرابهم في العقيدة ويأسهم من مستقبل الإسلام وصلاحيته للقيادة وإيمانهم بأنّ الحضارة الغربيّة هي آخر ما وصل إليه الإنسان من التقدّم والتحرر والسعادة والعزّ ، وانها هي القدر المحتوم الذي لا محيد عنه ولا مفرّ ، زوال للإسلام أو انسحاب عن ميدان الحياة وردّة فكريّة وحضاريّة تغزو البلاد كلّها وتنطلق موجتها العارمة فلا تدع بيتاً

من مدر ولا وبر ، ولا تدع مَزرعة فلاّح ولا مدرسة عالم ولا رايةُ شيخ ، وبيّنت مصير بعض البلاد الإسلاميّة التي فرّط علماؤها في العناية بالشباب وإحراز ثقتهم وإعجابهم ، وتركهم حبلهم على غاربهم يفترسهم من شاء من دعاة الإلحاد والإفساد او الشيوعية والوجوديّة والتحلّل ، كيف استحوذ على هؤلاء الشباب الملحدون والزنادقة ودعاة القومية المتطرفة أو الشيوعية الملحدة ، واختاروا لعملهم مجالين : مجال الجامعة ومجال الجيش ، فاستطاعوا في مدّة قصيرة لا تزيد على بضع سنين أن يسرقوا البلاد بعصاهم ويتقلدوا مفاتيح الحكم ، ويسيطروا على كلّ ما له تأثير في توجيه البلاد وسياستها[1] .

وذكرت أنّ العمل في الشباب يحتاج إلى الأسلوب الجديد واللغة العصريّة ومعرفة دقيقة بنفسيّتهم ومشكلاتهم التي يعانونها وأنّه لا بدَّ في ذلك من العمل بالوصيّة التي نسبت إلى سيّدنا عليّ بن أبي طالب – رضيّ الله عنه – « كلّموا الناس على قدر عقولهم – أتريدون أن يكذب الله ورسوله » وإنّ المهمّ في هذا الموضوع هو إعادةُ الثقة فيهم بصلاحيّة الإسلام للحياة والقيادة ، وأنّه ليس مسايراً للزمن فحسب بل هو سابق للزمن ، وصنع الله الذي أتقن كل شيءٍ ، ويفيد في هذا المجال عرض الكتب الإسلاميّة التي

---

١) وسورية التي كانت يضرب بها المثل في التمسك بالدين ، والمحافظة على التقاليد الإسلاميّة خير مثال لهذه النكبة .

تلائم ذوقهم وتقنع عقولهم ، وتأليفها ونشرها أو نقلها إلى اللغات المنتشرة في هذه البلاد .

وتكلّم الأستاذ أحمد محمّد جمال أيضاً ، وأثار بعض الجوانب المهمّة ، ثمّ بدأت المذاكرة وعلّق بعض الحاضرين الفضلاء ، وفي مقدمتهم الأستاذ بشّار المدير العام للوعظ والإرشاد بوزارة الصحافة والإعلام ، والأستاذ محمّد هاشم المجدّدي وعلّق على الحديث وأوضح بعض النقط الهامّة وانفضّ المجلس ، وكان الإعجاب والتأثر باديَين على الوجوه ، والسرور يغمر الجوانح .

لقاءات مع الوزراء والمسؤولين :

أمّا اللقاءات فكان في مقدمتها مقابلة معالي وزير المعارف محمّد ياسين عظيم ، ونائبه الدكتور محمد صدّيق في مكتبهما ، وتناول الحديث موضوع توجيه المعارف وسياستها في الأقطار الإسلاميّة ورأينا من معالي الوزير حسن إصغاء وعنايّة بالموضوع وشعوراً بالمسئولية الضخمة ، ولما كانت وزارة المعارف لها الفضل الكبير في تخطيط برامجنا وتيسير مهمّة الوفد ، وكانت هي المضيفة بالنيابة عن الحكومة ، شكرنا معالي الوزير وسعادة نائبه على الضيافة الكريمة وأبدينا عواطفنا وقد عقدت وزارة المعارف مأدبة تكريم للوفد ، وقابلنا كذلك معالي الأستاذ عبد الستار سيرت المستشار الأول للصدر الأعظم (رئيس الوزراء) وهو تعلم في مصر وتخرّج من الأزهر وكان يتكلّم اللغة العربيّة بطلاقة وكأبنائها – وقابلنا سعادة سميع الدين (زوند) وكيل وزارة العدل ، وسعادة

عبد الهادي هدايت ، وكيل الوزارة لشئون النيابة العامّة والأستاذ كمال شنواري ، رئيس إدارة الأوقاف العليا ، والأستاذ محمّد صدّيق كباري رئيس جمعية العلماء ، وكانت عندهم مجموعة كريمة من الموظفين في وزارة العدل ورؤساء بعض شعبها وفروعها ، وقابل سعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال قبل وصولي إلى كابل معالي وزير الإعلام .

وكان الأستاذ عبد الرسول سياف يقوم بوظيفة الترجمة والتعبير عن حديثنا في جميع الاجتماعات واللقاءات باللغة الفارسيّة في مقدرة ومهارة ولاحظنا أن اللغة الفارسيّة هي اللغة التي يتكلّم بها المثقّفون والوزراء والموظّفون الكبار ، وإنّ كانت اللغة البشتويّة هي اللغة الرسميّة التي تكتب فيها الرسائل الحكوميّة وتصدر فيها أحكامها وتوجّه فيها الدعوات ولكنّ اللغة الفارسيّة يفهمها الجميع ويتكلّمون بها في مناسبات علميّة وندوات أدبيّة ، وسمعت أنّها أكثر انتشاراً ورواجاً في قندهار المتاخمة لحدود بلوخستان ومركز دعوة بختونستان .

وكان من أفضل من تعرّفنا عليهم في الزيارة وسعدنا بمرافقته وتوجيهاته ومساعدته صاحب الفضيلة الشيخ محمد إسلام تسليم الذي هو نموذج العلماء الذين يجمعون بين الرسوخ في الدين والاستقامة والمحافظة على مكانته في أفغانستان الجديد وهو يتمتّع بثقة زائدة واحترام من أولياء الأمور في وَزارة المعارف وكبار المسئولين .

ضعف نفوذ العلماء في الشعب ونتائجه :

وكانت أفغانستان بلد العلماء والمشايخ قبل فترة قصيرة ، وكان الشعب خاضعاً لنفوذ العلماء خضوعاً لم يعرف لشعب شرقي آخر ، وكان لتزكيتهم وإعجابهم بشخصيّة أو حكومة ولنقدهم وعدم ارتياحهم قيمّة كبيرة وتأثير عميق يحسب له حساب كبير في الحكومة والشعب وكان هتافهم بالجهاد الذي يسمّونه عادة « غَزا » صدى واسع في القرى والأرياف والمدن واستجابة ليست لدعوة أخرى ، وإليهم يرجع الفضل في محاربة الإنجليز ومحافظة البلاد على استقلالها وحرّيتها وتمسّكها بالغيرة الدينيّة وكثير من الأخلاق والآداب الإسلامية ومحاربة الدعوات المنافيّة للإسلام الشاذّة المنحرفة عن الإسلام ، ولعلّ ذلك من أسباب بقاء المحاكم الشرعيّة والحكم بالشرع الإسلامي في أفغانستان حين قضي على ذلك في أكثر البلاد الإسلاميّة ، ولا شك أن حكومة أفغانستان في ذلك تستحق التهنئة والاعتراف بالفضل .

وقد تخرّج مئات من طلبة العلم في مدارسنا الدينيّة الكبيرة في الهند ، وفي مقدمتها جامعة ديونبد المشهورة ، ومعلوم أنّ الشعب الأفغاني – كالشعب التركي – سنيّ حنفيّ – لا يشذ عن ذلك إلاّ شاذّ . وقد لاحظنا في زيارتنا أنّ هذا الجيل من العلماء قد انصرم أو كاد ينصرم .

وقد فقد العلماء الشيء الكثير مع مرّ الزمان وتغيّر الأحوال من نفوذهم وسلطانهم ، وكان ذلك من سياسة الحكومة الحكيمة ،

وفي صالحها فقد تلقّت درساً من التجارب الماضية ، وعرفت كيف أثار العلماء الشعب على أمان الله خان فانقض عليه ، حتى اضطرّ إلى مغادرة البلاد ، ولعلها عملت بالوصية الحكيمة التي حكا الدكتور محمّد إقبال في نصائح إبليس لأتباعه من قادة الشعوب وزعمائها قائلاً : « إنّ العلاج الحاسم لغيرة الأفغان الدينيّة أن يقصى « ملا » يعني الحاكم الديني من جبال افغانستان وسهولها » وقد ضعفت هذه الغيرة الدينيّة والنخوة الأفغانيّة ضعفاً ملموساً ، فحدثت تغيرات عظيمة في المجتمع وأساغها الشعب ولم يحرك فيها ساكناً ، وفشا السفور وتقليد الحضارة الغربيّة والتفرنج ، ولم يحدث ذلك اضطراباً في الحياة ، وأصبحت أفغانستان محطّةً كبيرةً للشباب الخنافس (HIPPIES) لوجود المخدرات والحشيش في هذه البلاد بكثرة ، وقد شاهدنا عدداً كبيراً منهم يرافقوننا في الطائرة وينزلون في كابل وينتشرون فيها ، وتأثيرهم في أخلاق الشعب ، واختلاط الجنسين معلوم مشاهد ، ثمّ لا يثير ذلك استنكاراً واضحاً واضطراباً كبيراً ، وكل ذلك يدلّ على درجة الهبوط في سلّم الغيرة الدينيّة والنخوة الإسلاميّة ، وسببه الأكبر أنّ القيادة قد خرجت من أيدي العلماء إلى أيدي الساسة والزعماء الذين يزنون الأشياء في موازين الاقتصاد والسياسة ، ويخضعون للأمر الواقع .

وسمعت أن « هرات » لا تزال مدينة العلم والعلماء ومدينة المدارس والمساجد ، وأنّه لا يزال منار العلم فيها عالياً وشعار الصلاح ظاهراً ، ولم أتمكنّ رغم حرصي الشديد من زيارة هذا البلد الأثري

والمركز الدينيّ الذي نهض منه علماء مصلحون ومؤلفون كالعارف الكبير والمحقّق العظيم الإمام عبد الله الأنصاري صاحب (منازل السائرين) الذي شرحه العلاّمة ابن القيّم بكتابه المشهور « مدارج السالكين » والعلاّمة الفقيه المحدّث الإمام العالم المحقّق الشيخ نور الدين علي بن سلطان محمّد المعروف بـ« ملاّ علي قاري م ١٠١٤ »

الأسرة المجددية في كابل :

ولا تزال في العاصمة وضواحيها بقيّة من العلماء والمشايخ مشتغلين بالعلم والتدريس والإرشاد والدعوة إلى الله ، وفي احدى ضواحي كابل المعروف بـ« قلعة جواد » زاوية للسادة المجددية ، وكانت لبعض مشائخها شهرة تخطّت حدود أفغانستان ، وكان للشيخ الكبير مولانا فضل عمر المجددي المعروف بـ« شيرآغا » والملقب بـ« نور المشائخ[1] » أتباع ومريدون يعدون بالمئات في الهند والباكستان ، وشقيقه سعادة الشيخ محمّد صادق المجددي سفير أفغانستان سابقاً في الشرق العربي وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلاميّ معروف ومحبوب في البلاد العربيّة لعلمه وصلاحه واعتنائه بالقضايا الإسلاميّة ، وقد مثل دوراً خطيراً في الثورة التي أدّت أخيراً إلى خلع الملك أمان الله خان وجلوس الملك نادر خان على العرش ، وقد زرنا قلعة جواد فوجدنا فيها زاوية عامرة بالطالبين ومسجداً مكتظّا بالمصلّين ومدرسة معمورة بطلبة

---

١) توفي إلى رحمة الله في ٢٥/محرم سنة ١٣٧٦ هـ

علوم الدين – وقد أكرمنا سماحة الشيخ محمد إبراهيم المجددي خليفة والده نور المشائخ بعدّة زيارات في الفندق الذي كنا نازلين فيه وغمرنا بعطفه ولطفه وتشرفنا كذلك بعدد من أفراد هذه الأسرة الكريمة كالشيخ عبد السلام المجددي وغيره ، وما ننسى فلن ننسى الأخ العزيز صبغة الله المجددي الذي تعرّفنا عليه شاباً في القاهرة سنة ١٩٥١ م ، وقضينا معه أيّاماً في المسجد الأقصى في معتكف جده الشيخ محمّد صادق وتبادلنا الزيارات في كابل ، وجلسنا جلسات طويلة تجاذبنا فيها أطراف الحديث وجدّدنا ذكريات الأيام الماضية يوم كان المسلمون أعزّ وأشرف وصحائف أعمالنا أنقىّ وأبيض ، وهو مؤسّس جمعيّة العلماء في أفغانستان وعضو المجلس التأسيسي فيها ، وقد أبلى بلاءً حسناً في سبيل العقيدة والدعوة الإسلاميّة في بعض الوزارات ، وأستأنسنا كذلك بالشيخ محمّد هاشم المجددي ابن صديقنا الكبير الشيخ محمّد صادق المجددي واستفدنا كثيراً من معلوماته وكلاهما يعملان في وزارة التربية والتعليم .

شخصيّات دينيّة وعلميّة :

وأنسنا كذلك بلقاء الشيخ عبد العزيز بن المجاهد الكبير الشيخ سيف الرحمن الطوكي المهاجر إلى كابل ، والمجاهد الكبير وابن اخيه عزيز الرحمن ، كما تشرفنا بلقاء الشيخ غلام ربّاني خطيبي إمام مسجد (بل خشتي) الذي هو جامع العاصمة الرئيسي ووجدنا فيه خفّة ودماثة خلق ، كما أكرمنا بزيارته

صاحب الفضيلة الشيخ محمّد كل شيخ الحديث في دار العلوم ، ومعذرةً إذا كنا نسينا بعض الأسماء الكريمة ، فقد شغلتنا دوامة البرامج المتصّلة والتنقلات المستمرّة عن تسجيل الأسماء وكتابة المذكرات .

في جامع كابل :

وصلّينا الجمعة الوحيدة التي أدركناها في كابل في جامع (بل خشتي) وحضرها سعادة السفير السعوديّ ، وكان المسجد مكتظاً بالمصلين وخطبت أنا والأستاذ أحمد محمّد جمال قبل الخطبة والصلاة على عادة هذه البلاد ، وكان حديثي شرحاً لحديث « بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً ، كما بدأ فطوبى للغرباء » وبينما كنت أشرح هذا الحديث الشريف ، وأشير إشارات لطيفة إلى ما تقاسيه كثير من البلاد الإسلاميّة العريقة في الدّين والعلم من محن في العقيدة والحياة ، وما يغزوها من تيارات التقليد الأجنبي والتنكّر للإسلام ، صاح أحد الحاضرين في ناحية من نواحي المسجد صيحةً عظيمةً ، وأخذته غيبوبة وتواجد ، وقد دلّ ذلك على مدى تأسّف أهل الغيرة ممّا يقع في البلاد ، وتناول الأستاذ أحمد محمّد جمال حديث « أتدرون من المفلس الخ » وحديث « الدنيا سوق قامت ثمّ انقضت الخ » .

معالم البلد وحدائقه :

وكان من معالم البلد التي زرناها ضريح مؤسّس الحكومة المغوليّة الكبير في الهند الملك المسلم المؤيّد السلطان ظهير الدين

محمّد بابر ، وهو على ربوة في ضواحي كابل وفي مكان ظريف وحديقة غناء – وكان بابر مغرماً بكابل فآثره الله ليكون مدفناً له ، وزرنا منتزه (بغمان) الشهير وهو منتزه يحق أن يعدّ من المنتزهات العالميّة الكبيرة وعلى نسقه كما لاحظ العلاّمة السيّد سليمان الندوي أنشئت حديقة شالامار في كشمير وفي لاهور – وكل هذه ذات طبقات مختلفة ومنتزه كاريزمير ، وهي حديقة فسيحة غنّاء ذات مياه غزيرة واشجار ملتفّة وشوارع مرصوفة .

إلى عاصمة السلطان محمود الغزنوي :

وكانت زيارتنا لأفغانستان مقتصرة على كابل وضواحيها ومؤسّساتها وشخصيّاتها ومراكز ثقافتها ، لضيق الوقت وازدحام البرامج ، ولكني طلبت من معالي وزير المعارف وسعادة وكيله أن يسمحا لنا بزيارة غزنين عاصمة اسكندر الإسلام يمين السلطنة السلطان محمود الغازي مؤسّس الحكومة الإسلاميّة ورافع راية الإسلام في الهند ، المدينة التي صنع فيها تاريخ جديد للحضارة والعلوم والأدب والشعر ، وازدهرت في الشرق في أواخر القرن الرابع وفي أوائل القرن الخامس الهجريين ازدهار قرطبة وغرناطة في الغرب ، وإنني أعتبر زيارتي لأفغانستان ناقصةً غير كاملةً إذا لم أزر هذه المدينة التي تعيش في الأطلال والآثار وفي القصص والأخبار أكثر ممّا تعيش في البيوت والأسواق ومظاهر المدنيّة الحديثة والعمران ، وستبقى حاجة في نفسي إذا عدت إلى بلادي ولم أزر بلد محمود والحكيم والسنائي ، واجاب وزير المعارف

إلى طلبي مسرورا بهذا الاقتراح وأصدر نائب الوزير تعليمات إلى محافظ غزنين ورئيس مكتب المعارف هناك لاستقبال الوفد وتهيئة الخبراء والمشتغلين الذين يساعدوننا في مشاهدةِ الآثار وزيارة معالم المدينة .

دور« غزنين »الحضاريّ والعلميّ :

وسافرنا يوم السبت ٩/ يونيه صباحاً إلى غزنين وهي تبعد من كابل ١٣٨ (كم) (٨٢ ميلاً) واستقبلنا في البلد سعادة المحافظ وبعض المسئولين في وزارة المعارف وأرفقونا بعض الأدلاء والخبراء والمشتغلين في مصلحة الآثار القديمة والحفريات ، وتوجّهنا من ساعتنا إلى المدينة القديمة ، وهي تقع في شرق المدينة الموجودةِ على مسافة بضع (ك – م) ، وهي خرائب وأطلال وقد كانت هناك العاصمة الغزنويّة التي كانت تلي دار السلام بغداد مركز الخلافة وعاصمة العالم الإسلامي في ذلك الحين في استفحال العمران واتساع المكان وازدهار المدنية ، وقد جذبت إليها أهل الفضل والكمال ونوابغ العلم والأدب والصناع الحاذقّين والبنّائين البارعين والشعراء المغلقين والعلماء المتبحّرين والزهّاد النساكين والعارفين المحققين والندماء المحاضرين والقادة الفاتحين والأطباء النطاسين والفلاسفة والرياضيين كما يجذب المغناطيس القطع الحديديّة ، وسوق البضائع المستطرفة ، وتدفقت إليها وانصبّت فيها ثروة البلاد المفتوحة وغنائمها وطرفها المستملحة ونفائسها المدخرة كما تنصبّ الروافد والأنهار الصغيرة في البحر ، واجتمع من

ذلك شيء لا يخطر على البال ، وكان من المتصلين بالبلاط الغزنوي والمعدودين في حاشيته ، مثل بديع الزمان الهمذاني من الشعراء والأدباء ، وأبو الريحان البيروني من أئمّة العلوم الرياضيّة والفلكيّة و« فردوسي » الشاعر الفارسي الخالد وعسجدي وعنصري واسدي وغضارى وفرّخى ومنوجهري من شعراء الفارسيّة المعدودين ، وقد كانوا ندماءه ، ويبلغ عدد الشعراء الذين كان يحتضنهم السلطان ويربيهم إلى أربع مأة شاعر ،

خراب « غزنين » ونكبتها

وقد ظلّت « غزنين » قرناً كاملاً في اوج المدنيّة والزخرفة تخشي وترجى ، وتأمر وتنهي ، وترغب وترهب حتى أصبحت فريسة الهجمات من سلالة ناهضة طموح وهي سلالة الغوريّة – التي نبغ فيها أخيراً الملك المجاهد شهاب الدين الغوري – وزحف أحد أفراد هذه الأسرة وهو علاء الدين الحسين بن الحسن الذي كان يحمل ترةً على الملك الغزنوي ذاك اليوم بهرام شاه – الذي صلب أخاه سيف الدين – فدخلها ونهبها ثلاثة أيام ، فخرّب هذا البلد وأشعل فيها النيران وانتشر الحريق فيها حتى أتى على الأخضر واليابس وطمس معالم البلد وجعله خراباً يباباً – وكان ذلك سنة ٥٤٧ هـ[1] ، واشتهر في التاريخ بلقب « جهان سوز » أي محرق العالم ، وصدق الله العظيم (إنّ الأرض لله يورثها من يشاء) – وكنّا

---

١) راجع « البداية والنهاية » ج ١٢ .

نمشي في هذه الأطلال وننشد أبيات المعري :

خفف الوطأ ما أظنّ أديم الأرضِ
إلاّ من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ
ـدُ هوان الآباء والأجداد
سِر إن استطعت في الهواء رويداً
لا اختيالاً على رفات العباد

وقد استخرجت بالحفر آثار وبقايا من أبنية يرجع تاريخها إلى عهد مسعود بن محمّد ومن بعده ولا يزالون مشغولين باستخراج الآثار وأخبرني الخبَراء بأنّ هذا العمل قد يستغرق عشر سنين حتّى يتمكّنوا من إبراز كثير من معالم هذه المدينة المطمورة والمدنيّة البائدة.

عند الحكماء والحكّام ، والزهاد والملوك :

ووقفنا وقفة أمام قبر الحكيم السنائي[1] ودعونا له وقرأنا الفاتحة ، وتذكّرت أن العلاّمة محمّد إقبال لما زاره في نوفمبر سنة ١٩٣٣ م ووقف على قبره انفجر باكياً ، وقال قصيدته العصماء التي تعدّ من

---

١) كان اسمه مجدود وكنيته أبو المجد ، كان في عهد بهرام شاه الغزنوي ، واختلف في سنة وفاته ، فقيل سنة ٥٢٥ هـ وقيل ٥٤٦ هـ وقيل ٥٧٦ هـ ، وهوإمام من أئمة الشعر الصوفي ، وأول من قال الشعر في الأخلاق ، وتهذيب النفس والاعتزاز بالإنسانيّة ، والتركيز على شرف الإنسان ، وشعره يتسم بالحماس والسكر والتأثير.

غرر قصائده[1] ، وزرنا قبور الصالحين والأولياء كالسيّد بهلول دانا والسيّد علي لالا وخاجا بلغار وشمس العارفين .

وزرنا قبر الملك المجاهد الفاتح السلطان محمود الغزنوي الذي هانت عليه قيادة الجيوش والتوغّل في البلاد الأجنبيّة والمغامرة بعد المغامرة كما تهون على الشباب نزهة أو خرجة أو غدوة وروحة ، وقد مكن الإسلام في الهند وأرسى قواعد حكومته التي دامت في أشكال مختلفة وفي أسر تتداول الحكم ثمانية قرون تقريباً .

درس من الزيارة .

رجعت من هذه الزيارة حزيناً كئيباً مؤمناً بعظمة الله وبقائه وبضعف قوة الإنسان وقصر نظره وشدّة غروره بالمظاهر ، وزالت ثقتي بجميع العواصم الكبرى التي تتباهى الآن بكثرة العمران وقوّة البنيان وتوطد الأركان ، ويعتمد عليها سادتها وأبناؤها والمعجبون بها ، وزالت ثقتي بالحكومات القويّة الواسعة ذات الحول والطول ، وذات الصّولات والجولات وذات الجنود والبنود والقلائع الحصينة والبروج المشيدة والمباني الفخمة والمصانع الضخمة ، وقلت : ما بقاء هذه الحكومات وهذه العوالم والمدن ومراكز المدنية والثقافة بعد خراب بغداد وغزنين وقرطبة وسمرقند وبخارى ؛ وأجاد الشاعر العربي حين قال :

---

١) جاءت هذه القصيدة في مقدمة ديوانه « بال جبريل » وترجمتها في كتابنا « روائع إقبال » بعنوان « في غزنين » .

إذا ما الدهر جرّ على أناس كلاكله أناخ بآخرينا ،
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

وصدق الله العظيم « وتلك الأيام نداولها بين الناس »

رجعنا من هذه الجولة التاريخيّة ونحن متخمون بالمعلومات والمشاهدات والانطباعات ، وتغدينا في دار الضيافة الحكوميّة للبلد واسترحنا قليلا ، وصلّينا الظهر ، وأخذنا فكرة عن البلد الحالي ، فإذا هو قرية يتراوح عدد نفوسها بين عشرة آلاف وخمسة عشر ألفاً فقلنا : أين هذه القرية الصغيرة من تلك المدينة العظيمة ؛ وسبحان الله مقلّب الليل والنهار ومصرف الدهور والأعصار .

كلمة عن الملك محمد ظاهر شاه وسردار داؤد خان :

كان الأمل وطيداً في أن يحظى الوفد بمقابلة مع جلالة الملك محمد ظاهر شاه ، كما أن كثيراً من وفود رابطة العالم الإسلامي قابلت رؤساء الجمهوريات ، والملوك في المناطق التي زارتها ، ولكن يبدو أنّ الجهات المختصّة ، ورجال التشريفاتُ لم يريدوا ذلك ، وظللنا منتظرين للطلب إلى آخر يوم من أيام إقامتنا في كابل ، وسمعنا أنّ الملك علم بذلك في آخر لحظة ، فقال : لماذا لم تخبرونا به وفي الوقت متّسع ، والملك يعيش في عزلة عن الشعب في قصره ، ولا يخرج إلاّ في النادر ، وليست عنده « شعبيّة » كبعض ملوك المسلمين في بلاد أخرى ، وقال سعادة سفير المملكة العربيّة السعوديّة الشيخ محمّد أحمد الشبيلي : إنّه لم يره إلاّ مرّةً واحدة حين قدم إليه أوراق الأعتماد ، وسألت بعض الإخوان من المسئول

الأوّل عن اندفاع البلاد اندفاعاً متهوّراً نحو الحضارة الغربيّة ومظاهرها وقشورها ، وعن سفور المرأة الأفغانيّة والاتجاه نحو المعسكر الشرقي ؟ فقالوا : السردار محمّد داؤد خان ابن عمّ الملك وصهره ، ولمّا زرنا بغمان أشاروا إلى قصره ، وقالوا : كان هنالك مدرسة دينيّة فأمر بنقلها إلى محل آخر ، وآثر المكان بالإقامة ، ورأيت أصحاب الإتجاه الديني غير مرتاحين إلى اتجاهاته وتصرفاته[1] ، وعرفت أنّه زعيم حركة يختونستان ، وأكثر الناس تحمّساً لها[2] .

---

١) فوجئنا ونحن في مكة ، وقد مضى على مغادرتنا لكابل شهر وأسبوع بخبر حدوث الثورة والانقلاب في كابل ، وأن الجيش خلع محمد ظاهر شاه على أثر توجهه إلى إيطاليا للعلاج ، وسمعنا أن الذي قام بالثورة السردار محمد داؤد خان ، وهو الذي اختير أول رئيس للجمهوريّة ولله الأمر من قبل ومن بعد .

٢) جاء في مقال ظهر في العدد الأول – السنة الأولى – ذو القعدة ١٣٩٣ هـ ديسمبر ١٩٧٣م بتوقيع أبو الفدا (ولعله الأستاذ الكبير علال الفاسي) ما يلقي الضوء على الدوافع الحقيقية إلى هذه الثورة نقتطف منه ما يلي : [وقعت هذه الأحداث في الأفغان في الوقت الذي كانت روسيا وأمريكا تتحاورا في مسائل العالم الكبرى . والتي انتهت باوفاق المهمة بين برجنيف ونكسون ، وفي هذا الوقت بالذات كانت افغانستان قد اكتشفت نبعاً كبيراً من الغاز فاتفقت مع الاتحاد السوفياتي على أن ينقل منه عبر الأنابيب من الأراضي الأفغانيّة إلى الاتحاد السوفياتي ٥٧/٧ ألف مليون متر مكعب خلال ١٨ عاماً.... ولكن لعل سائلا يقول : وهل كان من الضروري أن تقوم الجمهوريّة ليتحقق هذا الغرض المقصود .

والحقيقة أن الملك محمد ظاهر شاه كان يتعاون مع مجموعة من المفكرين الاسلاميين في مقدمتهم منهاج الدين الذي اغتيل في ٨/أغسطس الماضي ، وكان هذا الرجل متزعماً لنخبة آمنت بوجود مكافحة الخلايا الشيوعيّة ، التي كان الحزب

مسؤليّة الأقطار الإسلاميّة :

وليست أفغانستان هي المسئولة وحدها عن الإرتماء في أحضان « الشيوعيّة » أو « العلمانيّة ، والاندفاع إلى الحضارة الغربيّة ومظاهرها والسير في ركاب الشعوب الغربيّة ، بل الأقطار الإسلاميّة مسئولة عن هذا الوضع أيضاً ، فكلّنا يعلم أن أفغانستان مواردها محدودة ، وهي ليست من البلاد الغنيّة ، ذات الموارد الواسعة والمعادن الطبيعيّة والمناجم و« الذهب الأسود » وليس عندها مرفأ ، فليست حرة في حركة التوريد والتصدير ، وكل اعتمادها في الاقتصاد على منتجات محدودة كالفواكه الناشفة ، وصوف الغنم وجلودها ، فكانت مضطرّةً بطبيعة الحال إلى أن تطلب العون من البلاد الراقية ، ومن الدول الكبرى التي عندها فائض من الأموال والإيراد لسدّ عجزها الماليّ وتحقيق مشاريعها العمرانيّة والتعليميّة والحضاريّة والدفاعيّة ، فلو وفّق الله الحكومات الإسلاميّة الكبيرة لتمد إليها يد المعونة وساعدتها في إكمال مخطّطاتها ، وإنجاز مشروعاتها ، لاستغنت عن الاستعانة بالدول الكبرى ، بل استطاعت أن تحافظ على شخصيّتها الإسلاميّة وتنميتها ، وأفادت العالم الاسلامي ، وكانت مصدراً من مصادر قوّته وكرامته ، وتفادى هذا الشعب

الشيوعي الأفغاني قد أسسها باسم « ديمقراطي خلق » وقد دعت هذه النخبة إلى اتخاذ الاسلام أساساً للتربية والتعليم . وفضحت المخططات الهندية المؤيدة من روسيا لفصل بلوخستان من كل من الأفغان والباكستان لتقوم بالدور الذي تحدثنا عنه . ثم كشفت محاولات لتهريب السلاح الروسي عبر الحدود المتأخمة إذا كان لا بد أن يذهب الملك وتذهب النخبة التي تريد المحافظة على كيان الأفغان والباكستان]

المسلم ، العريق في الدين ، والتاريخ الإسلاميّ ، القويّ في عاطفته الإسلاميّة وغيرته الدينيّة عن أن يكون فريسة للغارات الثقافيّة والعقائديّة .

ولكن مع الأسف الشديد كانت الحكومات الإسلاميّة ذات الثروات الواسعة – ولا تزال – في شغل شاغل عن مساعدة الأقطار النامية والنهوض بها ، وبادرت البلاد السوفيتيّة ، والصين الشعبيّة[1] إلى مساعدة أفغانستان ، وقدّمت المساعدات السخيّة لإنجاز مشاريعها ، ولترقيّة البلاد وترفيهها ، فكان من الطبيعي أن يكون لكلّ هذا مردود فكريّ وثقافي ، وسياسيّ ، وأن تستفيد البلاد المساعدة في مجالات الحياة كلّها ،

وعاشت أفغانستان في عزلة علميّة وثقافيّة عن العالم الإسلاميّ وعاشت بعيدة – لأسباب سياسيّة معلومة – عن جارتها « باكستان » وعن مصدر ثقافتها الكبيرة « الهند » لوقوع باكستان في طريقها ، فظلت مقتصرةً على التراث العلميّ القديم غير ملمّة بنشاط علّميّ ودينيّ ، ولولا مصر ولولا الأزهر الذي لم يزل يؤمّه الشباب الأفغانيّ ، وينهلون من مناهله ويطلعون في خلال إقامتهم بمصر على الحديث الأحدث من الأدب الإسلاميّ والفكر الإسلاميّ ، لانقطعت

---

١) سمعت من بعض أهل الخبرة أن أفغانستان طلبت المساعده من أمريكا في اول امرها ولكنها لم تجب لتخلف البلاد تخلفاً زائداً وانتهزت روسيا الفرصة فساعدتها ، وهكذا اضطرت امريكا كثيراً من الاقطار الشرقيّة إلى اللجوء إلى المعسكر الشرقي .

صلة أفغانستان عن الثقافة الإسلاميّة وعن الحركات الإسلاميّة كلّياً ، وكانت تعيش في برج عاجيّ ووراء الستار الحديدي ، لذلك نرى أنّ خيرة الشباب المطلعين الناضجين اليوم ، هم الذين تخرّجوا في الأزهر ومعاهده ، وأقاموا بمصر مدةً طويلةً .

حديث في حفلة تكريم عقدتها السفارة السعوديّة :

وعقد سعادة سفير المملكة العربيّة السعوديّة الشيخ محمّد الحمد الشبيلي حفلة عشاء فاخرة في أوتيل كابل الذي كنا نازلين فيه تكريماً للوفد وللاجتماع بصفوة أهل البلد وأعيانه ورجالاته ، وذلك ليلة الأحد ٩/ يونيه ١٩٧٣ م ، حضرها أكثر سفراء الدول العربيّة الممثلة في كابل ، ولم يتخلّف منهم إلاّ النادر ، وعدد من وزراء الحكومة الأفغانيّة وحاكم كابل ، وبعض أعضاء الأسرة الحاكمة وكثير من أساتذة الجامعة ورجال الثقافة في كابل والعلماء والشيوخ وعدد من الأساتذة المسيحيين العرب المشتغلين في السفارات وكانت حفلة ضمّت أكبر عدد من الأعيان والوجهاء ورجال الحكومة والسلك السياسيّ والأوساط العلميّة والدينيّة وطلب سعادة السفير منّي أن أرحّب بالضيوف الكرام وأتحدّث إليهم بهذه المناسبة الكريمة بما يليق بالمقام ويعبّر عن مشاعر الوفد ورسالته وتكلّمت بما فتح الله عليّ ولم أقتصر على الشكر والترحيب التقليدي بل انتهزت هذه الفرصة التي لا تتسنّى لكلّ داعية وحامل رسالة في كل مكانٍ وزمان ، وكان حديثاً يجمع بين إبداء العواطف والتعبير عن الخواطر وبين الشكر والترحيب وبين ما هو أهمّ منهما وأعود على الجميع بالخير والصّلاح ، وقد أمليت هذه الكلمة اعتماداً على

الذاكرة وسيطلع القارئ على نصّها في هذا الكتاب . ووقف بعدي سعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال فألقى كلمة رقيقة بليغة شكر فيها الشعب الأفغاني والحكومة الأفغانيّة على حسن تلقيهما للوفد وحسن الضيافة وحسن الاستماع ، وشكر ضيوف الليلة على تلبيتهم للدعوة وألمّ بمقاصد رابطة العالم الإسلاميّ ورسالتها وما قامت عليه من مبادئ وأهداف وما يبذله جلالة الملك فيصل من مساع مشكورة في مجال التضامن الإسلاميّ ، وذكر مسئولية العلماء في تبليغ الرسالة والشهادة بالحقّ .

وانصرف الحاضرون إلى مأدبة العشاء – ثمّ انصرفوا إلى بيوتهم شاكرين مسرورين ، وكان اللقاء الأخير في كابل ، وكان السفر صباح يوم الإثنين ١١/ يونيه إلى تهران .

وإلى القارئ بعض المحاضرات التي ألقيتها في مناسبات مختلفة ، نوّهْت بها في هذه الكلمة ، وإلى اللقاء معهم في تهران .

مصدر الإنقلاب والقوة في الشعب الأفغاني
حديثي في جامعة كابل[1] :

بعد الحمد والصلاة على رسول الله ﷺ .

صاحب السعادة سفير المملكة العربيّة السعوديّة .. مدير الجامعة ، عِمداء الكليات ، أساتذة الجامعة ، إخواني الطلبة !

---

١) ألقيت هذه المحاضرة في مدرّج جامعة كابل الكبير ليلة يوم الأربعاء في ٦/يونيه ١٩٧٣ م . ونقلت من الشريط .

أشعر بسعادة وفرحة تغمر جوانحي إذ أقوم أمام هذه الوجوه المشرقة النيرة وأمام هذه النفوس النبيلة الأصيلة ، ولا أستطيع أن أفسّر هذه السعادة التي تخامرني في هذا المقام الذي أقومه إلاّ بأنّي أزور هذه البلاد التي سمعت عنها كثيراً وقرأت عنها كثيراً ، وأستطيع أن أقول كما قلّت في بعض المناسبات : إنّي عشت في تاريخها وعشت في أخبار فتوحها وغزواتها وعشت في تراجم رجالها العباقرة وقادتها الفاتحين ورجالها العصاميين حملة العلم والنّور ورسالة الإسلام إلى ما وراء هذه الجبال إلى الهند وما يليها من البلاد ، إذاً فهذه السعادة التي أشعر بها غير دخيلة ولا غريبة ، وفوق ذلك هي فرحة المسلم الذي يلتقي بإخوانه المسلمين الذين يسكنون وراء الجبال . إنّني سعيد بهذه الزيارة الكريمة .. سعيد بهذا اللّقاء الكريم وبهذا المجلس الذي أكرمتموني بالوقوف والتحدّث فيه .

إخواني – إنكم تعرفون جميعاً ، وخصوصاً المهتمّين بدراسة الآداب والذين ينصرفون إلى دراسة التاريخ ، أنّ الشعب الأفغاني من الشعوب العريقة في القدم ، من الشعوب التي عاشت مئات وآلاف السنين في حريّة وكرامة .. وقد أكرمهم الله بسجايا ومواهب وطاقات فريدة منذ عهود بعيدة .

إنّي أتساءل – وإنّي أفتخر بأنّي عكفت على دراسة التاريخ وأنّه هوايتي وأنّ التاريخ هو المادّة المفضّلة المحبّبة عندي – لماذا بقي هذا الشعب قروناً طويلة شعباً منعزلاً عن العالم ؟ شعباً لا شأن له بما يجري في العالم من خير وشرّ وحسن وقبح ، ومن فتح وغزو ومن استبداد

وجور.. لماذا بقي هذا الشعب الباسل الجسور ، الصالح للقيادة ، المليئ بالحيويّة ، الغني في الذكاء ، الفائق في قوة السواعد وفي قوّة العاطفة .. لماذا بقي هذا الشعب الأصيل المجيد هذه القرون الطويلة المتطاولة منطوياً على نفسه منعزلاً في ركن من أركان العالم .. هل كان ذلك لأنّه كان بينه وبين العالم الخارجيّ سدّ منيع من الجبال ؟ لا يا إخواني .. لقد سجّل التاريخ أنّ هذه الجبال الشاهقة المكسوة بالجليد لم تكن عائقاً قطّ في سبيل الغزاة والفاتحين إنّ هذه الجبال لم تستطع أن تقف في طريقهم ، وتعرفون جميعاً أن هذه المسالك الصعبة المنعطفة التي يتيه فيها الإنسان ، والتي تفصل أفغانستان عن الباكستان والهند تهاوت تحت أقدام المد الإسلاميّ لما قيّض الله لهذه الأمّة قادة فاتحين كالسلطان محمود الغزنوي وشهاب الدين محمّد الغوري وأحمّد شاه الأبدالي رحمهم الله جميعاً ، هل كان هذا الشعب مصفّداً بالأصفاد مكتوف الأيدي ؟ لا ! لا ! إنّ هذا الشعب قد جرّبت شجاعته مراراً وظهرت كفايته مراراً ، ولكن كان هذا الشعب مقتنعاً بما أوتي من مراعي خصبة ومن ماشية وزروع ، وغير ذلك من وسائل المعيشة المحدودة .. وهذا سؤال يستحقّ منكم الإجابة .. !

لماذا نقرأ في التاريخ أنّه لما دخل الإسلام في هذه المنطقة انتبه هذا الشعب من سباته العميق الذي أمتدّ على آلاف من السنين وقفز قفزةً لا نظير لها في قفزات الأمم ، فإذا هذا الشعب من أقوى الشعوب ومن أشجعها ومن أكثر الشعوب علوّ همّة وبعد نظر وقوّة إرادة ، لما قفز هذا الشعب إلى الوجود كأنّه كان كنزاً مخفياً أو كأنّه كان

سرّاً مكتوماً فاكتشف ، هل كان هناك تيار كهربائي سرى في جسم هذا الشعب أو مسّته عصاً سحريّة حوّلت هذا الشعب من متعب قانع وادع هادئ قاعد منعزل إلى شعب جسور فاتح منطلق هل كان هناك صخرة من الصخرات كانت تمنع تدفّق هذا النهر الفيّاض ؟

إنّ المفتاح الرئيسي لفتح هذا القفل هو أنّ الله سبحانه وتعالى قد أكرم هذا الشعب الأفغاني الكريم بثلاثة عناصر جاءت عن طريق الإسلام :

١ – الرسالة السامية وأهدافها .

٢ – النظرة الواسعة إلى الإنسانيّة والعالم الخارجيّ وحقائق الأشياء .

٣ – الثقة القويّة بنصر الله وتأييده وبنتائج الأعمال والمساعي .

هذه هي العناصر الثلاثة التي تكون للشعب شخصيّة جديدة وتصنع منها شعباً جديداً كأنّه ولد ولادةً جديدةً ، فيصنع تاريخاً جديداً ويبهر العالم بطاقاته المخبوءة وآفاقه المجهولة .

كان هذا الشعب بلا رسالة ، وكان في حدود هذه البلاد يرعى الماشية ، ويغير بعضه على البعض ، كما يقول الشاعر العربي :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلاّ أخانا

وطبيعة الغزو تأتي من نتيجة الفراغ الخلقي والروحي ، فكانت قبائل العرب في الجاهليّة تتشاغل بحروب داخليّة ، قبيلة تهاجم

قبيلة ، وفصيلة تزحف على فصيلة ، وعشيرة تعادي عشيرة ، كذلك الشعب الأفغاني لم يجد ما يشغل به طبيعته الحربيّة وما يروي به غلّته ، وما يقنع به طموحه الكبير غير الحروب الداخليّة .. حروب المراعي ، حروب على الماشية – حروب على النخوة القبليّة أو الفرديّة – حروب على إهانات متخيّلة مزعومة وصدق الشاعر العربي :

النـــار تـأكـل نفسها إن لم تجـد مـا تـأكله

فلمّا جاء الإسلام أصبحت للعرب رسالة كما أصبحت للشعب الأفغاني رسالة .. كانوا يعيشون لأنفسهم فإذا بهم يسمعون قول الله سبحانه وتعالى :

« كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

فعرفت أنّها ليست ممّا تلفظه الأرض ، ليست من الحشائش التي تنبت في الحقول إنّما هي مقصودة مطلوبة ، أمّة من وّرائها أهداف وأغراض ، من رسالات وغايات .. آمنو أنّهم أمّة أخرجت للناس لم تخرج ولم تنبت بنفسها لإشباع غريزتها الحربيّة من نهب واغارة وغزو وسفك دماء ، فإذا هي تعتقد أنّها أخرجت لتكافح حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله .. وليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام .

يا أبناء الجامعة ، ويا شباب الأفغان المثقّف .. !

كان هذا الشعب بلا رسالة فجاء الإسلام فكان شعباً له رسالة ساميّة في الحياة ، احتضن هذا الشعب هذه الرسالة الساميّة وتبنّاها وهي التي نفخت في هذا الشعب روحاً جديدة – كان يعيش في جاهليّة جهلاء وفي ليلة ظلماء يتسكّع في الخرافات والجهالات والسفالات ، وفي ظلم الإنسان للإنسان ، وفي ازدراء القوي الضعيف ، وفي هضم الحقوق وإهدار الكرامات ، وفي إشباع الغرائز ، وقد ملأت جوانحهم روح جديدة قد استولت على مشاعرهم وأعصابهم وتفكيرهم ، فإذا بها أمّة غير أمّة ، بل إذا بالإنسان غير الإنسان ، كانت السواعد هي السواعد والعقول هي العقول والأرض هي الأرض والمناخ هو المناخ ، ولكن هذه الرسالة الجديدة قد جعلت منهم أمةً جديدةً .

والعنصر الثاني أن الأفغان كانوا يعيشون حياة ضيّقة محدودةً كانوا ينظرون إلى الدنيا نظرة محدودة ، وكانت نظرتهم إلى الإنسان والحياة ضيّقة محدودة ، ما هو الإنسان ؟ الإنسان هو الأفغاني ، ما هو الإنسان ؟ الإنسان هو الذي يسكن في هذه البلاد ، والذي يتكلّم بلغة هذه البلاد ، والّذي يتزيّأ بزيّ هذه البلاد ، والذي يتغنّى بحبّ هذه البلاد ، هذه النظرة الضيّقة هي التي حبستهم في هذه المنطقة الضيّقة .

ما هي الحياة ؟

هي أكل وشرب ، ومتعة وتسلية ، وقوّة وسيادة ، وغلبة ورئاسة إنّهم كانوا يعيشون كما يعيش السمك في الأحواض ، وكما تعيش

الضّفادع في البرك – وهكذا كان العرب قبل الإسلام والأتراك قبل الإسلام والفرس قبل الإسلام .. أخرجهم الإسلام جميعاً من هذا السجن المظلم الضيّق كما قال رسول الإسلام : « لنخرج من شاء الله من ضيق الدّنيا إلى سعة الدنيا والآخرة » كان آباؤكم ينظرون إلى الإنسان نظرة ضيّقةً ليس فيها تسامح وليس فيها بعد نظر وليس فيها عمق ومنحهم الإسلام هذه النظرة الواسعة فصاروا ينظرون إلى الإنسانيّة كأسرة واحدة وإلى العالم كبيت واحد .

وكانت هذه هي عقيدتهم نحو الإنسانيّة كما قال رسول الله ﷺ : « كلكم من آدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لعجميّ على عربيّ إلّا بالتقوى » فالنظرة التي كان ينظر بها القادة نظرة لا تؤمن بالحدود الجغرافيّة ولا تؤمن بالتقسيمات المصطنعة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، المسلمون خرجوا من هذه الحدود إلى آفاق أوسع ، ولولا هذه النظرة الواسعة لبقوا كما بقي آباؤهم قروناً طويلةً .

العنصر الثالث : وهي الثقة المتينة الوطيدة ، فلمّا آمنوا بالله وحده وآمنوا برسوله واليوم الآخر ، وآمنوا بقضاء الله وقدره ، وعرفوا أنّ الموت له وقت مقدّر لا يتقدّم ولا يتأخر ، وقد سمعوا قول الله وآمنوا به : « أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروجٍ مشيّدة » .

وسمعوا قوله تعالى : « إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون » إنّ هذا الإيمان ملأهم ثقةً واعتزازاً وعرفوا أنّ

الإنسان لا يموت إلاّ في اليوم الذي قدّره الله ، فعرفوا أن لكل شيء أجلاً مسمّى ، وأنّ كل شيء بيد الله تعالى وأمره .

ثمّ اكتسبوا ثقة أخرى من الرسالة السمّاويّة وأنّهم جند الله ، وأنهم أنصار الله ، واستمعوا إلى قوله تعالى : « وإنّ جندنا لهم الغالبون ، وإن جندنا لهم المنصورون ، ألا إنّ حزب الله هم المفلحون . وإنّا لننصر رسلنا والّذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، وأنّ العزة للهِ ولرسوله وللمؤمنين . ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم مؤمنين » إلى غير ذلك من الآيات ، وهذه الثقة كانت مضافة إلى الثقة الأولى .

وبهذه المناسبة أذكّركم أيّها الإخوان أنّه لمّا أتى سيدنا سعد بن أبي وقّاص أمام دجلة وهي تموج وتزبد هناك وقف سعد بن أبي وقّاص هنيهةً واستعرض الماء المائج وما حوله ، ونظر إلى سلمان الفارسيّ وقال له : هل نخوض هذا البحر المائج أو نرجع فنبني القناطر والجسور ، فقال سلمان الفارسيّ كلمته الخالدة التي حفظها التاريخ ، قال : إن هذا الدين لجديد ، إنّي مقتنع بأنّ الله تعالى سيظهر هذا الدين – وإنّه لم يصل القمّة التي قدرها الله له أن يصلها – فكيف أظنّ أنّ تغرق هذه السفينة التي فيها حَمَلة هذه الرسالة – كلمة عامرة بالمعاني عميقة كل العمق ، إذا كان هذا الدين جديداً فلا بدّ من دوره المقدّر له في بناء العالم وفي قيادة الدنيا والعالم وفي هداية البشريّة وإنقاذها .. وأمر سعد بن أبي وقّاص جيشه أن يعبر النهر ، وكما يقول الطبري إنّه لما رأوا قالوا : جاء الجن والعفاريت ،

وهذه الثقة غمرت قلوبهم ونفثت فيهم حياة جديدة .

وارجعوا إلى تاريخكم كيف كان محمود الغزنوي يفتح البلاد الواسعة . وقد أثبت التاريخ أنّه زحف على الهند سبع عشرة مرّةً وتوغّل فيها فيصل إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الجنوب ، ولا مدد ولا ميرة ، ومركزه بعيد دونه الجبال الشاهقات والمسالك الوعرة والشعاب الضيّقة ، ولا ينظر إلى هذه الغزوات إلاّ كما ينظر الشابّ الرياضي القويّ إلى الملعب والمباراة وإلى ميدان الرياضة ، إنّه كان معتمداً على الله ثمّ يعرف أنّ الجهاد عبادة والموت في سبيله شهادة ، والشهداء لا يموتون بل أحياء عند ربّهم يرزقون ، إنّه كان مؤمناً كل الإيمان بأنّه حامل رسالة الله وبأنّه سينشر دين الله والاسلام في الهند .

هذه العناصر المكونة لشخصيّة الشعوب ليست لشخصيّة الأفراد ، وأن شخصيّة الأفراد لا شكّ قضيّة مهمّة ، وقد تناولها بحثا علماء علم النفس ورجال التربية ولكنّي أتحدّث الآن عن شخصيّة الشعوب ، فهذه العناصر منحت الشعب الأفغاني شخصيّة جبّارةً شخصيّة لا تقاوم ، شخصيّة لا تغالب ولا تنهزم ، وإنّ هذا كان مصير الأمم لما فقدت هذه العناصر المكونة للشخصيّة ولمّا أفلست في هذه العناصر ، وإنيّ أخشى على الشعب الأفغانيّ العزيز أن يتجرّد في هذه الفترة الدقيقة من تاريخ الإنسانيّة ومن تاريخ هذه الأمّة من هذه العناصر القياديّة القويّة وأن يعود إلى سيرته الأولى حين لم يدخل الإسلام في هذه الأرض ولم يك مهتماً بالدعوة الإسلاميّة .

أقول لكم أيّها الشباب ! اغرسوا هذه العناصر في قلوب شعبكم واسقوها ، وغذوها ، واحرصوا عليها ، ولا تضيعوها ، فالشعب لم يزل من قديم الزمان هو الشعب ، والجبال هي الجبال ، والسّماء هي السماء ، ونهر كابل هو نهر كابل يجري من آلاف السنين – وهذه الخيرات التي أكرم الله بها هذه الأرض – هذه الثمرات الطيّبة وهذه الفواكه اللّذيذة وهذا الماء العذب السائغ وكل شيء أكرم الله به هذه البلاد من آلاف السنين ولا يزال ، ولكن القضيّة قضيّة العناصر وقضيّة الرسالة ، وقضيّة الثقة ، وقضيّة الأهداف والغايات ، حتى تكون للحياة غاية ، وللمواهب مجال للظهور ، وللقلوب مثل كامل في الحسن والإحسان تهيم بحبه ، وقد أدرك الدكتور محمد إقبال هذه الحقيقة ، وشكى إلى الله الجيل الإسلامي المعاصر في خموده وجموده ونكبته وتعاسته ، فكان الجواب « إنّه يعيش بلا غاية وبلا رسالة ومن غير مثل كامل يهيم بحبّه ويتغنّى بجماله وكماله ويترسّم لخطاه .

شب بيش خدا بكر يستم زار مسلمانان جرا زارند وخوارند ،
ندا آمد نمي داني كه اين قوم دها دارند ومحبوب نه دارند

يا شباب الأفغان ! إنّ الله سبحانه وتعالى أكرمكم ولم ينقص عليكم شيئا ، وإنّ الله تعالى قال : « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » إنّ الله أكرم من أن يسلب نعمة أنعمها على قوم إلا أن يكون هذا الشعب أو هؤلاء الناس كفروا بهذه النعمة « ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار »

هذا واقع تاريخيّ لا يشك فيه إنسان ، إن القضيّة قضيّة المعرفة – معرفة الشخصيّة – قضيّة معرفة القيمة – اعرفوا قيمتكم يا شباب .

يقول شاعر الإسلام إقبال : انزل في أعماق قلبك ، وادرك سرّ الحياة ، إن لم تكن صديقي ، فلا بأس ، ولكن كن صديق نفسك ، وإن لم تعرفني فلا بأس ولكن اعرف نفسك .

الأمم تعيش وتسود بالرسالة والشخصيّة ..[1]

حديث في حفلة السفارة السعوديّة

الحمد لله والصّلاة والسلام على رسول الله .

حضرات السادة الأجلاّء !

إنني أنتهز هذه الفرصة الكريمة فأحيي هذه المجموعة الطيبة النقيّة المصطفاة باسم رابطة العالم الإسلامي التي أتشرّف بتمثيلها وباسم الوفد الذي يزور هذه البلاد العزيزة الحبيبة وأشكر أهل هذه البلاد حكومةً وشعباً على الحفاوة النادرة التي لقيناها منهم ، وعلى كرم الوفادة ودماثة الخلق التي قابلونا بها ولا غرابة في ذلك فالكرم أصيل وقديم في هذا الشعب وقديماً قالت العرب : « الشيء من معدنه لا يستغرب » وقد تجلّت هذه الروح الطيّبة – بمعناها الواسع – في بطولات هذا الشعب ومغامراته وإداراته وحكوماته ، وهي التي

---

١) ألقيت هذه المحاضرة في ليلة يوم السبت الموافق ٩/يونيه ١٩٧٣ م في حفلة التكريم عقدتها سفارة المملكة السعوديّة بفندق « أوتيل كابل » وقد مرّت الإشارة إليها .

دفعته قديماً إلى اجتياز حدود بلاده واختراق هذه الجبال الشاهقة يحمل مشعل الإسلام والثقافة والحضارة وحسن الإدارة إلى الهند ، وقد عشت في تاريخه وأمجاده وأخباره زمناً طويلاً وكان من المعقول والمتوقّع جدّاً أن أزور هذه البلاد قبل هذه الزيارة بمدّة طويلة بحكم وجودي في الهند البلد المجاور ، ولكن أراد الله أن تتأخرّ هذه الزيارة إلى هذا الوقت ولعلّ لله في ذلك حكمة خفيّة .

أيّها السادة الأجلاّء !

لقد كان العرب في العهد القديم يستبعدون هذه البلاد ويضربون بها المثل في البعد وصعوبة الوصول ، وكانوا يسمّون هذه المنطقة الشرقيّة كلّها « خراسان »

فقال شاعرهم :

قالوا خراسان أقصى مـا يراد بنـا
ثمّ القفول ، فقـد جئنـا خراسانـاً .

وها قد وصلنا خراسان ، ودخلنا في أفغانستان ، وزرنا هذه الأرض الطيّبة الجميلة التي أكرمها الله بجمال الطبيعة وجودة المناخ وكثرة الخيرات ، وقد قال الشاعر العربي :

ولمّا نزلنا منزلاً طلّه الندى أنيقاً وبستاناً من النور حاليا
أجد لنا طيب المكان وحسنه مني ، فتمنينا فكنت الأمانيا

وقد كان هذا شأننا عند ورودنا هذه البلاد والشيء بالشيء يذكر ، فقد ذكرتنا هذه البلاد وما حباها الله من الحسن ،

والإحسان شخصيّة كان لها الفضل في هذه الحياة الجديدة ، شخصيّة نقلتنا من حياة إلى حياة ومن عالم إلى عالم ومن طور إلى طور ألا وهي شخصيّة سيّدنا محمّد رسول الله ﷺ ، فقد كنّا جسداً ولا روح ، واسماً ولا مسمّى وصورة ولا حقيقة ، شعوباً لا غاية لحياتها ولا رسالة ، فأفاضت وأضفت هذه الشخصيّة الحبيبة على هذه الأمم والشعوب شخصيّة جديدة ومنحتها رسالةً جديدةً ، أمّا الشخصيّة فهي الشخصيّة الإسلاميّة القويّة التي تجمع أفضل صفات الإنسان وعناصر القوّة والفتوّة والخلق ، وأمّا الرسالة فهي الرسالة التي عبّر عنها رسول العرب المسلمين في مجلس يزدجرد امبراطور إيران خير تعبير ، فقال لما سأله الإمبراطور ما الّذي جاء بكم ؟ : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » .

يا أصحاب السعادة السفراء ويا أصحاب المعالي الوزراء !

إنّي أنظر إليكم كممثلين حقيقيين للشعوب والأقطار الّتي تمثلونها سياسياً وإدارياً وأتمنّى أن تكونوا أكثر من ذلك وأعظم وأعتقد أن مهمّتكم يجب أن لا تقتصر على الأعمال الرتيبة و« الروتينيات »

إنّ الشرق يطلب منكم مجالاً أوسع من هذا المجال وعملاً أضخم من هذا العمل ، إنّ الشرق اليوم يعيش على هامش الحياة وفي مؤخّر الركب ، وإنّ الغرب يأمره فيطيع ويقول فيسمع ويقوده

فينقاد ويعلّمه فيتعلّم لأنّه يعيش على فتات مائدته إنّه لا شخصيّة له ولا رسالة ، والأمم والحضارات لا تعيش إلا بالشخصيّات والرسالات ، فيجب أن تبحثوا لهذا الشرق عن شخصيّة ورسالة ، شخصيّة فيها القوّة والثقة ، شخصيّة فيها الأصالة والاستقلال ، شخصيّة فيها الجدّة والابتكار ، شخصيّة فيها الاعتداد والاعتزاز ورسالة فيها الاخلاص والنزاهة ، والعطف والرحمة ، والعدل والمساواة ، والإخاء والسلام ، وإنكم لا تحتاجون إلى أن تعبدوا النعجة وتشقوا الشعرة ، فإنّ هذه الرسالة بمتناول يدكم وبمقربة منكم ، وهي رسالة الإسلام التي أكرمكم الله بها وحمّلكم إيّاها ولسنا في حاجة إلى دين جديد إنّما نحن في حاجة إلى إيمان جديد بهذا الدين ، ولسنا في حاجة إلى رسالة جديدة إنّما نحن في حاجة إلى حماس جديد لهذه الرسالة ، إننا في حاجة إلى تقوية هذه الشخصيّة الإسلاميّة وتنميتها حتى يعيد التاريخ نفسه ، ويرتد الدّهر على أعقابه .

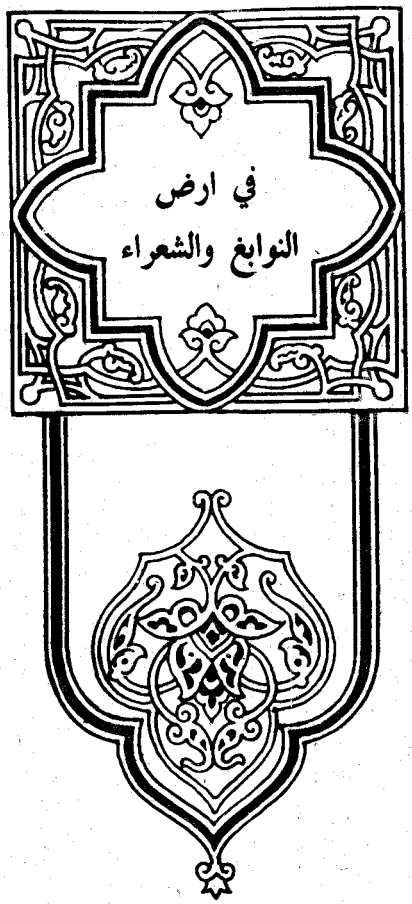
في ارض
النوابغ والشعراء

داعي الشوق لزيارة إيران :

كانت زيارة إيران – يونان الشرق ومولد الجمّ الغفير من نوابغ الإسلام وعباقرته وأئمّة الحديث والفقه وعلوم الحكمة والنحو والبلاغة والآداب العربيّة – أمنيّة قديمةً كانت تراود النفس وتعاودها بين حين وآخر ، فقد عشنا في أطيافها وربيعها وحدائقها التي تغنى بها شعراؤها وفي أدبها الخصب وشعرها الرقيق ، وطبيعتها المرحة القلقة التي تجلّتْ في مذاهبها المتطرفة ، وأفكارها الثائرة وفي تصوّفها الورع الحنون الذي كانت لـ « إيران » فيه الزعامة في العصر القديم ، ولكن لم تتحقّق هذه الأمنيّة إلاّ في العهد الأخير ، حين قطع ركب الحياة أكثر مراحل السفر ، وغلب البحث عن الحقيقة على التفنن في الخيال ، ولعل ذلك كان خيراً .

أصحاب الفضل في تيسير الرحلة :

والفضل في هذه الزيارة التاريخيّة يرجع إلى رابطة العالم الإسلاميّ كما يرجع في زيارة أفغانستان ، فهي صاحبة الفكرة في هذه الرحلة ، وكان لصيتها البعيد في العالم الإسلامي ومكانتها المرموقة في نفوس المسلمين لانتسابها إلى مهبط الوحي ومهد الإسلام ومولد الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، والآمال الكبار التي يعلّقها المسلمون

بها فضل كبير في نجاح هذه الرحلة وما لقيه أعضاء الوفد من حفاوة بالغة من حكومة إيران المؤقّرة والشعب الإيراني المسلم والمنظّمات الدينيّة والعلميّة . والشخصيّات البارزة في هذا البلد الكبير .

وإن كان لرابطة العالم الإسلامي فضل في مشروع هذه الرحلة وتهيئة أسبابها – ولا شك في ذلك – فقد كان لرئاسة مجلس الأوقاف التي يشرف عليها معالي الدكتور « منوجهر آزمون » نائب رئيس وزراء إيران ورئيس هيئة الأوقاف الفضل الكبير في تيسير هذه الرحلة ووضع مخطّطها وبرامجها ، فإنّه لما علم قصد الوفد لإيران أبى إلاّ أن ينزل الوفد في ضيافة الحكومة ، وأن تكون رئاسة الأوقاف هي المضيفة الكريمة بالنيابة عنها ، وعنى عناية فائقة بتيسير مهمّة الوفد[1] وتمكّنه من أداء رسالته ، وأن يحمل عن البلد والشعب فكرة واضحة كاملة وصورة مشرقة زاهية ، ويرى الوفد لزاماً عليه ، ومن قبيل الاعتراف بالواقع أن يشكر معاليه على هذه العاطفة الإسلاميّة النبيلة والأريحيّة الإيرانيّة المعروفة .

مساحة الرحلة الزمانيّة والمكانيّة :

كانت المدّة التي كان الوفد يقضيها في إيران ويزور في خلالها

---

١) وكان من هذا التيسير تعيين مرافق وترجمان فاضل للوفد كالدكتور أبي القاسم مشيري ، مدير الأوقاف في تهران ، وهو رجل مثقف نشيط يحسن اللغة الانجليزية وله مشاركة في اللغة العربيّة .

معالمها ومظاهر نشاطها الإسلاميّ وحركتها العلميّة ثمانيّة أيّام ، ولكن كاتب هذه السطور الذي رضع بلبان حبّ الأدب الفارسيّ ، شأن أبناءِ الأسر المسلمة قبل نصف قرن ، وعرف « سعدى » و« حافظ » في مقدّمة من تعرف بهم من شعراء العالم وأدبائه ، أبدى رغبته في زيارة « شيراز » مدينة الشعر والسحر ، فأجاب معالي الدكتور إلى ذلك بكلّ سرور ، مضيفاً إليها مدينة « أصفهان » عاصمة الصفويين ومركز الفن الإيراني ، وهكذا صارت هذه المدة عشرة أيام ، بدأت من يوم الإثنين ٩/ جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ الموافق ١١/ من يونيه ١٩٧٣ م[1] وانتهت بيوم الأربعاء ١٨/ من جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ الموافق ٢٠/ من يونيه ١٩٧٣ م ، وكان السفر صباح يوم الخميس ١٩/ من جمادى الأولى ١٣٩٣ هـ – ٢١/ من يونيه ١٩٧٣ م من تهران إلى بيروت في طريقنا إلى جدّة ، فقد قررنا أن تكون مكّة نهاية المطاف في هذه الرحلة .

كانت هذه الأيام العشرة التاريخيّة التي قضاها الوفد في إيران حافلةً بالزيارات واللقاءات ، والرحلات والتنقلات ، والأحاديث والمحاضرات ، وكان النزول في « بارك اوتيل » (Park Hotel) أحد فنادق العاصمة الكبرى .

لقاء مع الوزراء والعلماء :

وقد زار الوفد خلال هذه الأيام عدداً من الوزراء الكبار ،

---

١) وكان من ٢١/ من خرداد ١٣٥٢ بالتقويم الإيراني المنتشر في البلاد .

نخصّ بالذكر منهم دولة عبّاس هويدا[1] رئيس الوزراء ، ومعالي الأستاذ كاظم زاده وزير التعليم العالي ، فضلاً عن معالي الدكتور آزمون الذي قابله الوفد عدّة مرات مدة إقامته بتهران ، وكانت مقابلته يوم الثلاثاء صباحاً أوّل مقابلة تشرّف بها الوفد ، وقد جلس معه طويلاً في جوّ من الحريّة والبساطة وعدم التكلّف ، وتشعب الحديث وتناول جوانب اسلاميّة وعلميّة وتاريخيّةً ، وكانت مقابلته كذلك هي الأخيرة ، فقد أقام الدكتور حفلة عشاء فاخرة تكريماً لأعضاء الوفد في فندق « هلتون » (Hilton) ليلة الخميس ١٨/ من جمادى الأولى حضرها عدد من الوزراء وكثير من العلماء وأعيان البلد .

وكان من بين العلماء الذين زارهم الوفد وجلس إليهم وتداول معهم الحديث في موضوعات دينيّة وعلميّة ، أصحاب السماحة والفضيلة « آية الله العظمى[2] » السيد محمّد كاظم شريعة مداري ، و« آية الله العظمى » الشيخ حبيب الله ميلاني ، و« آية الله العظمى » المرزا محمّد خليل كمره آي ، و« آية الله » السيد حسن إمامي .

---

١) أقام دولته في شبابه في بيروت مدة طويلة ، وتخرّج من الجامعة الأمريكيّة البيروتيّة لذلك يتكلم العربيّة بطلاقة وكأبنائها ، ويرأس الوزارة في إيران منذ عشر سنين أو أكثر .

٢) أصحاب الفضيلة العلماء في إيران طبقتان ، الطبقة الأولى هم الذين بلغوا الدرجة القصوى في التبحر العلمي والمكانة الدينية يلقبون بـ « آية الله العظمي » والذين يلونهم يسمون بـ « آية الله » .

إمام مسجد شاه في تهران ، والأستاذ الكبير « آية الله » محمّد تقي القمّي ، ومن الشخصيّات العلميّة والأساتذة الكبار العلامة وحيدي ، المشرف على مسجد سيه سالار في تهران ، والدكتور محمّدي عميد كليّة الالهيّات ، والأستاذ شيخ الإسلام أستاذ الفقه الشافعيّ في كليّة الإلهيّات ، والدكتور عبّاس المهاجراني رئيس تحرير مجلة « الفكر الإسلامي » العربيّة الصادرة من تهران ، والدكتور سيد حسين نصر رئيس « جامعة آرية مهر » في تهران ، والكاتب الإسلامي الطائر الصيت ومؤلّف كتب إسلاميّة قيّمة باللغة الإنجليزيّة ، والأستاذ السيد هادي خسدو شاهي الكاتب الإسلامي المعروف ورئيس تحرير مجلّة « الهادي ، العربيّة في دار التبليغ الاسلامي بـ« قم »[٢]

زيارة المراكز الدينيّة والعلميّة والمدن التاريخيّة الأثريّة :

وكان من بين المدن التي زارها الوفد – عدا مدينة تهران عاصمة إيران – مدينة « قم » المركز العلمي الدينيّ الأكبر في إيران ، و« مشهد » المركز الروحي الأكبر ، ومدينة « أصفهان » التي كانت عاصمة إيران لأطول مدّة ، وفي أزهر العهود مدنيّة وفناً ، ومدينة « شيراز » درة إيران الشعريّة والأدبيّة ، وقد تجوّل الوفد في أحياء هذه المدن القديمة والجديدة وشاهدها بنفسيّة المسلم المستطلع ،

---

٢) مع الأسف لم نقابل عددا كبيراً من الأساتذة الجامعيين والمثقفين بالثقافة العصريّة المدنية ، لأن الزمن كان زمن الإجازة الصيفيّة في الجامعات والكليات ، ولضيق الوقت .

وعين المؤرّخ المعنيّ بالآثار، وذوق السائح المتنقل في البلاد والاقطار وكان في مشاهداته هذه إشباع لكل هذه النواحي، وقد أعجب بالفنّ الرفيع، والهندسة البارعة، والنقْش البديع، والذوق الرفيع والمدنيّة الزاهيّة التي بلغت أوجها في عهد الصفويين وشاهد المصنوعات الوطنيّة والتحف الفنيّة التي فاقت فيها إيران.

وكان من بين المشاهد التي زارها الوفد مسجد السيدة معصومة أخت «الإمام» علي الرضا بن مرسي كاظم، وفيه ضريحها الذي يقصده الإيرانيون من أنحاء بعيدة ويغصّ المسجد بهم، ومشهد «الإمام» علي الرضا الذي هو أكبر مشهد ومزار في إيران كلّها تشدّ إليها الرحال ويؤمّه الزوّار من أقصى البلاد ولا ينقطع عنه الزائرون ولا تتوقّف حركة السفر إليه في أيّ ساعة ليلاً ونهاراً.

ومن المساجد الأثريّة التي زرناها مسجد سيه سالار في تهران الذي هو آية الفن والهندسة والنقش والتلوين، ومسجد شاه الذي هو المسجد الجامع في العاصمة، ومسجد «كوهر» في (المشهد)، ومسجد شاه عبّاس الصفّوي، ومسجد شيخ لطف الله، ومسجد الجامع ومسجد جهار باغ كلها في أصفهان، ومسجد وكيل في «شيراز».

ومن المؤسّسات والمعاهد التي زرناها: كلّية الإلهيّات والمعارف الإسلاميّة في جامعة تهران، ودار التبليغ الإسلاميّ في مدينة «قم» ومركز التقريب بين المذاهب الإسلاميّة في تهران.

الندوات والمحافل:

أمّا الندوات والمحافل التي استقبل فيها الوفد ، وتكلم فيها أعضاؤه ، فمنها منزل العلاّمة شريعة مداري ، ودار التبليغ في « قم » وقد عقدت في هذه الدار حفلة تكريم كبيرة للوفد ، ألقيت فيها محاضرات وأنشدت قصائد ، ومنزل العلاّمة حبيب الله ميلاني في (مشهد) ألقيت فيه كلمة ترحيب للوفد ، وأجاب عنها عضو الوفد الأستاذ أحمد محمد جمال ، ومنزل العلاّمة مرزا محمّد خليل كمرآني ، أقيمت فيه حفلة تكريم لطيفة واستقبل الوفد بهتافات حماسيّة وكلمات ترحيب رقيقة ، وأنشد نشيد إقبال الطائر الصيت الذي مطلعه « الصين لنا والعرب لنا » معرباً بقلم الأستاذ صاوي شعلان المصري ، ومترجماً إلى الفارسيّة بالشعر ، وتكلّم في هذه الحفلة عضو الوفد الأستاذ أحمد محمّد جمال وكاتب هذه السطور ، وسيمرّ بالقارئ في هذا الكتاب نصّ الكلمة التي ألقاها كاتب هذه السطور نقلاً من الشريط المسجّل مع تنقيح وتهذيب وزيادة يسيرة ، وزار الوفد مركز دعوة التقريب بين المذاهب الإسلاميّة تكلّم فيه الأستاذ الكبير محمّد تقي القمّي ، وكاتب هذه السّطور وحضر لفيف من علماء البلد ورجال الثقافة والفكرة .

في « طرس » مدينة الآثار والأمجاد :

ومن الآثار التاريخيّة التي زارها الوفد في المشهد ضريح شاعر إيران الخالد « فردوسي » (م ٤١١ هـ) صاحب الملحمة الفارسيّة المعروفة بـ « شاهنامة » التي هامت بها إيران في كل زمانٍ وإليها

ترد الفضل في تخليد أمجادها وإحياء لغتها الفارسيّة ، وإثارة الشعور القوميّ ، وقد عنيت حكومة إيران بهذا الضريح عناية عظيمة ، وأدّت إلى الشاعر العظيم ضريبة الإجلال والإكبار وتوَّجه بأعظم رمز لتخليد الآثار.

وقد تجوّلنا في « طوس [1] » وهي الولاية القديمة الغنيّة بآثارها ورجالها ، وقد أنجبت نوابغ مثل حجة الإسلام محمّد بن محمّد بن محمّد أبي حامد الغزالي ، والوزير الخير الشهير نظام الملك الطوسي رئيس وزراء الإمبراطورية السلجوقيّة ، والشاعر العظيم « فردوسي » ، والحكيم الكبير نصير الدين الطوسي وغيرهم .

على قبر الغزالي :

وقد هاجت هناك ذكريات تاريخيّة وتمثلنا أيامها الزاهرة ، يوم كانت مدرسة العلم ومربية الجيل ومأوى الفضل وكان طبيعيّاً ، ونحن نمشي في أطلالها وبين عرصاتها أن ينتقل ذهننا إلى مفخرة الإسلام عبر القرون والأجيال ، ونابغة النوابغ ، وأحد العقول الإسلاميّة الكبرى حجة الإسلام وحسنة أيّام الإمام أبي حامد الغزالي الذي لم يرزق أحد من بين علماء الإسلام – بعد مؤسّسي المذاهب المعمول بها في العالم الإسلامي – من القبول والشهرة

---

١) قال البغدادي في مراصد الاطلاع وهو يذكر « طوس » :

« مدينة بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تشتمل على بلدتين ، يقال لإحداهما : الطابران ، والأخرى نوقان ، وبهما أكثر من ألف قرية ، بها قبر الرشيد ، وعلي بن موسى الرضا في بستان كان بها » .

وخلود الآثار العلميّة ما رزق هذا الإمام ، وسألنا عن مسكنه ومدفنه ومركز حركته العلميّة التي أخذت من العالم الخراج ، وانحنى أمامها السرير والتاج ، فلم يكن الجواب مشجعاً ولا مسلّياً ، مشى بنا الدليل في أراض مقفرة وأنقاض متراكمة ووقف بنا أمام بِناء قديم يندب حظه ويشكو قسوّة الزمان وقيل لنا : إنها « هارونيّة » التي كان الخليفة العبّاسي هارون الرشيد يحبس فيها من تنزل عليه نقمته ، فلا يرى ضوء الشمس بعد ما يدخلها ، وقد وقع بيدنا كتاب ألّفه أحد الأساتذة الإيرانيين الدكتور عيسى صديق أحد أساتذة جامعة تهران . وقد أسماه « آرام كاه غزالي » يعني مرقد الغزالي ، فنّد فيه هذه الشائعة وبيّن أنها أسطورة لا تستند إلى التاريخ ، وقد بحث في هذا الكتاب الصغير عن ضريح الإمام الغزالي وموقعه في طوس ، واحتجّ بنصوص المستشرقين الأوربيين ، في مقدمتهم البروفيسور بوب الأمريكي (Pope) والدكتور زويمير (Zwemer) ، ومن المؤرخين المسلمين تاج الدين السبكي من المتقدمين ، وآقاي علي أصغر حكمت من المتأخرين ، ووصل بكل ذلك إلى نتيجة أن قبر الغزالي بجوار هذه البناية العتيقة الأسطوريّة ، وحدانا الذوق التاريخيّ والإشتغال بآثار الغزالي والإنتفاع بها إلى قبره ، فرأينا ضريحاً قد جدّد حديثاً يقع عن يسار هذه البناية ، إذا استقبلها الواقف ، ولا كتابة عليه ولا لوحة ، وأخبرنا أن اللوحة لا تزال في جوف البناء ورأيناها فعلاً ، وقد انطمست كتابتها فلا تقرأ إلا بعض الكلمات بصعوبة ، وقد وقفنا خاشعين أمام عظمة الله تعالى ، وآمنّا بأنّه هو الحي الدائم ، وقرأنا

قوله تعالى : «كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام»

نادر شاه أفشار :

ومن هذه الآثار التاريخيّة ضريح نادر شاه أفشار الذي غزا الهند في سنة ١١٥١ هـ (١٧٣٩ م) وفتح دهلي ، ووضع السيف في أهلها ، فما رفعه إلاّ بعد أن سالت دماء المسلمين غزيرة في شوارع دهلي[1] ، وأدخل الذعر والخوف قلوب أهل البلاد ، وطأطأ أمامه رأس الملك المغولي (حفيد الإمبراطور أورنك زيب عالمكير) «محمّد شاه» واستولى على عرش الطاؤس الذي صنعه «شاهجهان» وكان مرصّعا بالجواهر الكريمة فأخذه إلى إيران ، وكان لا شك من أكبر القادة العسكريين الذين نبغوا في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وهو الذي اتخذ «مشهد» عاصمة له ، وقاعدة لقيادة الجيوش إلى الهند وقد عنيت مصلحة الآثار القديمة بإبراز هذا الأثر التاريخيّ وأحاطته بالكتابات والصور التي تلقي ضوءاً على عصاميّة هذا القائد ومغامراته ، وقد قصدت أحد متاحف تهران ، وهو «كاخ كلستان» شوقاً إلى مشاهدة عرش الطاؤس ،

---

١) وسببه الذي ذكره المؤرخون أن جيش نادرشاه كان منتشراً في المدينة نازلين مع أهلها ، فكان أوباش الهند إذا ظفروا بواحد منه قتلوه غيلة ، فبلغ نادرشاه ذلك ، فأمر جيوشه بقتل أهل المدينة ، فما زالوا يقتلون من وجدوه ثلاثة أيّام حتى أربى القتلى من أهل الهند على مأة ألف ، ثم أمرهم بعد اليوم الثالث برفع السيف ، ونادى بالأمان ، (نزهة الخواطر ، ج : ٦ ، ص : ٢٥٨) .

وتحكمت في الطبيعة الهندية والذوق التاريخيّ ، فعرفنا أنّه جزء وقطّع وأودعت الجواهر النفيسة في بعض « البنوك » أو المتاحف الأثريّة ، وصنع سرير آخر تقليداً له يحاكيه في الهندسة ولم نعلق عليه أهميّةً .

ذكرى الرشيد :

ولم نعرف أثراً لضريح الخليفة هارون الرشيد الذي دوى اسمه في الآفاق ، ونال من الشهرة حظاً لم ينله ملك من ملوك المسلمين بل من ملوك الشرق ، والذي قال لقطعة من سحاب مرّت على رأسه : « أمطري حيث شئت فسيأتني خراجك » وقد أحاطت به هالة من الأساطير والروايات لم تحط بشخصيّة أخرى ، ومن الثابت في التاريخ أنّه دفن في طوس ، ولا يستبعد أن يكون قبره بجوار سيدنا علي الرضا[1] ، ولكنّه أصبح مغموراً مطموراً بجنب شخصيّته الدينيّة ، وما تدين لها إيران من تعظيم وتقديس .

---

١) كانت وفاة الرشيد سنة ١٩٣ هـ بـ « طوس » ودفن بها ، وتوفي سيدنا علي الرضا سنة ٢٠٣ هـ بمدينة « طوس » كذلك ، قال ابن خلكان : « وصلى عليه المأمون ودفنه ملاصق قبر أبيه الرشيد » ، واختلف في سبب موته ، فقيل : إنه كان موتاً طبيعياً وقيل بل كان مسموماً ، سمّه بنوالعباس ، لأن المأمون عهد إليه بالخلافة ، اقرأ التفصيل في كتب التاريخ ، واشتهر طوس بـ« المشهد » بسبب دفنه ، لعلّ ذلك في أيام ... » الصفويين ، وهذه المنطقة كلها كانت تسمّى « خراسان » ولا يزال هذا الإسم باقيا في هذا العصر .

وفاتنا أن نزور نيشابور عاصمة السلاجقة[1] والمدينة العلميّة التاريخيّة العظيمة التي نهض منها علماء كبار وشعراء مفلقون ، وفيها قبر الشاعر المشهور عمر الخيام (م ٥١٧ هـ) وخاجا فريد الدين عطار الشاعر الصوفي (م ٦٢٧ هـ) وهي تبعد من « المشهد » في جهة الغرب مأة وثلاثين كيلومتراً ولم يتّسع وقتنا لزيارته .

في أصفهان :

وزرنا « أصفهان » مدينة العلم التي نبغ فيها كثير من العلماء والأدباء ، كأبي نعيم الأصفهاني صاحب « حلية الأولياء » (م ٤٣٠) والراغب الأصفهاني صاحب « مفردات في غريب القرآن » (م ٥٠٢ هـ) وأبي الفرج الأصفهاني (م ٤٦٨) صاحب الأغاني ، والإمام داؤد الظاهري (م ٢٧٠) صاحب المذهب والأستاذ أبو بكر محمّد بن فورك المتكلم الأصولي (م ٤٠٦) وكانت مدينة مرموقة في أوائل التاريخ الإسلاميّ ، وخاصّة في العهد العبّاسي واتخذها ملك شاه السلجوق عاصمة مملكته الواسعة ، إلاّ أنّها نالت قسطاً كبيراً من الشهرة ، واحتلت المكانة الأولى في إيران في عهد الصّفويين ، وقد جرى تتويج الشاه إسماعيل الصّفوي – مؤسّس الأسرة الحاكمة – وجلوسه على العرش في « تبريز » وهو الذي أعلن المذهب الشيعيّ ، كدين الدولة الرسّمي ،

---

١) كانت عاصمتهم في عهد « طغول بك » و« ألب أرسلان » ، وقد أنشئت فيها مدارس كبيرة منها « المدرسة النظاميّة العظيمة » التي كان يدرس فيها إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني (م ٤٧٨)

واتّخذ « قزوين » عاصمة ملكه ، وخلفه الشاه عبّاس الصّفوي – أعظم ملوك الأسرة الصّفويّة وأشهرهم – سنة (١٦٠٢ م) ونقل العاصمة إلى « أصفهان » وإليه يرجع الفضل في تخطيط المدينة الجديدة ، والبلوغ بها إلى أوج المدنيّة والزخرفة ، وله آثار معماريّة عظيمة في أصفهان ، تجلّى فيها ذوقه الرفيع ، وعنايته البالغة ، وقد نزلنا في فندق منسوب إليه يسمى « مهمان سرائ شاه عباس صفوي » وهو بقصر ملوكيّ أشبه منه بفندق أو نُزل ، وتحيط بالمدينة آثار تاريخيّة ، وحدائق ومشاهد لم يتّسع وقتنا لزيارتها .

وحكم الصفويون مدة قرنين وهم في أوج القوّة والإقبال ثمّ أصابهم الضعف والهرم شأن الأسر الحاكمة كلها في العالم وبدأ في إيران دور الاضطراب وعدم الاستقرار ، تتخلّله فترات من حكم قويّ وقيادة ثابتة حتى جاء دور القاجاريين وهم من أصل تركيّ وفي عهد آغا محمّد شاه (١٧٧٩ م) انتقلت العاصمة إلى تهران ، وكانت مدينة صغيرة لا شأن لها ، فتوسعت وأخذت زخرفها وازينت في خلال القرن التاسع عشر والعشرين المسيحيين ولله الأمر من قبل ومن بعد .

في شيراز :

وزرنا شيراز التي دخل اسمها في أدبنا الهندي وفي أمثال لغتنا وكان مثلنا ومثلها كما قال بشار بن برد :

والأذن تعشق قبل العين أحياناً .

وبدأنا بزيارة قبر الشيخ مصلح الدين سعدي (م ٦٩١ هـ)

صاحب الحديقتين الزاهرتين الخالدتين « كلستان » و « بوستان[1] » ويسمّى هذا المكان بـ« سعديّة » ، وحضرتنا ونحن واقفون على قبره بعض أبياته التي تمنى فيها دعاء رجل تهيجه عاطفة الحنان والرحمة ، فيدعو له ، ودعونا دعوة من نهل من موارده ، واقتطف زهوره ، ثمّ زرنا قبر خاجا حافظ (م ٧٩٣ هـ) من أكبر شعراء الحب والحنان ، والعاطفة والوجدان ، في عصره وبعد عصره ويسمىّ هذا المكان بـ« الحافظيّة »

ونهضت من « شيراز » جماعة من كبار علماء الإسلام ، كالعلاّمة أبي إسحاق الشيرازي (م ٤١٨ هـ) رئيس أساتذة جامعة النظاميّة ببغداد ، وعلي بن عيسى أبو الحسن الربعي تلميذ أبي علي الفارسيّ ، والإمام في النحو (م ٤٢٠) وأصبحت في العهد الأخير مركزاً لعلوم الحكمة (الفلسفة والمنطق) ونهض منها العلاّمة صدر الدين الشيرازيّ (م ١٠٥٩ هـ) صاحب « الأسفار الأربعة » في الحكمة ، وشرح « هداية الحكمة » المعروف بـ« صدرا[2] » والأمير فتح الله الشيرازي (م ٩٩٧ هـ) الذي كان له تأثير عميق في المناهج الدراسيّة في الهند ، والأمير غياث الدين منصور

وتدين شيراز الحديثة في عمرانها وجمالها ، ومساجدها

---

١) معناهما الروضة والحديقة .

(٢) قد دخل هذا الكتاب في المناهج الدراسيّة في الهند منذ القرن الحادي عشر الهجري واعتبر من الكتب الذي لا يعتبر الطالب محصلاً عالماً ، إلا إذا قرأه وأتقنه .

الكثيرة لكريم خان من أسرة « زند » التي حكمت فارس بعد الصفويين واتخذت « شيراز » مركزاً لها .

وزرنا « تخت جمشيد » الذي هو من أقدم الآثار التاريخيّة في إيران ، وهي عاصمة « دارا » الأوّل ، يرجع تاريخها إلى ألفين وخمس مأة سنة ، وكانت قاعدة ملك كبير ، ومركز حضارة من أرقى حضارات العالم القديم ، وقد تجلّى فيها الفنّ المعماري والهندسة البنائيّة وطريقة نقل الحجارة الضخمة الهائلة إلى الهضاب والمرتفعات ، وبِناء العمد الشامخة ، في أروع مظاهرها ، يذكر السائح بأهرام مصر وقدرة المصريين القدماء على نقل الحجارة وتركيب بعضها ببعض ، وقد عقدت حكومة إيران في هذا المكان في أكتوبر ١٩٧١ م مهرجاناً بمناسبة مرور ألفين وخمس مئة سنة على الإمبراطوريّة الإيرانيّة ، حضره رؤساء الجمهوريّات وملوك العالم ووزراء الدول وممثلوا البلاد ، وأنفقت عليه الملايين من النقود ، وتفاصيل هذا المهرجان لا تقل عن أساطير ألف ليلة وليلة في الغرابة ، والمحل يبعد عن شيراز ستين كيلومتراً تقريباً ،

وقد ملكتني دهشة وأنا أجول في أطلال هذه المدينة البائدة فاستغرقت فيها ، كيف استطاع العرب رعاء الشاة والغنم وسكان الوبر والمدر أن يفتحوا هذه البلاد العريقة في المدنيّة الغنيّة في الحضارة والعلم ، التي كانت هذه المدينة بعض آثارها والتي توارثت الملك والمدنيّة منذ آلاف من السنين وبلغت بهما

شأواً بعيداً لا يتصوّره العقل ؟! وكان الجواب ، قوة الإيمان والدعوة وفضل تعاليم الإسلام ، والبعد عن أدواء المدنيّة المصطنعة ، وحياة الرقة والنعومة .

نزلنا في شيراز في « أوتيل سائرس » وسائرس هو من أعظم ملوك إيران ، ورمز عظمتها ومجدها الغابر ، ويرجّح بعض الباحثين أنّه الملك الّذي تحدّث عنه القرآن في سورة الكهف بلقب « ذي القرنين »[1] وهو الذي خلّص اليهود من أسر بختنصر وأعادهم إلى فلسطين ، فهم يعتبرونه المنقذ لليهود وصاحب الفضل عليهم ، وهو الذي احتفلت به حكومة إيران كما ذكرنا ، وهو فندق كبير يحافظ فيه على التقاليد الإيرانية القديمة ومظاهرها ، في لباس المضيفات والخدم ، ويظهر ذلك التقليد في مطاعم المدينة الأخرى .

ويمتاز أهل « شيراز » بخفة الروح والمرح وحبّ الألحان المطربة وقد جلست في شرفة الفندق في الليل ، والمدينة تسبح في فيض من الأغاني والأنوار والتسلية والتمتّع ، وأنا أسبح في بحر من الذكريات ، وعهود التاريخ الماضي ، وأحداث الزمان وتقلباته ، وكأني أشاهد قصّة مسرحيّة تتتابع فصُولها ويتغيّر أبطالها ، وتختلف مناظرها ، ثم أذكر قول الله تعالى :

« وما هذه الحياة الدنيا إلاّ لهو ولعب وإنّ الدّار الآخرة لهي

---

١) ذهب إلى ذلك مولانا أبو الكلام آزاد : وزير المعارف الأسبق في حكومة الهند والزعيم الهندي المشهور ، في تفسيره « ترجمان القرآن » ورجّحه الأستاذ أبو الأعلى المودودى في « تفهيم القرآن » .

الحيواة لو كانوا يعملون »[1] وقوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوّةً وأثاروا الأرض وعمروها أكثر ممّا عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[2] .

هذا استعراض مجمل لهذه الجولة التي كان لها صدى في القلوب والنفوس ، وحديث في المجالس والمحافل ، ولم تغفل الإذاعة والتلفزيون أن تلعب دورها في الإشارة بهذه الجولة ، التي كانت جديدة في نوعها ، ذات أهمية في نتائجها وآثارها ، ويستطيع القارىء المعنىّ بالرحلات والجولات أن يأخذ عنه صورة مجملةً و فكرة عامة عن طبيعة هذه الرحلة ، وقيمتها التاريخيّة والأثريّة والاجتماعيّة والعلميّة .

انطباعات ، ملاحظات ، اقتراحات :

ونريد بعد ما انتهينا من هذه المرحلة التي لا بدّ منها ، أن نورد هنا بعض انطباعاتنا وملاحظاتنا في هذه الجولة التي لم تكن سياحة في بلد شرقي إسلامي فحسب ، ولا زيارة تحية ومجاملة ، وإنما كانت أبعد مدى وأعمق أثراً من الرّحلات التاريخية ، والزيارات الأثريّة ، وتبادل التحيّة بالتحيّة ، وهنا نضطرّ إلى أن نسجّل بعض

---

١) سورة العنكبوت الآية ٦٤

٢) سورة الروم الآية ٩

الجوانب المشرقة التي تفتح مجالاً واسعاً للآمال والأعمال ، وتبعث على السّرور والتفاؤل ، ونسجّل جوانب تثير الاستغراب ، وتطلب – ألى حدّما – سعة نظر ورحابة صدر ، وثقة بإخلاص القائل ، وحسن قصده ، ولا شك أنّ كثيراً من إخواننا الفضلاء في إيران متحلّون بهذه الصراحة ، وقد لمسنا آثارها في الأيّام التي عشناها بينهـم .

١ – أنّ أوّل شيء بهرنا وأثار فينا الاستغراب مع الاعجاب ، والحيرة مع المسرّة ، هي شدّة رغبة إخواننا الإيرانيين على اختلاف طبقاتهم وثقافاتهم في الوحدة الإسلاميةّوالإلتقاء على صعيد واحد من جوهر الإسلام ومبادئه الأوّليّة وأعترف هنا أننا لم نكن نتوقّع الموجة القويّة من حبّ الوحـدة ومدّ يد الأخوة والصداقة ألى سائر المسلمين في العالم وتكوين جبهة موحدة ضدّ اللاّدينيّة التي تتحدّى جميع الأديان ، وجميع القيم الخلقية ، والتي لا تميّز بين سنّي وشيعيّ ، وحنفي وشافعيّ ومحافظ ومتجدّد ، ومقلّد ومجتهد ، إنّه كان فاتحة الحديث وخاتمته في المجالس ، والهتاف الصارخ في الندوات والحفلات ، والرعنة الجامحة في النفوس والقلوب ، ولا شك أنّها ظاهرة طيّبة مباركة ، يجب على جميع المعنيين بقضيّة الإسلام والمسلمين أن يستثمروها ، ويستخدموها في صالح الإسلام ، الذي جنتْ عليه المقالات . وتخطى الحدود في الأختلاف جناية كبيرة ، والّذي جرّ في منتصف القرن السابع الهجري على بغداد – مركز الخلافة وعاصمة الإسلام – الشقاء الأكبر ، وكان

سبب كارثة لا يوجد لها نظير في التاريخ[1] ومنع العثمانيين أن يفتحوا أوروبّا ، ويتوغّلوا فيها إلى أقصى حدّ ، وأضعف الحكم الإسلامي في الهند ثم انتهى به ألى الانقراض التّامّ .

٢ – والشيء الثاني ما لمسناه في هذه الزيارة من عناية بالأثار الإسلاميّة ، والتأليف في اللغة العربيّة ، وإحياء التراث القديم ، والاعتناء بالمصاحف الأثريّة ، وتحليتها و تزيينها ، ممّا يدلّ على التقدير والإهتمام ، وقراءة القرآن – وأكثره من صوت القراء المصريين المسجّل – في المشاهد والحفلات واحترامها .

٣ – ومنها الغيرة الدينيّة ومحاربة الحركات الهدّامة الثائرة على الإسلام ، وفي مقدمتها البهائيّة التي منعت في إيران منعاً قانونياً واعتبر معتنقوها مارقين من الإسلام[2] ، مع أنها ديانة ولدت في إيران ونشأت فيها ، وكذلك كراهة علماء إيران للديانة القاديانية ومحاربتهم لها . أصف إلى ذلك عدائهم للإلحاد وللشيوعيّة في بلادهم ، وهذه الغيرة جديرة بأن يغتبط عليها ، وتقلد إيران

---

١) اقرأ رثاء مصلح الدين سعدي الشاعر الإيراني على هذا الحادث ، وقصيدته الحزينة الدامية على نكبة المسلمين في ديوان شعره والتي مطلعها :

آسمان راحق بودگر خون ببارد بر زمين
بر زوال أمر مستعصم أمير المؤمنين

٢) وقد بلغنا أخيراً ان البهائيّة لا يزال لها اتباع في ايران ، ولا يزال لها نفوذ في الاوساط العليا

فيها الأقطار الإسلاميّة الأخرى وخاصّة باكستان التي بينها وبين إيران صلات الصداقة المتينة .

٤ – ومنها دماثة الخلق ورقة العاطفة وكرم الضيافة الذي يلقاه به المسلم الإيراني أخاه الوافد من بلاد الإسلام ، وإشعاره بأنّه بين إخوانه وأحبابه وفي بلده ، وكنا لا ننزل في بلد إلاّ ويستقبلنا رجال الحكومة وأعيان البلد وعلماؤه الكبار ، وقد رأينا كبار المسؤولين وبعض العلماء المشهورين واقفين على حافة الطريق في الشمس لاستقبالنا ، ونحن متوجّهون إلى « قم » وكان السفر بالسيّارات ، وقد تأخّرنا في الوصول ، هذا ما شهدناه ولمسناه في هذه الزيارة القصيرة .

أمّا الجوانب التي نريد أن نلفت إليها نظر إخواننا الإيرانيين وخاصّة العلماء الأفاضل والموجّهين والقادة فهي كما يلي :

١ – من المعلوم أن المقصود الحقيقي من إرسال الرسل وإنزال الكتب بل من خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان ، هو عبادة الله وحده ، بجميع ما تحتوي عليه هذه الكلمة البليغة المعجزة من معاني الحب والطاعة ، والخضوع والخشوع ، والأحباب والإنابة والإلتجاء والافتقار ، وإنّما جاءت الرسل – صلوات الله عليهم أجمعين – ليربطوا الخلق بالخالق قلباً وقالباً ، ويأخذوا بنواصيهم ويطأطأوا رؤوسهم على عتبة عبوديته ، وتلك غاية أمانيهم ومنتهى سعادتهم ونجاحهم وفيها نعيم قلوبهم ولذة روحهم ، ولم يأتواليشغلوا العباد بنفوسهم ويقفوا حاجزاً بينهم وبين ربّهم ،

إنّهم لم يأتوا لاستعباد الإنسان للإنسان ، أو لأسرة أو بيت أو سلالة أو عرق أو دم ، وإن كانت هي أسرتهم وبيتهم وأبناؤهم ، إنّ طبيعة تقديس الدماء والعروق والسلالات والأجيال ، وتأسيس الدّول الكبيرة ، وإنشاء السيادات والزعامات للأبناء والأحفاد ، وتأمين مصالحهم ومركزهم في المستقبل ، ودعوة الناس إلى تمجيدهم وتقديسهم والتغني الدائم بإمتيازاتهم ، وبكونهم فوق البشر أو مستوى العامّة ، طبيعة تليق بالملوك الفاتحين والقادة الطامحين ، وطلاّب الدنيا وعبّاد المادة ، قد عرفت في تاريخ الحكومات ، وفي تاريخ الأسر والبيوتات في الزمن القديم ، ولا تليق بالأنبياء والمرسلين ، ولا أبلغ من قوله تعالى : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة ، ثم يقول للناس : كونوا عباداً لي من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ، أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »[1] .

ولذلك كان النبي ﷺ حذرا شديد الحذر من كل ما يشغل الناس بالناس ، أو يقف حاجزاً بين العبد وربّه ، أو يوجّه عاطفة العبوديّة والإنابة ، أو التقديس والتمجيد إلى غير الله تعالى ، شخصاً كان أو أثراً أو معبداً أو مشهداً ، فقد صحّ أنه قال : « اللهمّ لا تجعل قبري وثناً يعبد ، اشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا

---

١) آل عمران الآية ٧٩ – ٨٠

قبور أنبيائهم مساجد[1] » وقال : « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما صنعوا »[2] وقال : « لا تجعلوا قبري عيداً »[3] والأحاديث في ذلك كثيرة .

وذلك كله مخافة أن تتعلق القلوب وتتّجه النفوس إلى غير الله ، وينشأ وينمو ذلك على حساب الإقبال على الله تعالى والإنابة إليه ، وعلى حساب البيوت التي « أذن الله أن ترفع ويذكر منها اسمه ، يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تليهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ، وإقام الصّلاة ، وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلّب فيه القلوب والأبصار »[4] ، وقد أثبتت تجربة الأمم السابقة أنّه ما فتنت أمّة بالمشاهد والضرائح والآثار والأعياد ، إلا شغلت عن المناسك والمساجد ، وإقام الجماعات فيها

---

١) رواه مالك مرسلا في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً .

٢) حديث متفق عليه .

٣) رواه أبو داؤد عن أبي هريرة وهو مروى بلفظ « لا تتخذوا قبري عيداً » برواية أهل البيت عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده رسول الله ﷺ ، وعن الحسن بن الحسن عن أبيه عن جدّه عن رسول الله ﷺ ، روي الأول في المختاره وروى الثاني سعيد بن منصور في سننه ، والعيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائدا إما بعود السنة أو بعود الأسبوع أو الشهر ونحو ذلك .

٤) النور الآية ٣٦-٣٧

والعكوف عليها ، والفزع إليها وإلى الصّلاة ، إذا خربها أمر أو نزل بها حدث ، [1] .

وقد لاحظنا مدة إقامتنا القصيرة في إيران أن المشاهد أكثر عُمراناً وازدحاماً ، والنفوس أعلق بها من المساجد ، فإذا دخل غريب في مشهد سيدنا على الرضا لم يشعر إلاّ وأنّه داخل في الحرم ، وهو غاصّ بالحجيج مدوي بالبكاء والضجيج ، مكتظ بالرجال والنساء ، مزخرف بأفخر الزخارف والزينات ، قد تدفقت إليه ثروة الأثرياء وأموال الأغنياء وتبرعات المتوسطين والفقراء ، فلا يكاد يفرق بينه وبين الحرم المكي والمسجد النبويّ ، ويرى أقل من ذلك في مدفن السيّدة معصومة بـ « قسم » .

أما المساجد – وإيران من أغنى بلاد الله في كثرتها وسعتها وفخامتها ، وبعض مساجدها لا يوجد لها نظير في الأقطار الإسلاميّة – فلا يرى فيها هذا الزحام ، وهذا الحماس الديني والاندفاع العاطفي ، بل إن كثيراً منها تشكو قلة المصلين وزهد القاصدين ، هذا مع علمنا بما في المذهب الجعفري من أحكام خاصّة عن الجمع بين الصلاتين ، وشروط الإمام الدقيقة ، فقد كان من الممكن أن تكون المساجد والجوامع رغم ذلك أكثر حظاً من العمارة والحيوية والأنس والتلاوة والذكر ، ممّا هي الآن ، ولا شك أن علماء إيران الأفاضل وأهل الغيرة الدينيّة يولون هذه النقطة اهتمامهم

---

١) روى عن النبي ﷺ أنه كان إذا حزبه أمر صلى (رواه أبو داؤد).

الخاص ، حتى لا يسوغ لزائر أن يشعر بهذا الفرق الواسع بين المساجد والمشاهد[1] .

ومن آثار هذا الهيام – الذي قد تخطى الحدود – بكل ما يتصل بأئمّة أهل البيت انتشار صورهم ، بل وجود صورة النبي ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب بكثرة في المساجد والبيوت ، وقد رأينا ذلك وعزّ علينا في مسجد سيه سالار ، وفي بعض المساجد والبيوت ، ولا شك أن ذلك من باب الذرائع إلى الشرك ، وقد تورطت الأمم السابقة بتصوير الصالحين والعبادة منهم في الشرك الجلي وعبادة الأصنام والتماثيل ، أعاذ الله الأمّة الإسلاميّة

---

١) ومن قبيل الاعتراف بالواقع والشهادة بالحق أن فتنة الضرائح والمشاهد ، وشد الرحال إليها من أنحاء بعيدة والاجتماع عليها سنويا مما يخاف منه أن يدخل تحت نهى « لا تتخذوا قبري عيداً » والأعمال الشركية منتشرة عند جهلاء أهل السنّة في مصر وفي شبه القارة الهنديّة ، ولا يمكن إنكارها ، ولكن مما لا شك فيه أن علماء أهل السنة الراسخين في العلم ، والمبينين للحق لم يزالوا من عهد السلف إلى عهد الخلف ينكرون على ذلك أشد الإنكار ، ويحذرون الناس منه أعظم تحذير ، ويتعرضون لسخط العامّة ، ولا يخافون في الله لومة لائم ، ولم يخل من هؤلاء المصلحين قرن من القرون ولا بلد من بلاد الإسلام ، ولا يزال العلماء قائمين بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى التوحيد ، من غير مداهنة ومحاباة ، وكتب المذاهب الأربعة مملوءة بالانكار على منكرات القبور وبدعها ، فهل وجد في إخواننا الشيعة دعاة ومصلحون ينكرون على الغلو في المشاهد والضرائح ، ويدعون الناس إلى الدين الخالص ؟ إن علمنا بتاريخ الإصلاح والتجديد لعلماء الشيعة ضئيل ، فننتظر من إخواننا الأفاضل الإفادة في هذا الموضوع .

وحماها من هذا الخطر الكبير[1] .

٣ – إننا شعرنا في كل مجتمع ينتمي إلى الطريقة الإماميّة أن الصلة العاطفية ، والحماس الداخلي في حب أهل البيت وتعظيم الأئمة – الذين كانوا أئمّة الهدى ومصابيح الدجى ، لا يشك في ذلك مسلم – كاد يشغل كل فراغ في النفس والعاطفة والعقل والضمير ، ونخشى أن يكون قد أخذ الشيء الكثير من حق النبوة التي هي مصدر كل خير وسعادة ، ومن شخصيّة الرسول الأعظم الذي نال به أهل البيت الشرف واستحقوا الحب والتعظيم ، وإنه نما وإزدهر على حساب الصلة العميقة التي يجب أن تكون بين المسلم وبين نبيّه ﷺ .

وقد ظهر ذلك الأثر في الشعر الذي قاله شعراء إيران في مدح النبي ﷺ ، وفيما قالوا في مناقب أهل البيت وخاصّة في مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وسيدنا حسين بن علي ، فيفوق الثاني الأوّل في قوّة العاطفة والتعبير عن القلب ، والقدرة الشعريّة ،

---

١) في الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنِ أم سلمةِ ذكرتِ لرسولِ الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور ، فقال : « أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله . وذكر ابن هشام في سيرته أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، ورأى ابراهيم عليه السلام مصوّرا في يده الأزلام إلى أن قال : « ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست » . (ابن هشام ، الجزء الرابع ، ص : ٤١٣)

وفيض الخاطر وتدفق القريحة ، لمسنا هذا الفرق في الشعر الذي قاله شعراء أردو في الهند من إخواننا الجعفريين ، والشعر الذي قالوه في المديح النبوي ، ولمسناه في الشعر الفارسيّ ، ورأينا هذا الفرق في الكتب التي ألّفت في السيرة النبويّة وفي مناقب أهل البيت كمّاً وكيفاً ، ورأيناه في الفرق الواسع بين العناية بالمشاهد ، والعناية بالمساجد ، وبين الشوق إلى السفر إلى النجف وكربلاء و « العتبات العاليات » والسفر إلى الحرمين الشريفين[1] .

إنني أعترف بأنه لا يخلو من ردّ فعل لما وقع من بعض علماء أهل السنّة ، والمتحمسين من هذه الفرقة في بعض العصور والأوساط) من التقصير في التنويه بفضل أهل البيت ومالهم من حقوق على المسلمين ، ولكنه أكثر من ردّ فعل ، وعلى كلّ فقد اتّجه تيار الحبّ والحماسة الدينيّة ، والعاطفة الفياضة إلى هذا المركز الروحي ، وأحاطت به هالات التقديس ، وأهيلت عليه نعوت وصفات ، أخشى أن تكون قد جعلت الإمامة منافسة للنّبوة أو مشاركة لها في كثير من الصّفات ، واندفع بذلك تيار الحياة كلّها إلى مركز يبدو وينمو بجوار المركز الأصيل الذي هو نبّوة خاتم النبيين ، وأشرف الأنبياء والمرسلين ، وأثر ذلك في الأدب والشعر والتفكير والعمل

---

١) ولا شك أن هناك تغيراً ملموساً في العناية بأداء فريضة الحجّ عند إخواننا الشيعة خصوصاً في إيران ، فقد تضخّم عدد القاصدين الحجّ من إيران في الأعوام الأخيرة ، ولا يزال في ازدياد ونموّ ، وهذا فضلا عن تنظيم حركة الحجّ الذي فاق فيه إخواننا الإيرانيون على أكثر البلاد الإسلاميّة .

ولا نريد أن نطيل في ذلك ، فإذا تلمس إخواننا المنصفون قلوبهم وخفقاتها واستجابتها وانفعالاتها ، رأوا أن هذه الملاحظة إن لم تكن ما يوافقون عليها ماية في المايـة فإنّها تدعوهم إلى التفكير من جديد ، ولا شك أن أئمّة أهل البيت كانوا خلفـاء الرسول من غير نزاع في الدعوة إلى التوحيد والدين الخالص ، أعداء لما يصرف الناس عن الله ويشغلهم بغيره ، أشدّ الناس غيرة على الدين ، الذي جاء به جدّهم وسيّدهم ونبيهم ﷺ ، فهم لا يرتضون شيئاً يضعف صلة العبد بالربّ ، ويشغل أحدا من الخلق بالخلق ، هذا ثابت بالبداهة ، وما تواتر عنهم من الغيرة على الإسلام والزهد في الدنيا ، والعزوف عن كل مظاهر العظمة الزائفة ، وما استفاض عنهم من الفرار عن الخلق إلى الحق ، والإشتغال بنشر العلم النافع والدعوة إلى الله .

ولا بدّ للتقريب بين المسلمين وملء الهوة الشاسعة الواقعة بين أهل السنّة والشيعة ، أن يوجه هذا التيار إلى النبوة التي هي ملتقى كل مسلم ، والشخصيّة التي نبعت منها هذه العيون الدافقة ، وخرجت منها هذه الخيوط الذهبيّة ، التي أضاءت العالم كلّه ، إنه عمل تجديديّ يحتاج إلى عمالقة في العلم والفكر ، وقوة الإرادة ، وعلّو الهمّة ، والعلم الراسخ ، والفكر الثاقب ، إنّه إذا تمّ هذا العمل أحدث انقلاباً لا يوجد له نظير في تاريخ الانقلابات الفكريّة والتجديد الإسلاميّ وهو الأساس السليم المتين الذي تقوم عليه الوحدة الإسلاميّة الفطريّة الحقيقيّة .

٣ – يجب أن يتغيّر نظر إخواننا الجعفريين – إذا أرادوا التقريب بين المذاهب وجمع شمل المسلمين وتصافي القلوب – إلى صحابة الرّسول ﷺ وأزواجه أمّهات المؤمنين ، فلا يقوم تقارب حقيقيّ إلا بالاحترام المتبادل للشخصيّات الحبيبة المحترمة بين الأشخاص أو الفئات ، ولا يعقل أن يتوادّ اثنان ويتصافيا ويتعاونا على عمل بإخلاص وحماس ، وأحدهما يذكر من يعتقد فيه صاحبه الخير والفضل ، أو يدين له بحبّ وولاء ، بسوء ، وينسب إليه الطامات ويتقرّب إلى الله بالذم والتشنيع عليه ، وكلّنا جرّب ذلك ، وذاق مرارته ولذعه في حق آبائه وأساتذته وشيوخه ، ويفديهم بمهجته وروحه ، ويرى لهم الفضل في نصر نبيّه ، ونشر الإسلام إلى أقصى حدود العالم ، والجهاد في سبيله ، وحسن البلاء في الدعوة إلى الله ، والزهد في الدنيا والتقشف في الحياة والإيثار على النفس .

وبصرف النظر عن هذا الجانب العاطفي ، فإنّ لهذا الموضوع قيمة علميّة وأهميّةً دعويّةً ، فقد اعتاد الناس في كل زمانٍ أن يقيسوا صدق الدعوة ، وفضل التعاليم التي يدعى إليها بكثرة ما أبرزته هذه الدعوة من نماذج رائعة ، وأمثلة كاملةٍ وبفضل ذلك الرعيل الذي ربته هذه الدعوة ، وأنشأته هذه التعاليم ، وبقدر النجاح الذي لقيه صاحب الدعوة في دعوته وتربيته ، وهذا هو مقياس المعلمين والمربّين ، والقادة والموجّهين ، والحذاق في الصناعات ، والماهرين ، في كل عصر ، فإذا كان نتاجهم كثيراً ونجاحهم كبيراً في تخريجهم وتربيتهم ، سلمت مهارتهم في

فنونهم واختصاصاتهم ، وسلمت لهم الزعامة والإمامة والتفوّق والتقدّم ، أما إذا كان نتاجهم ضئيلاً ونجاحهم قليلاً ، أو ضاعت جهودهم في تلاميذهم وخريجيهم في وقت قريب ، وأحبطوا مساعي أساتذتهم بعد أن فارقوا الدنيا وزال أثر تربيتهم سريعاً ، اعتبر هؤلاء الأساتذة والمربون فاشلين في مهمّتهم ، مخفقين في تربيتهم ، وذلك بضعف تأثير الدعوة وقيمتها إلى هذه التعاليم ، وإلى الإيمان بعظمة هذا الداعي أو المربي وعبقريته ، ويقف حاجزاً بين هذه الدعوة وبين دخول الناس فيها والثقة بها ، ولهم أن يتساءلوا : ما أملنا في هذه الدعوة وتأثيرها وتزكيتها للنفوس والوصول بها من حضيض الحيوانيّة إلى ذروة الإنسانيّة ، ولم تحدث هذه الدعوة على يد داعيها الأكبر ، وفي زمن أوجها أثراً عميقاً خالداً ، ولم يثبت من آمن بها أوفياء أمناء لها في عصرها الأوّل ، ولم يبق على هذه الجادة التي تركهم عليها نبيهم إلاّ بضعة رجال ؟

فمن مطالب هذه الدعوة الإسلاميّة ومن الإنصاف لشخصيّة الرّسول ﷺ وسيرته وتاريخه ، وإنارة لها في عيون الناقدين أن نعرف للصحابة فضلهم ونثبت عظمتهم وإخلاصهم ووفائهم وتوادّهم وتناصرهم على الحقّ وأن نعرض على العالم صفحة بيضاء مشرقة من هذا التاريخ الرائع ، وإنّ ما روى عنهم من هنات أو زلاّت فهي كنقطة سوداء في ملاءة بيضاء ، وهذا ما يقرّره القرآن وتقرره الأحاديث المستفيضة ، والتاريخ الموثوق به ويقرره المنطق المستقيم ، والعقل السليم ، وقد مدح القرآن الكريم من نهج هذا المنهج في سلفه الصّالح ، وفي السابقين الأولين ، فقال : « والذين

جاؤا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاّ للّذين آمنوا ، ربّنا إنّك رؤوف رحيم[1] »

وقد عرفت الأمم السابقة بحب حواري رسلهم وأصحابهم ، وإيثارهم على غيرهم ، فاعتقدت أنهم كانوا خيار خلق الله ، ونحن أولى بذلك منها جميعاً ، فكان نبيّنا أعظم منهم نجاحاً ، وأكثر منهم تأثيراً بتصريح من القرآن ، وقد قال الله تعالى : « هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[2] » وقال : « هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً[3] » .

إننا إذا أردنا التقريب بين المذاهب حقاً ، وكنا جادّين في ذلك وجب أن يكون ذلك على أساس سليم فطريّ ، وكل محاولة لهذا التقريب من غيْر هذا التغيير النفسي محاولة غير ناجحة وغير طبيعيّة ، إنني قلت في مجلس الأستاذ الكبير العلاّمة محمّد تقي القمّي الذي يدعو إلى هذا التقريب منذ ثلاثين سنة أو أكثر « إن التصفيق – كما يقول المثل العامي عندنا في الهند – لا يكون بيد واحدة ، إنّه لا يكون إلاّ بيدين مخلصتين عازمتين جادتين ،

---

١) سورة الحشر الآية ١٠ ،
٢) سورة الجمعة الآية ٢ ،
٣) سورة الفتح الآية ٣٨

وإذا كان في إحداهما تراخٍ أو استرخاء لم يتمّ التصفيق » وقلت كذلك : إن التقريب ليس بشيء صناعيّ ميكانكي ، إنّه عمل القلب قبل أن يكون عمل اللسان ، وإنّه قضيّة الداخل قبل أن يكون قضيّة الخارج ، إنّه لم تكتشف إلى الآن مادّة غرائيّة تلصق بها القلوب كما تلصق الأوراق ، فيجب أن ينبع هذا من القلب ويفيض حتى تشعر القلوب بقوّته وحرارته » ولا بد لذلك من تفاهم وتنازل وتبادل ، فإذا تهيأت النفوس لذلك ، واستجابت له القلوب كان فيضاناً من الحب والثقة ، لا يقف في طريقه شيء ، والحب يقهر كل ما يقع في طريقه من عداء وبغض ، ويجرف بهما .

٤ – وهنا وقفة قصيرة وأخيرة عند ضرورة زيادة العناية بالقرآن الكريم ، إنّ إخواننا الإيرانيين لا شك يحبون القرآن ويجلّونه ، قد تجلّى في كتابة المصاحف بأجمل الخطوط والنقوش ، من أقدم العصور ، والاحتفاظ بهذه المصاحف في المكتبات والمتاحف ، والافتخار بها بحقّ وجدارة ، وطبع المصحف الكريم طبعاً دقيقاً أنيقاً ، لا يقل عن بلد آخر ، وقد عنى كثير من علماء إيران القدامى ، والمحدثين بتفسير القرآن وأثرت عنهم كتب جليلة اشتهر عدد منها في الهند وغيرها .

ولكنّي أشعر بحاجة إلى عناية أكثر من هذه العناية وأعمق منها ، إنني أعني به التذوق للقرآن والتضلّع فيه ، والاهتمام الزائد الذي يظهر في كثرة التلاوة وكثرة الحفاظ المتقنين وإيثاره على كل شيء وتحكيمه في كل شيء ، واتخاذه ميزاناً في القبول

والرفض ، والأخذ والترك ، والحب والبغض ، حتى يتغلّب ذوق القرآن على كل ذوق ، وأن يكون هو سدرة المنتهى والأفق الأعلى في العلم والأدب والعقيدة والعمل والمنهج والسلوك .

ولا شك أن إخواننا الفضلاء وقادة التفكير في إيران الحبيبة يشعرون بهذه الحقائق أو بعضها ، ويشعرون بالضرورة الملحة إلى إبرازها وتقويتها ، إنه عمل تجديديّ عملاق لا ينوء به إلاّ العمالقة الذين يخاطرون بمركزهم العلميّ والاحترام الذي يتمتّعون به ويعرضون حياتهم للخطر ، ولكن السّرور الذي يحصل بهذا النجاح لا يعدله سرور ، وإنّ الشرف الذي يسجّله التاريخ لهم لا يعدله شرف ، إنّ إزالة الأنقاض التاريخيّة والركام الفكريّ والتقليدي ، الذي تراكم وتصلّب ، ونفض الغبار الذي طرأ على جوهر الإسلام النقي وجبينه الصّافي ، وإعادة الدين إلى ما كان عليه في عصر النبوّة ، ليس بالخطب اليسير والعمل الهين ، إنّه أكبر جهاد وأعظم تجديد ، وليست دعوَة القرآن إلى التوحيد الخالص والتمسّك بجوهر الدّين ولبابه والعودة إلى الأصل مختصّة بالأديان الأخرى ، والأمم غير الإسلاميّة ، بل هي موجّهة إلى فرق الأمّة الإسلاميّة وطوائفها كذلك في كل مكانٍ وزمانٍ « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله[1] » .

---

١) سورة آل عمران ٦٤

واخيراً أؤكدّ لإخواننا الفضلاء أنّه لم تصدر هذه السّطور إلاّ عن إخلاص ، وحسن قصد وشعور بالأمانة وحرص على الوحدة الإسلاميّة ، ومعذرتي إذا وجدوا في هذه السّطور فكرةً لا يوافقون عليها ، أو تصويراً للواقع يرون فيه إفراطاً وتفريطاً ، أو تعبيراً لا يرتضونه ، فكل بشر يخطىء ويصيب والعصمة لله .

سؤال مؤجّه إلى الشعب الإيراني الكريم :

وقبل أن نغادر إيران ونودّع إخواننا ، نعرض عليهم سؤالاً طالما جال في خواطرنا وشغل عقولنا ، وهو : لماذا أصيب هذا القطر الولود للعباقرة والأفذاذ في كل فنّ ، ومن كانوا فوق المستوى العادي في الذكاء والأصالة والنبوغ ، حتى يصبح الإنسان يعتقد وهو يقرأ كتب الطبقات والتراجم والسير والتاريخ أنّه لم يكن يولد في إيران إلاّ عملاق ، لماذا أصيب هذا القطر الخصيب بضعف الإنتاج في العهد الأخير ، وهبوط المستوى في القرائح والمواهب البشريّة والعلوم الأدبيّة والإسلاميّة ، فيمرّ بنا قرن بعد قرن ، وينصرم جيل إثر جيل ، ولا نسمع بعالم ، أو أديب ، أو شاعر ، أو مؤلف ، أو محقّق ، أو « فارس » أو قائد يسترعي انتباه العالم ، ويشغل سمع الزمان وبصره ، نلاحظ هذه الظاهرة بعد القرن العاشر الهجري ، حتى فاضت بذلك قريحة الشاعر العظيم الدكتور محمّد إقبال ، الذي آثر اللغة الفارسيّة لشعره ورسالته ، وكان من كبار المعترفين بفضل إيران فقال بيته السائد :

« إنه لم ينهض من ربوع إيران ، وأرضها الخصبة رجل في

منزلة جلال الدين الرومي منذ زمن طويل ، مع أنّ التربة هي التربة وتبريز[1] هي تبريز » ؟

عرضنا هذا السؤال على بعض العلماء والمفكرين في إيران الشقيقة ، وبحثنا هذا الموضوع معهم ، ولم نقتنع بجواب ، ولا يزال هذا الخاطر يشغل عقولنا ، ونتساءل : هل السبب في ذلك هو انقطاع حركة التصوّف التي كان لها فضل في تفجير المنابع الروحيّة وتحريك أوتار القلب ، والتمرّد على المادّة ، وفي علو الهمّة وسموّ الفكر ؟ أم كان السبب استقرار الأوضاع ، وانتشار الرخاء ، وسهولة الحياة التي تسبّب الهدوء والرخاوة ؟ أو السبب الإقتصار على اتجاه خاصّ في العلم والدين منذ زمن بعيد والتنكر لكل ما يخالفه من آراء ومذاهب ، أم له سبب آخر أدق وأعمق ؟

إنّه سؤال في صميم فلسفة التاريخ ، ونهضة الأمم وتطوّرها ، لا يزال يطلب الجواب الشافي ، والفحص العلمي ، والغوص في الحقيقة ، وعلى إيران التي بهرت العالم القديم بذكائها وأصالتها العلميّة ، وعبقريتها الأدبيّة أن تولي هذا الجانب اهتمامها ، وأن يعيد التاريخ فيها نفسه ، وسيكون ذلك في صالح البلد العظيم ، وفي صالح العالم الإسلاميّ والعالم البشريّ .

والله المؤفق للسّداد وهو الهادي إلى سبيل الرشاد .

---

١) مدينة في إيران ، ينسب إليها شمس تبريز الذي يرجع إليه الفضل في تفتيق قريحة جلال الدين الرومي ، وإشعال مواهبه الروحيّة والوجدانيّة .

فضل الإسلام ونبيّه في إبراز إيران الإسلاميّة العظيمة

حديثي في حفلة التكريم في تهران[1]

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام علىٰ سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، سيّدنا محمّد وآله وأصحابه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين .

صاحب السماحة الأستاذ الأكبر وحضرات أصحاب الفضيلة والسّيادة ، يقول الله تبارك وتعالى :

« وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »

(آل عمران الآية ١٠٣)

إنّ زميلي الفاضل الأستاذ أحمد محمّد جمال تناول الجزء الأوّل من هذه الآية الكريمة وهو قول الله تعالى : « وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تُفَرَّقُواْ – إلى قوله فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً » بحديث ، وإنيّ أتناول الجزء الثاني منها ، وهو قوله تعالى : « وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ ٱلنَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا – بالحديث عنه ولفت النظر إليه والتأمل فيه .

---

١) القيت هذه الكلمة في منزل العلامة المرزا محمد خليل الكمرهئى في حفلة تكريم عقدها فضيلته كما مرَّ ،

سادتي وإخواني :

يجب أن تكون هذه الآية دائماً نصب أعيننا ومنقوشة على ألواح قلوبنا ، فتلك هي النعمة الجليلة التي منّ الله بها على هذه الأمّة ولستم أنتم يا إخوتي يا أهل إيران تنفردون بهذه النعمة والكرامة بل نحن الهنود أبناء شبه القارة الهندية بل جميع المسلمين في أرض الله الواسعة بل أهل الجزيرة العربيّة التي انبثق منها هذا النور ، وعمّ البر والرفد يشاركونكم في هذه النعمة الجليلة فكنا جميعاً في جاهلية جهلاء لا نعرف الله ولا نعرف النبّوة ولا نعرف الحشر والنشر ولا نعرف القيم الخلقية والمفاهيم الدينيّة الصحيحة ، نتسكّع في الجهالات والخرافات ونرزح تحت أثقال حكومات مستبدة جائرة وسخرة ظالمة واستعباد شنيع وإهدار كرامة الإنسانية ودوسها بالأقدام وقد كان السلاطين والملوك في جانب والعلماء و« رجال الدين » المحتكرون للعلم والدين في جانب آخر – آلهة تعبد وأرباباً تطاع طاعة مطلقة عمياء ، كما قال تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلاّ ليعبدوا إلهاً واحداً » (سورة البراءة الآية ٣١) وجاء الإسلام وأشرقت شمسه على أرض الله كلها شرقيها وغربيها ، وشماليها وجنوبيها وعربيها وعجميّها فعمت نعمة الإسلام البشريّة كلّها ، وكان كغيث لا يميّز بين أسود وأحمر وفقير وغنّى وكانت سحابة انتظمت منها الديار والبلاد والوهاد والأنجاد .

وكان جديراً بأن يخاطب بقول الشاعر :

فاذهب كما ذهبت غوادي مزنة أثنى عليها السهل والأوعار..

وأبلغ منه ما قاله شاعر فارسيّ :

يرتو مهر بويران وآباد يكيست حسن جوى تيغ كشد بنده وآزاد يكيست

وليست هناك نعمة أجلّ من هذه النعمة حتى الحياة نفسها التي هي مصدر كلّ لذّة وسرور فلولا نعمة الإسلام ونعمة التوحيد الخالص والإيمان بالله والرسول واليوم الآخر لكانت الحياة عذاباً وشقاءً وسلسة من محن وخطوب ولم تكن إلاّ قنطرة إلى جهنّم .

لقد أنعم الله علينا بنعمة الإسلام وله الحمد والمنّة ولا شكّ أن الفضل الأكبر في الوصول إلى هذه النعْمة يرجع بعد الله تعالى إلى سيدنا محمّد بن عبدالله بن المطلب الهاشميّ القرشي العربي صلوات الله وسلامه عليه وبعثته ورسالته ودعوته وجهاده — لقد قال شاعركم العظيم فريد الدين عطّار .

حمد بي حد مرخدأي باك را

آنكه إيمان داد مشت خاك را

وقد تناوله شاعرنا محمّد إقبال الذي تغنّيتم بنشيده في هذه الحفلة بتغيير يسير فقال :

شكربى حد مربنيّ ياك را ،

آنكه إيمان داد مشت خاك را

ولم يبالغ ولم يجانب الصواب فلولا محمد عليه ألف سلام من

أعماق القلوب ولولا أصحابه وأهل بيته ولولا الدعاة الأوّلون إلى دينه والمجاهدون في سبيله لما كانت إيران الإسلاميّة والهند الإسلاميّة الأخرى حتى الجزيرة العربيّة التي ندين بحبها ونولّي وجوهنا شطرها ، ولما كانت بيننا وبينكم أيّ صلة ونحن في أقصى الشرق وأنتم هنا في إيران – وهو الّذي جمع الله به شمل الشعوب والأمم والأقاليم والبلاد ، فتعارفت القلوب وتلاقت الأفكار وتلقّحت العلوم والمعارف ، فكان معين من العلم يجرى في الهند ومعين من العلم يجرى في إيران بينهما برزخ لا يبغيان – وكانت عيون من العلوم والآداب تجرى في مجراها الضيق منذ آلاف من السنين ، وجاء الإسلام فوصل بين هذه العيون المتفجّرة المتفرّقة ، فجعلها معيناً واحداً ، وحوّلها إلى غاية سامية مشتركة ، وجعلها كلّها في صالح الإنسانيّة .

والتقى الفكر الهندي بالفكر الإيرانيّ والتقى الفكر العربيّ بالفكر العجميّ ، فكان تلقيحاً لا يوجد له نظير في تاريخ الحضارات والثقافات ، ولم يشاهد تلقيح أفضل من هذا التلقيح ولا أعود منه على الإنسانية بالخير والبركة ، والتقى تذوق الإيرانيين بالجمال ورقّة شعورهم وخصوبة خيالهم بالعقيدة الإسلاميّة والإيمان الجديد وبسلامة طباع العرب وقوّة إرادتهم وحبهم للواقع ، فظهر من من ذلك مزيج لم يعرف العالم أفضل منه ،وهبّت إيران بعد رقدة طويلة واشتعلت مواهبها وتفتّحت قرائحها ، فكأنّما هي أرض خلقت لتنجب نوابغ وعباقرة وكأنّما عجنت طينتها بالعلم والأدب ، وسرى ذوق الجمال في هوائها ومائها ، وكأنّما هي أرض لا يولد فيها إلاّ عالمٌ أو أديب أو شاعر أو فنان ، أو روحانيّ أو صوفيّ ،

أو مربّ أو مدرّس أو كاتب أو مؤلف ، وإذا ذهب أحد يعد أولئك النوابغ الذين كانوا في الطبقة الأولى ، وفي القمّة من العلم والفقه والحديث والشعر والأدب والتأليف والتدريس عجز عن عدّهم واعترف بقصوره ولا تزال كتب التراجم والسير والتاريخ مشحونة بأسمائهم مملوءة بذكر مآثرهم وأحبارهم .

وقد تطفلت بلاد كثيرة مثل بلادنا الهنديّة على مائدة إيران العلميّة والأدبيّة تغترف من بحار فضلهم وتتغنى بشعرهم وأدبهم وتتتلمّذ عليهم في العلوم الإسلاميّة والأدبيّة وتفتخر بتقليدهم ومحاكاتهم وتتظرف بذلك وتتنبّل .

ولكن هؤلاء النوابغ والعبقريين وأئمّة العلم والدين المبرزين في الفنون الأدبيّة والكمالات البشريّة كلهم غرس الإسلام وزرع الدعوة الإسلاميّة وصنائع الدّين الجديد الذي جاء به محمّد ﷺ .

أيهـا السـادة !

إنّني سعيد بهذا اللقاء الكريم والاحتفاء العظيم في ظلال الإسلام ورحاب الأخوّة الإسلاميّة التي نجتمع عليها ونتفيّأ بظلّها وإنّني أؤكّد لكم أن المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها تصبو نفوسهم وتهفو قلوبهم نحو هذه الأخوّة العالميّة التي تنبع من الإسلام وتقوم عليه ولكن لا تنسوا أنّ مصدر كل سعادة في الدنيا والآخرة هو الإسلام فقط ومحمّد ﷺ الذي هدانا الله به بعد الضلال وأعزّنا به بعد الذل وأغنانا به بعد الفقر وعلمنا به بعد الجهل ووحّدنا به بعد الفرقة فلا حضارة إلاّ حضارة الإسلام ولا تاريخ لنا إلاّ

تاريخ الإسلام ولا مجد لنا إلاّ مجد الإسلام ، وكلّنا نعيش على فتات مائدة محمّد ﷺ ، فنبّوته هي فاتحة عهد جديد وكلّ من نال ذرّة من السعادة والخير من أفراد بني آدم ولو كان في درجة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إنّما نالها عن طريق سيدنا محمّد بن عبدالله ﷺ فلولاه هو لما كان لأحد فضل في دين او نصيب من إيمان ويقين ولما كانت لأحد مواقف ومآثر بها يشيد التاريخ ، ويعتزّ بها المسلمون ، وكل من ينالُ اليوم ذرّة من هذه السعادة لا ينالها إلاّ عن طريق محمّد ﷺ .

السبل كلها منقطعة والطرق كلها مسدودة والنوافذ كلها مغلقة ، أيها السادة ، إلا طريق الإسلام ، والنافذة التي فتحها الله عن طريق محمّد ﷺ « إنّ الدين عند الله الإسلام ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين[1] » والحمد لله إننا جميعاً نردّ الفضل في العرب والعجم إلى سيدنا رسول الله ﷺ ونرجع بنسبنا العلمي ونسبنا العقلي ونسبنا الحضاري ونسبنا العقائدي إلى سيّدنا محمّد ﷺ . وكل من عداه فهو قبس من نوره وخريّج من خريجي مدرسته لا غير ، ولا تزال الأمّة بخير ما دامت مؤمنة بهذه الحقيقة متمسّكة بهذا المبدأ .

وإنني أشكركم على هذه الحفاوة وحسن الوفادة وإكرام الضيف ، ونسأل الله أن يتمّ علينا نعمة الإيمان ويحفظها ، وأن

---

١) سورة آل عمران الآية ٨٥

يختم لنا بالحسنى ، ويكتبنا من الذين تبيضّ وجوههم يوم القيامة فهو يقول : « يوم تبيضّ وجوه وتسوّد وجوه ، فأمّا الذين اسودّت وجوهم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ، وأمّا الذين ابيضّت وجوههم ففي رحمة الله ، هم فيها خالدون[1] .

١) سورة آل عمران الآيه ١٠٦-١٠٧

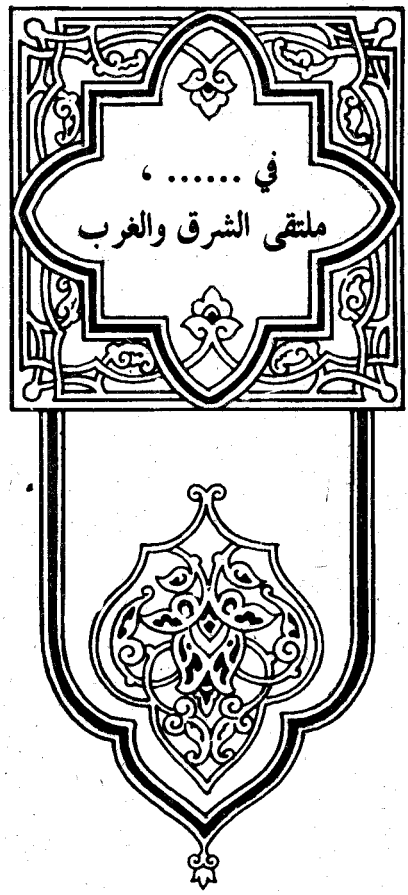
في .....
ملتقى الشرق والغرب

على آثار دعاة الإسلام :

قضينا فترة شهر ، وأسبوع في الحجاز - بعد ما رجعنا من جولة في ربوع أفغانستان وإيران - قضيناها في ظلال الكعبة ، ورحاب المسجد النبوي ، فكانت هذه الأيام التي عشناها بين مكّة والمدينة شحنة جديدة من ثقة جديدة بصلاحية الإسلام لتوحيد الشعوب ، وتأليف القلوب ، وحلّ المشكلات ، وقيادة ركب الحياة ، فكان زاداً جديداً لسفر جديد نستأنفه من مهد الإسلام ، ومركز الدعوة الإسلاميّة إلى الأقطار التي كانت في مقدمة البلاد التي أشرقت بنور الإسلام ، واحتضنت الدعوة الإسلاميّة في عهد الخلفاء الراشدين ثم تناوبت الخلافة فظلت محتفظةً بها إلى أوائل القرن السابع الهجري ، ومنها اتجه المدّ الإسلامي إلى جبال الأطلس ، والجزيرة الخضراء في الشمال والغرب ، وجبال « هندوكش » ووادي نهر السند في الشرق والجنوب ، وفيها نشأت واختمرت العلوم الإسلاميّة ، وانتشرت في العالم ، وهي بلاد الشام - بما فيها سوريا الحالية ، وفلسطين ، ولبنان ، وشرق الأردن - وبلاد الرافدين العراق ، وكان خطّاً طبيعيّاً سلكه دعاة الإسلام حين خرجوا من الجزيرة .

وها نحن أولاء نقتفي آثارهم ، ونمشي على هداهم ، ولولاهم ولولا جهادهم ، ولولا إيمانهم ، وإخلاصهم ، وصدقهم ، وقوة نفسهم ، وعلوّ همّتهم ، لما انتشر في هذه المنطقة هذا الدين الذي نلتقي على صعيده ، ونناشد به ، ولما كانت هذه الأخوة الإسلاميّة التي نتفيّأ بظلالها ، وننزل في رحابها ، ولما كانت هذه اللغة العربيّة القرآنيّة التي يتفاهم بها أبناء العجم مع أبناء العرب ، ويفضّلونها على لغاتهم الوطنيّة ، ولما كان لهذه الأقطار دور بنّاء رائع في تاريخ المدنيّة والعلوم ، والفكر الإنساني ، لا يكمل تاريخ الإنسانيّة بغير الحديث عنه ، ولما كانت دمشق ولا بغداد ، وما كان الوليد ولا هارون الرشيد ، ولما كان أبو تمام ولا البحتري ، ولا المتنبئ ولا المعريّ ، ولا سيبويه ولا الكسائي ، ولا الكوفة ولا البصرة ، ولا الرصافة ولا الكرخ ، ولا أبو حنيفة ولا الأوزاعي[1] ، ولا أبو زيد البسطامي[2] ، ولا عبد القادر الكيلاني[3] ، ولا المستنصريّة ولا النوريّة[4] ، فجزاهم الله عن الإسلام ، كما جزاهم عن العراق والشام ، وجزاهم الله عن الدين والعقيدة ، كما جزاهم عن الإنسانيّة والمدنيّة ، وعن العلوم والآداب .

---

١) الامام ابو حنيفة مدفون في بغداد والامام الاوزاعي مدفون في بيروت .

٢) مات ودفن بدمشق

٣) قضى حياته في بغداد ودفن فيها .

٤) مدرستان عظيمتان ، قامت الأولى في بغداد ، والأخرى في دمشق .

تركيب الوفد الجديد :

كان الوفد مؤلّفاً من العضوين السابقين ، كاتب هذه السطور وسعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال ، وهو الوفد الذي زار أفغانستان وإيران ، وكان من المفروض أن يزور لبنان ، وشرق الأردن ، وسوريا ، والعراق ، وكان الدكتور عبد الله عبّاس الندوي سكرتير الوفد ، إلاّ أنّه اضطرّ إلى البقاء في مكّة لبعض الأسباب القاهرة ، فاختارت الأمانة العامّة للرابطة الأستاذ عبد الله باهبري سكرتير المنظمات الإسلاميّة في الرّابطة ، سكرتيراً للوفد الذي سيزور هذه الأقطار العربيّة ، وهو شابّ مثقّف أديب ، خفيف الروح والظل ، وقد عاد حديثاً من جولته في المغرب العربي مع فضيلة الشيخ حسنين محمّد مخلوف مفتي الديار المصريّة سابقاً ، وفضيلة الشيخ محمّد محمود الصوّاف ، وفضيلة الشيخ عبد الله الأنصاريّ عضوي الرابطة ، وكانت له جولة أخرى في إمارات الخليج العربي ، ولكن كل ذلك لم يمنعه من زمالة هذا الوفد واستئناف سفر جديد ، إيثاراً للعمل على الراحة ، وكان موضع الإعجاب والثقة من الوفد ، واضطلع بأعباء مهمات الوفد بقوّة ونشاط .

وقد تكرمت الرابطة بإضافة زميل جديد ، ومساعد شخصي لي – نظراً إلى ضعف صحتي وحاجتي إلى من يكون بجانبي في هذه الرحلة الطويلة – وهو ابن اختي العزيز الأستاذ محمّد الرابع الحسني الندوي ، أستاذ الأدب العربي في دار العلوم لندوة العلماء – لكهنوء الهند – ومنشئ صحيفة « الرائد » العربيّة ، وقد وقعت الحاجة

إليه بعدما تأخرّ الدكتور عبد الله عبّاس الندوي في مكّة ، وقد تأخرّ وصوله من الهند إلى السعوديّة لمشاكل السّفر التي يواجهها كل إنسان في هذا العصر ، رغم ما يزعمه المعجبون بهذه المدنيّة من تيسير السفر في هذا العصر ، فكان من أسباب تأخرّ هذه الرحلة ، حتى لم نتمكن منها إلاّ في آخر شهر جمادى الآخرة .

في بيروت :

ركبنا الطائرة السعوديّة يوم الأحد سلخ جمادى الآخرة ١٣٩٣ هـ (٢٩/ من يوليه سنة ١٩٧٣ م) في الساعة الرابعة عصراً ، وكان في توديعنا الأستاذ محمّد صفوت السقا الآميني المدير العام المساعد لشئون المجلس التأسيسي والمؤتمرات والأستاذ محمّد الغاني رئيس مكتب الرابطة في جدّة ، والدكتور عبد الله عبّاس ، وأعضاء بيت نورولي في جدّه ، وغيرهم من الإخوان والأصدقاء ، ووصلنا إلى بيروت قبل الغروب بساعتين .

استقبلنا في المطار السيد حسين القوتلي مدير عام الإفتاء ، وفضيلة مفتي جبل لبنان ، فضيلة الشيخ محمّد علي جوزو نيابة عن سماحة مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة الشيخ حسن خالد ، وكان معهما القائم بالأعمال السعوديّ عبد المحسن السمّان ، ومندوب من وزارة الخارجيّة اللبنانيّة ، وفضيلة الشيخ سعدي ياسين عضو رابطة العالم الإسلامي من لبنان ، كما حضر في المطار الأستاذ عبد الحكيم

عابدين المحامي[1]

علمنا في المطار أنّ سماحة مفتي الجمهوريّة الشيخ حسن خالد سبق فحجز لنا غرفاً في أحد الفنادق الكبيرة في الجبل ، وفي أحد الفنادق في مدينة بيروت ، حتى يكون لنا الخيار في النزول ، وفضلنا الجبل نظراً إلى طقس البلد ومن هنا علمنا أننا ضيوف سماحة المفتي ، فشكرناه على ذلك وتوجّهنا إلى بحمدون حيث نزلنا في فندق شبرد .

جولة في المؤسّسات الإسلاميّة ومناطق بيروت :

في اليوم التالي يوم الإثنين غرّة رجب ١٣٩٣ هـ (٣٠ يوليه ١٩٧٣ م) اجتمعنا بسماحة مفتي الجمهوريّة الشيخ حسن خالد في مكتبه بحضور مدير عام الإفتاء ، وتحدّث سماحته مع الوفد زهاء ساعة ونصف ساعة حديثاً صريحاً واضحاً عن أحوال الشعب المسلم في لبنان ، وحاجة المؤسّسات الإسلاميّة إلى الدعم الأدبي والماديّ ، وعن الأخطار المحدقة بالشعب ، ثمّ رافق سماحته الوفد إلى أزهر لبنان ، في زيارة تفقديّة ، وطاف الوفد في أنحاء المعهد ، وفي مكتبته ، وكانت الأيام أيّام إجازة صيفيّة ، وكان في قاعة المكتبة عدد من القراء والباحثين ، منصرفين إلى دراساتهم وبحوثهم ،

---

١) الاستاذ عبد الحكيم عابدين معروف في وسط « الإخوان المسلمون » .

وكان مع الوفد في هذه الزيارة مدير أزهر لبنان الشيخ خليل الميس ، ثمّ انتقل الوفد إلى دار الأيتام الإسلاميّة في بيروت حيث استقبله مديرها الأستاذ محمّد بركات ، وتجوّلَ مع الوفد في أنحاء الدار ، وشرح نشاطها ، وطبيعة مهمّتها ، وكان كل شيء يدلّ على زيادة الاهتمام بالنظافة والأناقة ، ورعاية اليتيم المسلم الكريم ، ورفع معنوياته .

وقد مررنا بمناطق البلد المختلفة المتناقضة أحياناً في المستوى الديني ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، ومررنا في طريقنا إلى البحر ، وإلى الإمام الأوزاعي بالمناطق التي كانت مركزاً للفدائيين ووقعت فيها المعركة الحامية بين الجيش اللبناني والفدائيين وكيف اشتغلت العواطف الدينيّة المختلفة ، والأغراض السياسيّة في هذه المعركة ، وما كان لها من أثر في حياة البلد وفي علاقات العناصر المختلفة ، بعضها ببعض ، ورأينا ما تركته الرصاصات والقنابل من آثار في البنايات ، وفي قلوب سكّان هذا البلد وما تكتنفه قضية اللاجئين ، ومسألة فلسطين من تعقد وغموض ، وتناقض وتردد ، لا يوجد نظيره في قضايا العالم المعاصر الأخرى .

مررنا بالمنطقة التي يسكنها اللاجئون الفلسطنيون وما تتّسم به هذه المنطقة ، من تخلف ، وفقر ، وعدم نظافة ، وعدم ثقة بالمستقبل ، وتذمر من الأوضاع القائمة ، وكله نذير خطر ليس في هذا البلد فحسب ، بل في العالم العربي كله ، وهو وضع غير صالح للبقاء والاستمرار ، مهما طالت مدّته ، وأرخي الستار عليه ، هذا والبلد يرفل في حلل من رغد العيش وفائض من الأموال

والخيرات ، ويتقلب في أعطاف الحياة الرخيّة والعيش الهنيء .

نظرة إلى بيروت :

وقبل أن نتوجّه إلى طرابلس وصيدا ، نلقي نظرة إجماليّة على بيروت ، منتزه أبناء الشرق العربي ، ومصيفهم ، والبلد المحبّب إليهم ، ومصبّ أموالهم وخيراتهم ، ومنتجع روّاد المتعة والتسليّة ، وينطبق عليه ما قاله الشاعر العربي الكبير أبو تمام حبيب بن أوس الطائي عن الربيع :

دنيا معاش للفتى حتى إذا حلّ الربيع فإنّما هي منظر

فبيروت مركز تجاري كبير ، ولكنه منظر ، ومنتزه في أيام الصّيف ، وإذا أراد إنسان أن يشاهد ما فعلته الحضارة الغربيّة ، والفلسفة الماديّة بطبائع العرب ، وإلى أي مدى آمنوا بوجوب التمتع بالحياة ، والتحرر من الحدود والقيود ، سواء فرضتها الأديان والشرائع أو الأعراف والتقاليد ، وما هو مستوى الثراء والتضخم المالي في العواصم العربيّة ، وإلى أي مدى وصلت الحريّة في المجتمعات العربيّة الإسلاميّة ، فعليه بزيارة هذا البلد وقضاء بعض الوقت في مصائف لبنان ، وقد قدّر الله أن تأتي زيارتنا لهذا البلد في أشد أيام الصيف ، وفي أوج حركة الاصطياف وزهو المدينة ، وقد سبقت لنا عدة زيارات لهذا البلد في الصيف وفي الشتاء ، ولكنّها كانت أيّاماً موجهة إلى غاية مخصوصة ومحصورة بين المكتبات ، ودور النشر ، وزيارة بعض المؤسّسات الإسلاميّة ، وقد مكنتنا

هذه الزيارة الأخيرة من دراسة هذا البلد وأوضاعه ، وطبيعته ما لم تمكنه الزيارات السابقة .

وقد أحسن الأديب اللبناني المشهور أمين الريحاني في وصف بيروت ، في مقالٍ له :

« بيروت حسنة من حسنات التمدن ، وآفة من آفاته ، بيروت لؤلؤة شرقيّة في صيغة من النحاس غربيّة ، هي خلخال في رجل سلطانة المشرق عند الصّباح ، وسوار في معصم ربّة المغرب عند الغروب ، هي درّة في أوحال تئنّ فوقها الكهرباء ، هي مرجانة على ساحل اختلط تبره برماله ولجينه بأوحاله .

بيروت احدى وصيفات باريس ، هي قمر ينعكس فيه نور المغرب فيضيء المشرق ، وتنعكس فيه أيضاً ظلمة الغرب ، فتزيد الشرق ظلاماً ، بيروت منبت العلوم ومغرس الخرافات[1] »

ولا يغربن عن البال أن هذا المقال قد كتب قبل ٦٢ سنةً يوم كانت الشام كلها في حكم الدولة العثمانيّة ، ومعلوم أن لبنان وعاصمته بيروت بقيت في حكم فرنسا نحو ربع قرن ، وفرنسا من أرقى الدول الأوربيّة في الحضارة والآداب الغربيّة ، والمجتمع الفرنسي من أكثر المجتمعات الأوربيّة رقة وتطرّفاً ، وغراماً بالحريّة والانطلاق في كل شيء ، ثمّ جاء دور الاستقلال ، فزاد

---

١) من مقال لأمين الريحاني في مجلة « المراقب » العدد ٧٢ ، السنة الثانية ايار سنة ١٩١٠ م جمادى الأولى سنة ١٣٢٨ هـ .

الطين بلة ، وكل هذه العوامل قد ساعدت على أن تحتل بيروت مكان الزعامة أو الصدارة في تقليد الحضارة الغربيّة والسير في ركابها .

وقويت عناية أمريكا واهتمامها – لأغراض سياسيّة واقتصاديّة – ببسط نفوذها في هذا البلد الذي هو باب الشرق والمنفذ الطبيعي للعالم العربي ، والبلد العربي الوحيد الذي يغلب عليه الطابع المسيحي ، فأسّست فيه المؤسّسات العظيمة وأُنشئت فيه المشاريع الضخمة ، ولا تزال الجامعة الأمريكيّة البيروتيّة كبرى الجامعات في الشرق العربي ، ولعبت دوراً خطيراً في التأثير في الفكر العربي ، والآداب العربيّة ، وكان لأساتذتها ومتخرجيها نفوذ كبير في المجتمع العربي العلميّ .

بيروت أكبر بلد سياحي في الشرق العربي ، والسياحة أكبر مواردها ، وأكثر ما تعتمد عليه في اقتصادها ، والمدن السياحيّة لها طبيعة خاصّة ، يرخى فيها العنان للمتعة والتسلية ، ويتساهل كثيراً مع ما تعتبره مجتمعات كثيرة مناقضاً للفضيلة والمروءة ، فأصبحت مصائف لبنان أيام القيظ والحرّ اللافح في العواصم العربيّة ، تسبح في بحر من الخيال والجمال ، ورخاء البال وتدفق الأموال .

وأصيب عدد من الأقطار العربيّة بثورات عسكريّة وإنقلابات سياسيّة ، وضاقت أرضها على كثير من القادة والزعماء وأصحاب الفكرة والصّلاحيّة ، فغادروا البلاد ولجأوا إلى لبنان فآوتهم ،

فهي « سويسرا » العالم العربي ، يكثر فيها عدد اللاجئين السياسيين ، وهم يتمتّعون فيها بحريّة النقد ، والتأليف ، والنشر وبث الفكرة ، حريّة لا يجدونها في كثير من البلاد العربيّة ، وفي البلاد التي ولدوا ونشأوا فيها .

ونقلوا إليها رؤوس أموالهم ، واستثمروها في بيروت ، وكان مجال النشر والطباعة ، أصلح مجال لهم بحكم ثقافتهم ، وإقبال الشباب العرب على القراءة واقتناء الكتب ، فثمّروا أموالهم فيه ، وكان في بيروت أضخم مطابع عربيّة في الشرق ، وقد استفادت من انتقال هذه العقول ، والأيدي العاملة ، والأموال الطائلة ، فقويت حركة النشر والتأليف ، والطباعة والإخراج ، وازداد عدد المكتبات ازدياداً هائلاً ، وأمّها المؤلفون من كل ناحية ، خصوصاً بعد ما ضعفت حركة النشر والتأليف في القاهرة ، وحدّ من حريتها في الفترة الأخيرة ، فأصبحت بيروت أكبر مركز لحركة التأليف والنشر ، وإخراج الكتاب العربي والإسلاميّ .

هذه نظرة إجماليّة على بيروت ، وسنلقي نظرة إجماليّة على القطر اللبنانى بعدما ننتهي من زيارة طرابلس وصيدا .

في طرابلس :

توجهنا يوم الثلاثاء ٢/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣١/ يوليه ١٩٧٣ م) إلى طرابلس البلد الإسلاميّ الجميل ، وهي تبعد من بيروت ٨٣ (ك م) وقد سبقت لكاتب هذه السّطور زيارة قصيرة لها في شعبان ١٣٧٥ هـ (أبريل ١٩٥٦ م) وأعجب بهذا البلد ، وتمنّى

العودة إليه وقضاء بعض الوقت فيه ، ولم يكتب له ذلك إلاّ بعد سبع عشرة سنة ، توجهنا إلى طرابلس ، ومعنا الأستاذ حسين القوّتلي صباح يوم الثلاثاء ، نسير على ساحل البحر ، وهو من أجمل الطرق التي رأيناها في الشرق ، يسايرنا البحر الأبيض المتوسّط ، ولا يفارقنا إلاّ قليلاً ، نمرّ بقرى ومدن جميلة نظيفة ، وتواجهنا مناظر طبيعيّة حلوة .

وصلنا إلى طرابلس ، فاستقبلنا عدد من العلماء ، والمشتغلون في القضاء الشرعيّ ، والإفتاء ، وبدأنا بزيارة مديريّة الأوقاف ، وزرنا المسجد الكبير الذي لا يزال في دور البناء والتكميل ، ثمّ زرنا دار الأيتام الإسلاميّة ، وزرنا المستشفى الإسلاميّ ، وطاف بنا الشيخ عدنان الجسر رئيس مجلس إدارة المستشفى في البناية الكبيرة ، المؤثثة المنظمة تنظيماً عصرياً ، ولفت الوفد نظر رئيس مجلس الإدارة إلى ضرورة تقيّد الممرّضات بالزيّ الإسلاميّ ، والآداب الإسلاميّة ، حتى يكون ذلك شعاراً للمستشفيات الإسلاميّة وميزة لها ، وقد تجلّى في جميع هذه المؤسّسات الذوق الرفيع ، والأناقة التي اشتهرت بها طرابلس ، والقدرة على التنظيم .

وزرنا مدرسة الإيمان النموذجيّة ، وفوجئنا فيها بلقاء الشيخ صبغة الله المجددي الذي قابلناه في كابل وقد حضر المؤتمر الثقافي الليبي وكان عائداً إلى كابل ، ففوجئ بنبأ الانقلاب على مطار بيروت ، فألغى السفر ، وقرّر البقاء في لبنان حتى يتّضح الأمر .

ثمّ قام الوفد بزيارة عالم طرابلس الكبير ، وابن عالمها الأكبر

فضيلة الشيخ نديم الجسر ، وقد كنت قرأت له كتاب « قصّة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن » وهو من أعمق الكتب التي قرأتها ، وأغزرها مادة في السنين القريبة ، وقد عرفنا نحن أبناء شبه القارة الهنديّة علاّمة الشام الشيخ حسين الجسر الطرابلسي بكتابه « الرسالة الحميديّة » الّذي سارت بذكره الركبان في فجر هذا القرن الهجريّ ، وقد أعجب به علماء الهند واعتبروه دفاعاً علمياً قويّاً عن العقيدة الإسلاميّة والدين ، والشيخ نديم الجسر ، هو إبنه ووارث علمه ، ومفتي طرابلس . وتوجهنا إلى « سير » وهو مصيف جميل ، ومحلّ لطيف في ضواحي طرابلس ، يرتفع عن سطح البحر ٩٠٠ متر .

جلسنا مع الشيخ جلسة لطيفة تجاذبنا فيها أطراف الحديث ، وكان حديث الشيخ يدور حول تمثيل سيرة نبويّة الذي وافقت عليه بعض الدول العربيّة ، وكان شديد التخوف من هذه البدعة ، لأنّه يعتقد أن بعض كتب السيرة والتفسير التي ليست في المنزلة العاليّة من الأستاذ والتحقيق ، والأحاديث الضعيفة مرتع خصب لأغراض المستشرقين والمعاندين على الإسلام يستغلونها لتشويه جمال السيرة ، وعرضها في أسلوب قصص غراميّة وأسلوب روائيّ مثير ، ولا يمكن الحدّ من ذلك والحظر عليه

حديثي في حفلة الغداء :

وتناولنا طعام الغداء في « سير » على مائدة مفتي الجمهوريّة بحضور نفر كبير من العلماء ، وألقيت كلمة الترحيب للوفد ،

وقام كاتب هذه السطور فشكره على هذه الضيافة الكريمة ، والحفاوة البليغة ، وقال : إنّ الشعب المسلم في لبنان يواجه وضعاً دقيقاً شاذاً ، فيه محنة لذكائه وقوة إرادته ، ومتانة عقيدته ، وإنّه خليق بأن يعتمد في ذلك على نصر الله ، ثمّ على فضل رسالته وقوّة إرادته ، ويحمد الله على أنّه رآه أهلاً لذلك ، واختاره لمواجهة هذه المشكلة ، والاضطلاع بهذه المسئوليّة ، إنّه موقف يدعو إلى الشكر والصبر ، لا الجزع والضجر ، وإنّ شعباً قد ظهرت كفائته وجدارته وإنتاجه في هذه المؤسّسات الإسلاميّة التي كان لنا شرف زيارتها ، والاطلاع عليها ، لا يضيعه الله ، فالله ينصر دائماً من يعمل ويسعى ، ويثبت صلاحيته للحياة ، ويشق طريقه ، بين المحن والخطوب .

لقاء وتعارف :

والتقى الوفد خلال زيارته لطرابلس بنفر من العلماء ، منهم الأستاذ فيصل مولوي ، والشيخ طه الصابونجي ، والشيخ رشيد الميقاتي ، والأستاذ محمّد علي ضنّاوي ، والشيخ ناصر الصّالح وتحدّث معهم في موضوعات إسلاميّة ، ومقاصد دينيّة ، وأوضاع البلد الاجتماعيّة والسياسيّة ، واستفاد بمعلوماتهم ، ووجهات نظرهم وعاد إلى بحمدون مسروراً بهذه الزيارة ، شاكراً فضل العلماء والسادة الذين احتفوا به ، وهيّئوا له فرص اللّقاء والتعارف والاطلاع والمعرفة .

في صيدا :

وصباح يوم الأربعاء ٣/ رجب ١٣٩٣ هـ (١/ آب – أغسطس

١٩٧٣ م) توجّه الوفد إلى « صيدا » ثالثة المدن اللبنانيّة ، ورافقه الشيخ خليل مدير أزهر لبنان ، وكان طريقاً جميلاً مرصوفاً وكان السفر مسلّياً ممتعاً ، نمرّ بالقرى والمدن اللبنانيّة ، الجميلة النظيفة حتى وصَلنا إلى « صيدا » ، وهي تبعد من بيروت ٤٣ (ك م)

وزار الوفد فور وصوله مديريّة أوقاف صيدا ، وجلس في مكتبها برهة من الزمان ، حيث حضر لفيف من العلماء ، والشخصيّات الدينيّة ، ثمّ خرج في معيّة مديرها الفاضل النشيط الشيخ سليم سوسان لزيارة مفتي « صيدا » الشيخ محمّد أنيس حمود وطاب الجلوس وطال في قاعة الاستقبال ، في منزله العامر ، وأخذ بأطراف الأحاديث ، وبحثنا في موضوع مشاكل المسلمين وقضاياهم الكبرى ، والوضع الشاذ المزري ، الذي يعيشون فيه والذي لم يسبق له مثيل في التاريخ ، وأبدى كل واحد وجهة نظره ، وجاء دور كاتب هذه السّطور ، فقال ما خلاصته :

مركز علماء الدين في الأمة ، ولماذا ضعف نفوذهم على العامة :

إنّ مجال الحديث واسع ، وإذا تناولنا العالم الإسلاميّ بجميع طبقاته وأوساطه ، وتحدّثنا عن تقصيرها في أداء واجبها ، ومسئوليتها ، لم نرجع بطائل ، ولم نصل إلى نتيجة ، فقد اتّسع الخرق على الراقع ، فلنحدد حديثنا في واجب العلماء ومسئوليتهم فذلك حديث مفيد وعمليّ ، وهذا مجلس خاصّ بالعلماء ، فأقول إنّ صلاح الأمّة بصلاح علمائها ، واستقامتها بقدر استقامتهم ، وانحرافها بقدر انحرافهم وعدم صمودهم ، وضعف مقاومتهم

للإغراءات الماديّة ، والتقدير الزائد للحياة ومتطلباتها ، وارتفاع مستوى المعيشة عندهم والخضوع لـ« الأمر الواقع » ، وقلة الزهد والقناعة ، والتقيد بالكماليّات ، ومظاهر البذخ والرفاهيّة ، وقد قال الشاعر قديماً ،

يا معشر القراء ، يا ملح البلد ما يصلح الملح ، إذا الملح فسد.

والإنسان مفطور على الهيام بالشيء الذي لا يجده عند نفسه ، ولا يتحلى به ، فكان المجتمع الإسلاميّ يجلّ العلماء الّذين كانوا على جانب عظيم من الزهد والقناعة ، وكبر النفس ، وغنى القلب ، وعلى شيء من التقشف والبساطة ، حتى كان السلاطين والأمراء يهابونهم ويحترمونهم ، ويرونهم فوق نفوسهم ، أمّا وقد أصبح العلماء في مستوى المتنافسين في ترفيه الحياة ، والحصول على الكماليات ، وأصبحوا لا فرق بينهم وبين أبناء بلدهم وأفراد جيلهم ، أصبح المجتمع ينظر إليهم كعامّة الناس ، وأصبح لا يخضع لما يصدر عنهم من وعظ أو توجيه ، أو نقد وحسبة ، ومن واجب الإصلاح والدعوة أن يعود العلماء إلى مكانتهم الأولى ، ويعود إليهم اعتبارهم وقيمتهم الدينيّة والاجتماعيّة ، وقد لاحظنا في تاريخ الإصلاح والتجديد ، أنّه إذا اشتدت الأزمة بالإسلام والمسلمين ، واستولى اليأس ، وكثر التشاؤم ، لمع عالم من علماء الإسلام ، وبرز في ميدان الإصلاح والكفاح ، وتحدّى الأمر الواقع فغيّر مجرى التاريخ والحوادث ، وحفظ على العقيدة سلامتها ، وعلى الشريعة الإسلاميّة كرامتها ، ونفخ في جسد الأمّة روحاً

جديدة ، وحياة جديدة ، وهذا مطّرد مستمرّ من عهد الإمام حسن البصريّ إلى الشيخ عبد القادر الكيلانيّ إلى الشيخ ابن تيمية الحرّاني ، إلى الشيخ أحمد السّرهندي المشهور بالإمام الرباني ، إلى العلماء الربّانيين ، الأئمّة المصلحين في هذا القرن ويجب أن يستمرّ هذا النشاط والإنتاج ، وهذا الكفاح والنضال إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ،

وقد سلّم أكثر الحاضرين والمستمعين لهذه الملاحظة ووقفوا عليها ، وأيّدوها .

جولة في « صيدا » :

وخرجنا لزيارة جمعيّة رعاية اليتيم ، وهي دار واسعة ذات شعب وقاعات ورحاب ، قد تأنق مؤسّسوها والقائمون عليها في بنائها ، وتزينها ، حتى أصبحت تنافس المؤسّسات الخيريّة الحديثة من الطراز الراقي العصريّ ، وقد بالغ القائمون عليها في « تحضير » هذه المؤسّسة ، ومسايريها للأساليب الحديثة ، فأدخلوا فيها بعض مظاهر لا توافق عليها الشريعة والآداب الإسلاميّة ، فنرى صورة في نشرتها ظهر فيها أبناؤها وبناتها في رقصة الدبكة ، وسررنا بتعليم الخياطة والأعمال اليدويّة للطالبات .

وتوجهنا إلى منزل صاحب الفضيلة الشيخ سليم جلال الدين قاضي الشرع بـ« صيدا » وهو واقع على ربوة جميلةٍ محاطة بالحدائق والمزارع ، والزهور والرياحين ، وأمامه وادٍ تقوم فيه الأشجار الباسقة ، وتملؤه الأزهار والأنوار ، وقد أعجبنا بجمال هذا الوادي ،

وبموقع هذه الربوة الطبيعي ، وطاب لنا الوقت فيها مع علماء أفاضل ، وإخوان كرام ، والتقى جمال الطبيعة بعذوبة الحديث ، وحلاوة الأخلاق وكرم النفس .

وزار الوفد القلعة الأثريّة البحريّة ، وتناول طعام الغداء في مطعم فاخر على ساحل البحر ، وعاد إلى بحمدون شاكراً مسروراً بزيارة هذه المدينة الإسلاميّة الجميلة .

في ضيافة سماحة المفتي أمين الحسيني :

وأقام مساء ذلك اليوم سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني رئيس مؤتمر العالم الإسلاميّ ، ورئيس الهيئة العربيّة العليا لفلسطين حفل استقبال تكريماً للوفد في منزله بمنصوريّة المتن ، حضره عدد من العلماء والفضلاء ، وأعيان البلد ، والمهتمين بالحركةِ الإسلاميّة .

في حفلة تكريم في دار الإفتاء :

أقام سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد حفل غداء تكريماً للوفد يوم الخميس في ٤ من رجب ١٣٩٣ هـ (٢ من آب ١٩٧٣ م) في دار الإفتاء ، حضرها دولة الرئيس الأستاذ تقيّ الدين الصلح رئيس وزراء لبنان ، ودولة الرئيس الأستاذ صائب سلام رئيس الوزراء الأسبق ، وعدد من الوزراء ، وأعضاء مجلس النواب ، وأعيان البلد ، وكبار العلماء ، والقضاة الشرعيين والأساتذة الكبار ، ورجال الفكر والثقافة في لبنان .

القى الدكتور صبحي الصالح الأستاذ بالجامعة اللبنانيّة وجامعة بيروت العربيّة كلمة تعريف ، نوّه فيها في تفصيل وتوسّع بمؤلفات كاتب هذه السطور ، وخاصّة كتابه « العرب والإسلام » ونوّه بحركة ندوة العلماء في الهند ، ثمّ ألقى كاتب هذه السطور كلمة شكر فيها السادة والإخوان الذين كان لهم فضل في تيسير مهمّة الوفد ، وطيب الإقامة في هذا البلد ، ثمّ نوّه بدقة موقف الشعب المسلم العربيّ اللبنانيّ ، ووضعه في هذا البلد العظيم العجيب ، وضخامة مسئوليته نحو الإسلام ، ونحو البلد الذي يعيش فيه ، والمشكلات التي يواجهها ، وهنا خلاصة هذا الحديث ، أملاها صاحبه اعتماداً على ذاكرته ، وعلى الخطوط العريضة التي قيّدت

حديثي في حفلة تكريم سماحة المفتي ، موقف الشعب المسلم في ملتقى الحضارات والمسرح العالميّ :

إنني أصالة عن نفسي ، ونيابة عن أعضاء وفد رابطةِ العالم الإسلاميّ ، وعن زميلي المحترم الكاتب الإسلاميّ الكبير سعادة الأستاذ أحمد محمّد جمال عضو مجلس الشورى في المملكة العربيّة السعوديّة ، والأستاذ في جامعة الملك عبد العزيز بجدّة ، وعضو الوفد أشكر سماحة المفتي الأكبر على ضيافته الكريمة ، وحفاوته البالغة التي لقيناها من سماحته مدة إقامتنا في لبنان وأشكره بصفة خاصّة على هذه الفرصة الطيبة التي أتاحها لنا للتعرف على هذه المجموعة الكريمة التي تمثل لبنان بمختلف طبقاته ، وثقافاته ، واتجاهاته ، والتحدث إلى هذه المجموعة ، فلو سعبنا إليها بأنفسنا

في هذا البلد الكبير لما تمكنا من لقائها والحديث إليها ، فله فضل كبير في تهيئة هذه الفرصة المباركة .

إنني أشعر كل الشعور بدقة موقفكم وضخامة مسئوليتكم أيها السادة الأجلاء ، فإنكم تعيشون في بلد هو ملتقى الثقافات والحضارات ، والآداب واللغات ، ومسئوليتكم عظيمة ، ومهمتكم دقيقة ، تطلب مقداراً كبيراً من الذكاء والألمعيّة وبعد النظر وعمى الفكر وحكمة الدعوة ، وقوة الإيمان بالدين الذي تمثلونه ، والرسالة التي تحملونها والصمود في وجه التيارات التي تغزو هذا البلد ، والعواصف التي تهب حولكم ، فأنتم تمثلون دور المسلم المثقف والمؤمن القويّ الحكيم على هذا المسرح العالميّ الذي تشخص إليه الأبصار وتشرئب إليه الأعناق ، وتصبو إليه النفوس ، فكل عملكم وكل تصرفكم ، والخطوة التي تخطونها والموقف الذي تتخذونه مسجل ومجسم ومحسوب على الإسلام وتعاليمه ومبادئه إنكم تستطيعون أيها السادة النبلاء أن تثبتوا صلاحيّة الإسلام ، لا أقول للبقاء ، فإني أربأ به عن أن يستجدي حق البقاء والصلاحيّة للحياة ، لا بل صلاحيته للقيادة وحل المشكلات التي تشغل فكر المصلحين والمشرعين ، وبذلك تسدون خدمة لدينكم ، لا يقدر عليها كل شعب ، وكل بلد في العالم العربيّ بل في العالم

سادتي ! لم أعرف في دراستي المحدودة لتاريخ المدنيّات والحضارات والمجتمعات الإنسانيّة حضارة ، إذا استثنينا الحضارة الإسلاميّة مع تفاوت الزمان والمكان ، والملابسات والأجواء ،

كانت أقوى وأوسع وأعظم سيطرة ونفوذاً من الحضارة الغربيّة ، فقد تغلغلت في أحشاء المجتمع البشريّ ، وسيطرت على مشاعره وتفكيره ، وغيّرت المفاهيم والقيم ، وأسلوب التفكير ووجهة النظر ، وما تركت بيت مدر ولا وبر ، ولا كوخ فقير وقصر غني ، إلاّ ودخلته ، ولهذه الحضارة الغربيّة وللحضارة الإسلاميّة التقاءات وانفصالات وموافقات ومفارقات بحكم أنهما حضارتان تتصلان بالإنسان ، والحياة الإنسانيّة ، وتبحثان عن قضاياهما وحاجاتهما ، فمسئوليتكم كقادة الفكر وفقهاء للإسلام ، وبفضل وجودكم في هذا البلد المتناقض أن ترسموا خطّاً دقيقاً واضحاً بين هاتين الحضارتين ، بين ما يجوز اقتباسه من الحضارة الغربيّة وبين ما لا يجوز ، بين السفور الوقح والتبرج الجاهليّ ، وبين ما أمر الله به المرأة المسلمة من التستّر والاحتشام ، وإبداء ما أحلّه من الزينة ، بين المتعة المباحة والتسلية البريئة ، وبين الوقوع في المشتبهات والتمتع النهم الذي لا حدّ له ، خطا يجمع بين الدقّة والوضوح ، خطّا لا يكون بمكان من الدقّة لا يرى ولا يظهر ، فإنّه لا فائدة في خطّ دقيق لا يكون واضحاً ظاهراً للأبصار ، ولا يكون من الوضوح بمكان يثقل ويمنع من ممارسة واجبات الحياة ، خطاً يقفْ عنده المسلم الذي يؤمن بدينه ويحترم شريعته ، ولا يريد أن يتخطّاها أو يثور عليها ، وهذا الخط غير موجود في أيّ بلد إسلاميّ ابتلى بالحضارة الغربيّة والتيارات العصريّة ، فأصبح الأمر فوضى ، وتخطّى المسلمون جميع الحدود في الإستفادة من هذه الحضارة وأساليبها ، ومرافقها وعلومها وأفكارها ، واستسلم

الشباب المثقفون ، بل وقادة الفكر وحملة العلم استسلاماً كليّاً « للأمر الواقع » لا يملكون من أمرهم شيئاً ، وأنتم على رسم هذا الخط الدقيق الواضح أقدر ، بفضل وجودكم في هذا البلد الذي قطع شوطاً واسعاً في الحضارة الغربيّة ، وبلغ شأواً بعيداً فيها ، وعندكم – وأنا أتحدّث بهذا الحديث إلى دار الإفتاء اللبنانيّة – العلم الواسع العميق بروح الإسلام وبالتشريع الإسلاميّ ، وإنّي أدعو لكم وأتمنى كل توفيق ونجاح ، فإنّ هذا العمل له آثاره الواسعة العميقة في حياتنا ، وفي مصير الشعوب الإسلاميّة .

ومسئوليتكم الثالثة كما أتصوّر أيها السادة العلماء أن تقدّموا لهذا المجتمع الذي تعيشون فيه ما يفقده ، وتملأوا ذلك الفراغ الذي وقع منذ مدة بعيدة ، إنّ هذا المجتمع قد اتخم بالعلم والثقافة ، والمدنيّة والحضارة ، والمظاهر والصور والرفاهيّة والبذخ ، والإنسان مفطور على احترام الشيء المفقود وإجلال من يحمله ويملكه كما قلت في حديثي في « صيدا » فهذا المجتمع الذي بلغ أوجه في العلم والمدنيّة ، وعنده نوع من أنواع الرقي ، لا يخضع لكثرة المعلومات وغزارة العلم وذلاقة اللسان وقوة الخطابة والإناقة في المظاهر ، انّما يخضع لما أفلس فيه ، وهو القناعة باليسير ، والزهد في الكماليات ، وفضول الحياة ، والمظاهر الجوفاء ، وللعزوف عن الشهوات ، والتغلب على نزوات النفس ، والابتعاد عن التهالك على المناصب والجاه الكاذب ، إنّ هذا المجتمع قد أصبح فقيراً في هذا المجال لا يكاد يصدّق أن في الدنيا من يستهين بهذه اللذة والعزة ويتمرّد على المادّة و« المثل العليا » التي يؤمن بها الناس جميعاً

ويعكفون عليها عبادةً وتقديساً ، إن الأزمة اليوم ليست أزمة عقل وعلم ، ولا مال ولا مادة ولا مدنيّة ولا حضارة ، إنما هي أزمة ضمير حيّ لا يشترى . ولا يقبل المساومة ، إنّما هي أزمة قلب فائض بالحياة والإيمان ، إنّ الضمائر اليوم – ولا أقصد بلداً ولا أحداً – أصبحت سلعة وبضاعة تشترى وتباع ، وتقوّم وتساوم ، وإنما القضيّة قضيّة الثمن الذي يدفع ، والسعر الذي تشترى به الضمائر والمبادئ ، فأصبح الزعماء والقادة يتهالكون على كراسي الحكم ، ومناصب الحكومة ، وقيادات الأحزاب ، مهما دفعوا في ذلك من الثمن ، إنّ هذه الأزمة – أزمة الضمائر والقلوب وأزمة الأخلاق والشخصيّة – هي التي سببت أزمة القيادة ، والزعامة الصحيحة في الأقطار الإسلاميّة ، وخلقت مشكلات لا حلّ لها ، وأفقدت الثقة بالقادة والزعماء ، وأنتم بصفتكم حملة الدين والدعاة إلى الله تستطيعون أن تملأوا هذا الفراغ وتسدّوا الثغر ، وتقدّموا إلى المجتمع المعاصر والمدنيّة التي تعيشون طرازاً جديداً من الحياة ، ومن الخلق ، ومن الشخصيّة ، وبذلك تعيدون الثقة بالدين ، والاحترام للعلم والعلماء .

وأعود فأشكر سماحة مفتي الجمهوريّة اللبنانيّة فضيلة الشيخ حسن خالد ، وتلاميذه وزملاءه والعاملين معه ، على حفاوتهم ، وأتاحتهم الفرص للقاءات والاجتماعات ، والتعرف على نشاط هذا الشعب الكريم ، والمؤسّسات العلميّة والخيريّة .

أمكنة فاتتنا زيارتها :

كان سماحة المفتي حسن خالد حريصاً على أن نزور البقاع ،

المنطقة الإسلاميّة الكبيرة ، وقد زارنا وفد من هذه المنطقة يدعونا إليها ، وكانت فرصة لزيارة بعلبكّ ، المدينة الأثريّة الشهيرة ، التي قرع اسمها آذاننا منذ قرأنا أول كتاب في النحو ، ولكننا اعتذرنا لضيق الوقت ، فقد قررنا التوجّه إلى دمشق يوم الجمعة ٥/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣/ آب ١٩٧٣ م) ، وكأنّ سائقاً يسوقنا إليها لنلقي تجربة من نوع جديد ، فلم نستطع له دفعاً ، وسيأتي تفصيلها .

لقاءات واجتماعات :

كان من اللقاءات التي سعدنا بها في هذه الزيارة لقاء مع العالم المجاهد فضيلة الشيخ النمر الخطيب ، وهو صديق قديم لنا منذ سنة ١٩٥١ م ، وكان نزيلاً في دمشق ، حين قضينا فيها فترة من الزمن ، وهو الآن يرأس جمعيّة الرابطة الإسلاميّة في بيروت ، ويشرف على مدرسة الفتح الثانويّة التابعة لهذه الجمعيّة ، وهي مدرسة خاصّة بالبنات ، تأسّست سنة ١٩٦٦ م ، وسدّت فراغاً عظيماً في المجتمع اللبناني المسلم ، وقامت بدور مشكور في تخريج شابات صالحات ، وأمّهات واعيات ، وكان لها أثر محمود في الأخذ بالآداب الإسلاميّة ، والشعائر الدينيّة ، والأستاذ محمد المبارك عميد كليّة الشريعة في دمشق سابقاً ، وأحد الوزراء السابقين ، وأستاذ كليّة الشريعة في مكة حالياً ، وهو في طليعة المربين والمفكرين الإسلاميين ، والأستاذ محمد عمر الداعوق مؤسّس جماعة « عباد الرحمن » في لبنان ، وأحد الدعاة العاملين المربين ،

والأستاذ زهير شاويش صاحب المكتب الإسلاميّ في بيروت ، وصاحب الفضل في نشر كتب علميّة إسلاميّة لجهابذة الفكر الإسلاميّ ، بتحقيق ودقّة وإتقان ، والصديق الحبيب الأستاذ علي حسن فدعق رئيس بلديّة جدة سابقاً .

لسنا في موقف استقصاء الجمعيات والمنظمات الإسلاميّة والحكم عليها وتزكيتها وتجريحها[1] ، فهذا يحتاج إلى إقامة طويلة ومعرفة دقيقة ، ولكن لا بأس من التلويح ببعضها كالتي كان لها أثر طيب ، وفي مقدمتها جمعيّة المقاصد الإسلاميّة ، وجمعيّة تعليم أبناء المسلمين في القرى ، ومؤسّسة الخدمات الإجتماعيّة ، وجمعيّة المحافظة على القرآن الكريم ، الرابطة الإسلاميّة في بيروت ، هذا عدا مؤسّسات وجمعيّات ورد ذكرها في هذه العجالة .

في حفلة السفارة السعوديّة :

وفي مساء يوم الخميس ٤ من رجب ١٣٩٣ هـ أقامت سفارة المملكة العربيّة السعوديّة حفل استقبال للوفد ، حضره سموّ الأمير متعب بن عبد العزيز وعدد من سفراء الحكومات الإسلاميّة والعربيّة ، ورجال السلك السياسيّ ، وكبار العلماء والوجهاء والصحفيين ، وكان آخر إجتماع بمناسبة زيارة الوفد للبنان ، وكان ختاماً للمدّة التي قضاها في ربوع لبنان العزيز ، وقد قرّر السفر إلى دمشق على سلامة الله صباح يوم الجمعه ٥/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣/ آب ١٩٧٣) .

---

١) سمعنا أن عددها يصل إلى المئة ، وأكثرها في بيروت .

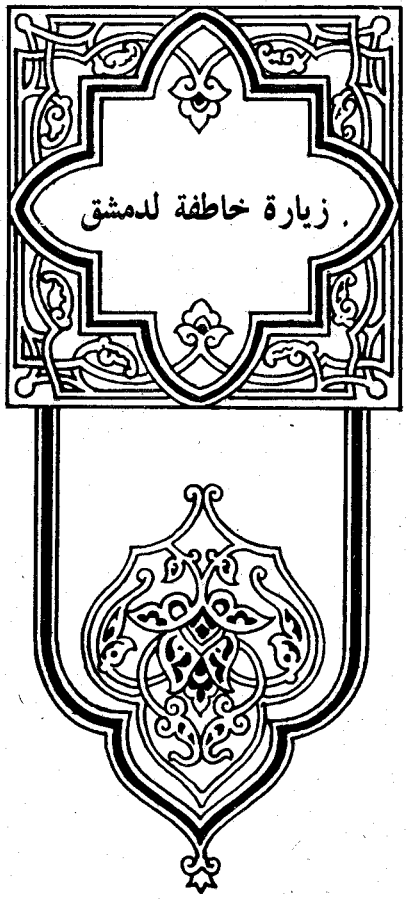
زيارة خاطفة لدمشق

من بيروت إلى دمشق :

اتصلت السفارة السعوديّة في بيروت بالسفارة السعوديّة في دمشق ، وأخبرتها ببرنامج سفر الوفد من بيروت إلى دمشق صباح يوم الجمعة ٥/ رجب ١٣٩٣ هـ (٣/ آب ١٩٧٣ م) وتأهبنا للسفر من الصباح الباكر ، وكنا حريصين على التبكير في السفر ، لأنّ اليوم يوم جمعة ، وكنا مكلفين بالمرور بحدود البلدين لبنان وسوريا ، وكانت الحدود مقفلة بينهما في تلك الفترة ، ولكن وضعنا كان غير عادي ، فكنا نسافر في وفد لرابطة العالم الإسلاميّ في مكّة ، وكانت الرابطة قد اتصلت بالجهات الرسميّة في جدّة وفي دمشق ، وقد حصلت على تاشيرة لأعضاء الوفد لزيارة سوريا ، ورحّبت الحكومة السوريّة بدورها بالوفد وأبدت استعدادها لاستقباله وضيافته[1] .

وجاء مندوب من السفارة السعوديّة في دمشق إلى بيروت وطمأن الوفد على الوضع ، وذكر أنّ كل شيء على ما يرام ،

---

١) قد علمنا من بعض المصادر أن الحكومة السوريّة لم تكن عندها الخبرة الكافية بمقاصد الرابطة والأعضاء الذين كانوا يشكلون وفدها ، وكانت لا تزال في دور التحقيق والتثبت في الأمر ، والله أعلم بحقيقة الحال .

وسبقنا إلى «شتورة» لينجز الإجراءات الرسميّة، ويوفر علينا الوقت ولحقنا به، وانتهينا ممّا لا بدّ منه.

صلتي القديمة بدمشق :

وتقدّمنا إلى دمشق، وهو البلد الذي أحبّنا وأحببناه، وقضينا فيها - أكثر من مرّة - أياماً من أصفى أيام العمر وأطيبها، وأحلاها، وأبعدها عن الأكدار والأحزان، ولا أعرف مدينة - بعد الحرمين الشريفين - حلّت من قلبي محلّ دمشق وألفتها، وعرفت كثيراً من أحيائها، وشوارعها، ودروبها، وحدائقها، ومناظرها، وكان لي فيها خيرة أصدقاء وأحباب تجاوبت نفسي مع نفوسهم، والتقى فكري بفكرهم، وقد طابت لي الإقامة فيها في كل مرّة، وطابت الأسحار والآصال، واستقرت النفس وهدأ البال، واعتدلت الصحّة، ووافق المناخ، وكنت إذا قرأت لشوقي بيته الذي قاله في دمشق وجدته دائماً لم يبالغ، ولم يجانب الصّواب :

آمنت بالله واستثنيت جنّته دمشق روح، وجنّات، وريحان.

كنا نتقدم إلى دمشق ومدخلها من أجمل المداخل في الدنيا، وتمرّ بنا أمكنة معروفة مألوفة فأنشد أبيات الشاعر الحماسيّ الصمّة بن عبدالله :

بنفسي تلك الأرض ما أطيب الربى
وما أحسن المصطاف والمتربعا

وليست عشيـات الحمى برواجـع
عليك ولكن خـل عينيك تـدمعـا

كانت زيارتي الأولى لدمشق في رمضان – ذي القعده سنة ١٣٧٠ هـ (حزيران – آب ١٩٥١ م) وكانت الأيام أيام حكم العقيد أديب الششكلي[١] ، وقد امتدت هذه الإقامة الى شهر ونصف شهر ، وقد قيدت انطباعاتي في مذكراتي[٢] ، وكانت زيارتي الثانيّة في سنة ١٣٧٥ هـ (١٩٥٦ م) وطالت ثلاثة أشهر ، حين زرتها كأستاذ محاضر في كليّة الشريعة في الجامعة السوريّة ، وكانت أيام رئاسة شكري القوّتلي بك للجمهوريّة .

ملامح الحياة البارزة في سوريا في العهد الماضي :

وكانت من أوضح ملامح الحياة العامّة والمجتمع السوريّ التي كانت تميّز سوريا بين شقيقاتها وجاراتها العربيّة ، ما كان للدين في كلتا الفترتين – رغم ما كان بينهما من تفاوت واختلاف – من نفوذ ومكانة في القلوب والنفوس ، وما كان للعلماء من احترام في المجتمع ، وقد كانت البلاد لا تزال متمسكة بكثير من الآداب الإسلاميّة ، والتقاليد الشرقيّة ، والطابع العربي الإسلاميّ ، وقد كان السفور نادراً في الفترة الأولى ، قليلاً في

---

١) اقرأ تفاصيل هذه الزيارة ، ومذكراتها اليوميّة في كتاب المؤلف « مذكرات سائح في الشرق العربي » طبع القاهرة ١٩٥٤ م. ص ٢١٨–٣٠٧

٢) راجع فصل « سوريا ، مالها وما عليها » . ص ٣٠٢ .

الفترة الثانية ، وإن كانت قد بدت طلائع الانتقال من عهد إلى عهد ، ومن اتجاه إلى اتجاه ، ومن « محافظة » إلى « تجدد » كانت واضحة يراها أهل الأبصار ، فضلاً عن أهل البصائر ، ويفهمها الأذكياء فضلاً عن الألمعيين المتوسمين ؛

وكانت هنالك نذر خطر تطلب عناية سريعة من المعنيين بمستقبل الإسلام وبمستقبل هذا البلد ، منها كثرة المذاهب السياسيّة ، والأحزاب المؤسّسة عليها ، وسرعة سقوط الوزارات الامر الذي يحدث عدم الأستقرار في الأمور ، ومنها الخلاف بين العلماء العاملين للإسلام والفرقة بينهم ، وعدم انسجام الجمعيات الدينيّة ، والمنظمّات الإسلاميّة .

والسمة الثانية التي كانت تميّز سوريا من بين الأقطار العربيّة والتي كان يشعر بها كل زائر لها من الخارج ، هو الرخاء العام الذي كان يعيش فيه أهل هذا القطر السعيد ، والهدوء الشامل الذي كان يسود على البلد كله ، وقد أكرم الله هذا البلد من قديم الزمان بكثرة الخيرات والطيبات ، من الحبوب والفواكه ، والثمرات والخضراوات ، وكثرة العيون والأنهار ، ووفرة المياه وكثرة البساتين والحدائق ، ونفاق التجارة والسلع ، وكان هنالك مجال واسع للتكسب الشريف ، والرزق الكريم ، فلا غلاء ولا جدب – إلاّ نادراً – ولا بطالة ولا كساد ، ولا تخلف أمطار ولا نقص في الثمرات – إلاّ على فترات طويلة – فلا تجد في البلاد شاكياً للبطالة ، متذمّراً من الأوضاع ، عاتباً على الزمان زارياً ، إلاّ من فطر

على ذلك ، وكان كثير التشكي ، قليل التشكر ، وترى الناس يتمتعون بالحياة ، ويقضون أوقاتهم في أنس وصفاء ، تهون عليهم الولائم والمآدب ويتوسعون في المطاعم والمشارب ، ويخرجون إلى المصائف والجبال ، وإلى غوطة دمشق ، ومنتزهاتها ، فيجتمعون على أكل وشرب ، وحديث وسمر[1] ، وكنت إذا رأيتهم محفوفين بهذه النعم ، راتعين في هذه الخيرات ، تخرفت عليهم من قلّة الشكر وعدم الوفاء بحقها ومعرفة قيمتها .

ومن ملامح هذه الحياة الرخيّة وهذا المجتمع الوادع الهادئ الذي كان يؤمن بالتعاليم الخلقيّة الإسلاميّة في قليل أو كثير ، ويتمسك بالتقاليد الشرقيّة ، هو وجود الثقة المتبادلة بين أفراد الشعب وحبّ الخير من بعض لبعض ، بل وإيثاره على نفسه في كثير من الأحيان ، وما سبّب ذلك من استقرار روحيّ ، وأمن عاطفيّ ، وقد هال هذا الجانب زائراً فاضلاً زار هذا البلد من أوربّا في فترة بين الحربين العالميتين ، وقضى فيه مدّةً من الزمان ، يقول الأستاذ محمد أسد (Leopold veiss) سابقاً ، في كتابه المشهور « الطريق إلى مكة » (Road to Mecca) في الحديث عن دمشق :

« وقفت على ذلك الاستقرار الروحيّ في حياة سكّانها ،

---

١) يسمّى ذلك أهل دمشق وأهل سوريا بـ« سيران » ويسميه أهل الحجاز بـ« قيلة » .

إنّ أمنهم الباطني كان يمكن أن يرى في الطريقة التي كان أحدهم يتصرّف بها نحو الآخر »

ويذكر تلك الطرق ، ثمّ يقول :

« وفي الطريقة التي كان أصحاب الدكاكين يعاملون بعضهم بعضاً ، أولئك التجار في الحوانيت الصغيرة ، الذين كانوا يبدون ، وكأنما ليس فيهم أيّما قدر من الخوف والحسد ، حتى إن صاحب دكّان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه كلّما دعته حاجة إلى التغيّب بعض الوقت ، وما أكثر ما رأيت زبوناً يقف أمام دكّان غاب صاحبه عنه يتساءل في ما بينه وبين نفسه ما إذا كان ينتظر عودة البائع أوينتقل إلى الدكان المجاور ، فيتقدم التاجر المجاور دائماً – التاجر المزاحم – ويسأل الزبون عن حاجته ، ويبيعه ما يطلب من البضاعة – لا بضاعته هو بل بضاعة جاره الغائب – ويترك له الثمن على مقعده ، أين في أوربّا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة ؟[1] »

ولا شك أن البلاد الشرقيّة بما فيها مركز الإسلام ومهده قد فقدت مع الأيام ، وبفعل الحضارة الغربيّة ، والإيمان بالفلسفة الماديّة ، الشيء الكثير من هذه الثقة المتبادلة ، والإخاء العام ، والتناصح الجماعي ، ففقد بفقد ذلك هذا الاستقرار الروحي ، والهدوء الباطنيّ ، ولكني كنت ألاحظ بقاياه في المجتمع السوريّ في كلتا الفترتين اللتين زرت سوريا فيهما .

---

١) « الطريق إلى مكة » ص : ١٦٧ .

تطور الحياة والأوضاع في سوريا ، في العهد الأخير :

وكانت زيارتي الثالثة في أول شتاء ١٩٦٤ م في عودتي من أوربا وفي طريقي إلى الهند ، وقد قضيت في دمشق ثلاثة أيام ، وقد مرّت بسوريا عدة انقلابات عسكريّة اهتزت فيها جذور المجتمع ودعائم الحياة ، فرأيت كثيراً من هذه الملامح الجميلة قد غابت ، وغاب هذا الرخاء الذي كانت تنعم به سوريا ، وأصيبت البساتين التي هي من أكبر موارد السوريين الأقتصاديّة بقلّة الحاصل ونقص في الثمرات ، وتخلفت الأمطار ، وأصيبت العيون التي كانت تخترق دمشق بالجفاف وقلّة الماء ،

وللناس أن يقولوا : هذه حوادث طبعيّة لا شأن لها بسياسة أو تخطيط ، ونحن لا نناقشهم في ذلك ، ولكن المؤسف أن النّاس قد أصيبوا بعدم ثقة بالمستقبل لعدم ثبات الحكومات وبقاء رؤسائها وقادتها في مراكز الحكم والقيادة زمناً طويلاً ، وتدخل الجيش في سياسة البلاد وانتزاعه الحكم الفينة بعد الفينة ، وظهر ضعف الثقة بالمستقبل في كل مجال من مجالات الحياة ومظاهرها ، من الإنتاج العلميّ والتعليميّ إلى المجال الفكريّ والأدبي ، من الدّوائر الرسميّة الى الحياة المنزليّة ، والمناسبات الاجتماعيّة ، وظهر ذلك في حديث الأصدقاء وفي وجوههم ، وعرفت من هنالك نتيجة الإنقلابات السريعة ، والحكومات العسكريّة ، وعرفت مقدار تحقق وعود الزعماء الاشتراكيين في إسعاد البلاد وإنهاضها ، وبثّ الرخاء والأمن ، والشعور بسلامة النفس وكرامة الإنسان ، وحريّة

الفكر وإبداء الرأي ، ووجهات النظر فضلاً عن تحقيق الغايات التي لا يدّعونها ، ولا يعنون بها ، بل ينفونها ويحاربونها في كثير من الأحيان ، كالدين والأخلاق والروّح ، لقد كان هتاف هؤلاء القادة : الرغيف ، ولقمة عيش للجائع ، وتهيئة « الحاجيات » للشعب ، والكفالة بالعيش لرجل الشارع ، وكان جهادهم في سبيل ذلك ، فإذا لم يتحقّق ذلك ، وتحقّق كل شيء – على فرض أنه تحقّق – فمعنى ذلك أن الاشتراكيّة ، والقوميّة ، والشيوعيّة نظم وفلسفات « تعبّديّة[1] » تقوم على مجرّد عقيدة وإيمان وعاطفةً ، لا توزن في ميزان العقل ، والتطبيق والنتائج ، أو مبادئ سلبيّة لا يقصد منها إلاّ هدم كيان أو تخلّص من النظام ،

وكانت هذه الزيارة الزيارة الرابعة جاءت على فترة ثمانية أعوام ، وهي فترة ليست طويلة ، ولكنها مليئة بالحوادث ، قامت فيها عدة انقلابات ، وعدة تحوّلات ، وذهبت حكومات وجاءت حكومات ، وهي الفترة التي وقعت فيها نكبة حزيران ١٩٦٧ م ، وحدثت تغيرات عظيمة في خارطة البلاد العربيّة المتاخمة لإسرائيل التي تواجه المشكلة وجهاً لوجه ، إذاً فهي فترة حاسمة عميقة الجذور بعيدة الأثر في تاريخ الأمّة العربيّة الإسلاميّة ، وكنت أتلمّس آثار هذه التحوّلات والتحدّيات في حياة هذه الشعوب المواجهة للخطر وفي أوضاع البلاد الواقعة على الثغر .

---

١) ما يقوم على مجرد أمر (من مصدر غير بشري) من غير أن يدرك بالعقول

إنّ أوّل ما لفت نظرنا لافتة على الحدود السوريّة ، كتب فيها بقلم عريض « البعث تمرّد على الحدود ، وحرب على الإقليميّة »

في دمشق :

ودخلنا دمشق على بركة الله ، وزرنا سفارة المملكة العربيّة السعوديّة ، وسلمنا على سعادة السفير الشيخ محمّد المطلق الذي رحّب بنا ، وأخبرنا أن نزولنا في الفندق الأمويّ الجديد ، ولمّا وصلنا إلى الفندق عرفنا أنّ سماحة مفتي الجمهوريّة السوريّة الشيخ أحمد كفتارو جاء يستقبلنا في هذا الفندق ، وجلس طويلاً وكان عنده موعد إلقاء محاضرة في جامع البغا ، وسيقابلنا بعد أن ينتهي منها ، وناب عنه الشيخ بشير الباني قاضي دمشق ، وولد سماحة المفتي السيّد زاهر كفتارو ، وبلّغانا تحياته ورحّبا بنا وبعد قليل شرفنا الشيخ أحمد ، وتقابلنا بعد فترة ثماني سنين ، وجددنا ذكريات الأيام الماضية ، أيام كنّا نتلاقى كثيراً ونجلس طويلاً في منزله في حيّ الأكراد وفي الشيخ محيّ الدين[1] ، وفي الغوطة .

ارتسامات في الجامع الأمويّ :

وخرجنا نصلي الجمعة في الجامع الأمويّ ، الجامع الذي كنّا نحنّ إلى صلاة الجمعة فيه ، ولذلك تعمّدنا يوم الجمعة لزيارة دمشق ، فصلاة الجمعة في الجامع الأمويّ سعادة وشرف ، ومتعة

---

١) حي من أحياء دمشق منسوب إلى الشيخ محي الدين ابن عربي المدفون في هذا الحيّ .

روحيّة ، وقد دمعت عيني ، وهاجت الأحزان والأشواق والذكريات حين دخلت في هذا المسجد ، وسمعت خطبة الجمعة ، وتذكرت دمشقيّة شوقي ، التي يقول فيها :

وقفت بالمسجد المحزون أسأله ... هل في المصلّى أو المحراب مروان
تغير المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرار وعبدان
فلا الأذان أذان في منارته ، ... إذا تعالى ، ولا الآذان آذان ،

لقاء وتحيّة :

تسرب إلى أصدقائنا نبأ زيارتنا لدمشق بعد فترة طويلة وقد غادر أكثرهم هذا البلد ، وما بقي منهم إلاّ من قعدت به الشيخوخة ، أو رأى لزاماً عليه أن يبقى في هذا البلد يحرس الأمانة الإسلاميّة التي كان لبلاد الشام فيها القيادة والزعامة والتي وردت لأجلها في فضائلها أحاديث لم ترد ولم تصح عن بلد آخر من بلاد العالم الإسلاميّ ، فشرّفنا بعضهم باللقاء والتحيّة وقررنا أن نزور الآخرين غداً ، ويكون لنا شرف زيارتهم والسعي إليهم .

لقاءات وزيارات :

جلسنا مع سماحة الشيخ أحمد كفتارو مجلساً طيّباً في مزرعته الجميلة في شارع المطار ، تطرق الحديث فيه إلى الربانيّة الصافية ، والتربيّة الإسلاميّة ، وحكمة الدعوة ، وسماحته كبير الثقة ، كثير التفاؤل ، قويّ الأمل في النهضة الدينيّة ، وإقبال الشباب والجيل المثقف على الدين ، إذا تهيّأ الدعاة المخلصون ، أصحاب الحكمة في الدعوة ، وأصحاب الإيجابيّة ، وقد ذكر في

تفصيلٍ تجاربه المشجعة في حقل الدعوة والإصلاح ، وما لقيّه من استجابة وقبول في أمريكا وروسيا ،

وزرناه في الصباح كذلك واتفقنا على أن نقابل وزير الأوقاف عبد الستار السيّد صباح يوم الأحد ، وهو الذي يرسم لنا برنامج هذه الزيارة ، وكيف نقضي هذه الأيام في دمشق ، وزرنا بعض المعالم العصريّة ، والأحياء الإسلاميّة ، وتغدينا مع فضيلة الشيخ حسن حبنّكه في بيت أحد أولاده ، وحضر الغداء أفراد أسرته ، وبعض تلاميذه ، وكانت جلسة أخويّة ، وضيافة كريمة ، كان الحديث فيها دائراً حول مركز المرأة في الشريعة الإسلاميّة ، والمجتمع الإسلاميّ ، وما فطرها الله عليه من خصائص وطبائع .

قررت السفارة السعوديّة في دمشق إقامة حفلة تكريم للوفد مساء يوم الأحد تدعو إليها الوزراء والسفراء ، وأعيان البلد وكبار العلماء ، وقررنا رحلة صباح يوم الإثنين إلى « حلب » نعرج في الطريق على حمص أو حماة ، ونقضي فيها ساعة وساعتين ونرجع إلى دمشق يوم الأربعاء ، حيث نمكث يومين نحضر فيهما حفلات تعارف ولقاء ، ينظمها سماحة المفتي ويوافق عليها معالي وزير الأوقاف ، ثمّ نتوجه بإذن الله إلى عمان .

توجّهنا بعد العصر إلى الزبداني أحد مصائف دمشق المشهورة لزيارة فضيلة الشيخ السيّد مكي الكتاني رئيس رابطة العلماء في دمشق ، وعضو رابطة العالم الإسلاميّ ، وهو مريض وفي سنّ عالية ، يصعب عليه التنقل ، وقد اضطرّ إلى التغيّب عن اجتماعات

الرابطة من سنتين ، وقضينا معه بعض الوقت في أنس وصفاء وفي عزلة وهدوء ، وهو من أسرة عريقة في العلم والدين ، وصاحب مواقف وجولات في مجال الدعوة والعمل الإسلاميّ .

واقع أشبه بخيال :

رجعنا إلى الفندق متعبين في الساعة العاشرة في الليل ، وقد ضربنا مع بعض الإخوان وأصدقاء دمشق ، وبعض تلاميذنا الذين تخرّجوا من ندوة العلماء مواعيد مختلفة ، نملي على بعضهم بعض المحاضرات التي ألقيناها في لبنان ، ونخرج مع بعضهم لزيارة أهل العلم والفضل ، وكبار العلماء الذين تربطنا بهم روابط علميّة وأدبيّة ، وتوثقت بيننا وبينهم صلة الصّداقة والأخوة في زياراتنا الأولى ، كعلاّمة الشام محمّد بهجة البيطار ، والدكتور أبو اليسر عابدين مفتي الجمهوريّة سابقاً ، وفضيلة الشيخ أحمد الدهر ، رئيس الجمعية الغرّاء ، وفضيلة الشيخ زين العابدين ، وبعضهم مريض ، وبعضهم متقدّم في السنّ ، ونزور مجمع اللغة العربيّة الذي أنا عضو مراسل فيه منذ سنة ١٩٥٦ م ، ونزور قبور الصحابة وأئمّة الإسلام ، وقبر السلطان صلاح الدين الأيوبي .

وأوينا إلى فرشنا ، وقد أخذ منا التعب كل مأخذ ، والأمور تجري مجراها الطبيعي ، ولا شيء يبعث على قلق وانزعاج ، واستغرقت في النوم ، وإذا بجرس التليفون يضرب وأنا أسمع ابن أختي « محمّد الرابع » يتكلم مع موظف في الفندق على الهاتف ، هل

هم في الأسفل أم طلعوا ؟ لا ، بل هم فوق ، هذا كان جواب المسؤول في مكتب الفندق ، وإذا بي أسمع دقّ الباب .

فتحنا الباب فإذا بثلاثة أشخاص يدخلون الغرفة وهم في اللباس المدني ، ويقولون لنا ضبّوا العفش واخرجوا معنا .

إلى أين ؟ هكذا كان سؤالنا ، لا ندري ، كان الجواب .

واتصلوا بالزميلين ، الأستاذ أحمد محمّد جمال ، والأستاذ عبدالله باهبري ، ومنعوا بعضنا عن الاتصال ببعض ، وأدركنا الأمر ، وعرفنا أنّنا مطلوبون ومساقون .

وحاول الأستاذ أحمد محمّد جمال أن يتصل بالسفير السعوديّ ، ويخبره بحقيقة الأمر ، فرفضوا ، واحتجّ الأستاذ من هذا التصرّف القاسي ، وقال لسنا غنماً حتى نساق سوقاً ، نريد أن نعرف السبب ، ولكن من غير جدوى .

وركبنا سيّارة كانت واقفةً أمام الفندق ، وركبوا معنا ، وانطلقت السيّارة ، وفي الطريق عرفنا أننا متجهون – أو بالأصح موجهون – إلى حدود لبنان .

وتمت الإجراءات بسرعة ، وانتقلنا إلى سيّارة لبنانيّة ، كأنها كانت على ميعاد ، وتوجهنا إلى بيروت حيث وصلنا مع الصباح ، وفوجئ إخواننا الذين ودّعونا قبل يومين بعودتنا إلى بيروت ، مرة ثانية ، كما فوجئ إخواننا وأصدقاؤنا في دمشق بمغادرتنا للبلد في نصف اللّيل ، ولا يعرفون السبب .

وقع كل هذا كمسرحيّة قليلة الفصول ، قريبة النهاية ، أما بالنسبة إلينا فهو حلم ، أوله لذيذ ، وآخره مزعج ، ونحن بين شك ويقين ، وتصديق وتكذيب للواقع ، هل الذي وقع لنا كان في المنام أم في اليقظة ؟ وكان عن تعقل وإرادة من ولاة الأمور ، أم كان على غير علم منهم ؟

إنّ القرآن يحكي عن سيّدنا موسى ويقول :

« وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا [1] » أما نحن فتصوير الواقع أننا خرجنا من المدينة على حين غفلة من أهلها .

هكذا كانت زيارة دمشق زيارة خاطفة ، حاجة في نفس يعقوب ما قضاها ،

نشرت صحيفة « الحياة » البيروتيّة هذا الخبر يوم الإثنين ٨/ رجب ١٣٩٣ هـ (٦/ آب ١٩٧٣ م) ومنها علم الإخوان في بيروت ما وقع لنا في دمشق ، وأذاعته إذاعة بريطانيا ، وإذاعة إسرائيل في نفس ذلك اليوم ، وعلّقت على الحادث الصحف الإسلاميّة والعربيّة في بيروت ، وفي العواصم العربيّة الأخرى ، واستنكرت الواقع ، وزارنا الإخوان في بيروت يستوضحون الأمر ، ويستغربون ممّا حدث ، ويبدون اهتمامهم بالقضيّة .

---

١) سورة القصص ، الآية ١٥ .

في عاصمة الرشيد

لا بد من بغداد :

قال شاعر قديم :

« لا بد من صنعاء وإن طال الزمن »

وكانت « صنعاء » في الزمن القديم يضرب بها المثل في البعد ، ووعورة الطريق ، وكانت مدينة الخيال والجمال في الجزيرة العربيّة .

وليست بغداد لقاصديها وروّادها بهذا المكان من البعد ، وصعوبة الوصول ؛ فالمواصلات موفورة والطرق ميسورة ، وقد قرب العلم البعيد وذلّل الصّعاب ، واستطاع الإنسان بفضل العلم الذي ألهمه الله ، والقوة التي سخّرها له ، يفطر في قطر ، ويتغدّى في قطر ، ويصبح في الشرق ويمسي في الغرب .

المكان الذي تشغله بغداد ، في تاريخ الإسلام وثقافته :

وبغداد يرتبط بها جزء من التاريخ الإسلاميّ السياسيّ ، والثقافي ، والحضاري ، لا يرتبط ببلد آخر من بلاد الإسلام وعواصمه ويدور حولها حوادث وأساطير لا تدور حول مدينة أخرى لمعت في تاريخ الإسلام الطويل ، وقد ظلّت مركز الخلافة الإسلاميّة العبّاسية خمسة قرون كوامل ، وحكمت معظم العالم

المتمدّن في العصر القديم ، وأنجبت أئمّة في كل فن وفي كل علم ، وقصدها وآثرها بالإقامة الحذاق في كل علم وصناعة من أنحاء العالم ، فاجتمع فيها من أهل الفضل ، والحذاق ، والنبوغ ، رجال لم يجتمعوا في مدينة أخرى من مدن الإسلام .

وقد رنّ اسمها في الآذان ونحن أطفال صغار ، قبل أن يدخل اسم مدينة أخرى في الأذن من المدن البعيدة بعد مكّة والمدينة ، فكان أوّل كتاب تعلّمنا منه حروف الهجاء « القاعدة البغداديّة[1] » فكان مدخلاً إلى المكتبة الإسلاميّة بل مدخلاً إلى القرآن والسنة وعلوم الإسلام ، ومدخلاً كذلك إلى اللغة الأرديّة والفارسيّة ، ثمّ كانت كل الطرق التي نسلكها في مطالعة التاريخ الإسلاميّ ، وفي دراسة الصرف والنحو ، وفي دراسة ثلاثة مذاهب من المذاهب الفقهيّة المنتشرة في العالم الإسلاميّ ، وهي : المذهب الحنفيّ ، والشافعيّ ، والحنبلي ، تمرّ ببغداد ، أو تنشق منها أو تعود إليها ، فلا بدّ من الإشارة اليها أو الإحالة عليها ، في تاريخ حدوث الآراء ونشوء المذاهب ، واختلاف بين مدرسة الكوفة والبصرة ، والمعتزلة والأشعريّة مرة ،

---

١) سبب تسمية الكتاب بـ« القاعدة البغدادية » قصة رويت في مفتتح الكتاب وهي أن الخليفة هارون الرشيد جرب عدة معلمين لتعليم أبنيه الأمين والمأمون ، فلم ينجحوا في تعليمهما ، فرشح أحد المعلمين في بغداد نفسه ، لتعليم ابني الخليفة ، وتطوع لهذه المهمة الخطيرة ، فابتكر لهما طريقة جديدة في تعليم حروف الهجاء والكلمات والجمل المركبة منها ، فنجح نجاحاً باهرا ، في مدة قصيرة ، فاجزل له الخليفة الصلات ، وخلع عليه ومن هنا سمّى الكتاب « القاعدة البغداديّة » وكان يعتمد عليها في التعليم الابتدائي ، في الكتاتيب المنتشرة في شبه القارة الهندية .

وأهل الكلام والمحدّثين مرة أخرى ، وهنا كانت محنة إمام أهل السنة أحمد بن حنبل التي ثبت فيها ثبوت الجبال ، وهنا بلغت حلقات درس الإمام أبي حامد الغزالي وشهرته العلميّة أوجها ، حتى كانت تزري بمجالس الخلفاء ، وهنا قامت مجالس وعظ العلامة ابن الجوزي التي كان يكثر فيها عدد التائبين والخاشعين ، وهنا كانت مدرسة الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني التي كانت تجمع بين العلم وتزكية النفوس ، وهنا كانت حياة الزهد والعفاف والتبتل التي يتحدّث عنها كتاب « حلية الأولياء » لأبي نعيم الأصفهاني و« صفة الصفوة » لابن الجوزي ، وهنا كانت حياة المجون واللّهو والطرب التي يتحدّث عنها كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وكتاب « ألف ليلة وليلة » لجماعة من المؤلفين المغمورين ، فكانت بغداد زعيمة في كلتا الحياتين ، وفي كلا الاتجاهين ، وكل من الكتب التي مرّ ذكرها يصوّر جانباً من جوانب هذه الحياة المتناقضة التي تجمعها مدينة فاضت فيها الأموال والخيرات فيضان دجلة والفرات ، وأمّها أئمّة كل فن ، وحذاق كل صناعة ، وزعماء كل دعوة ، واجتمع فيها دواعي الخير ودواعي الشر ودعاة الإصلاح ودعاةُ الإفساد ، وهو طابع العواصم الكبرى والمدن الزاخرة بالعمران والثروة والنفوذ السّياسيّ .

إذن لا بدّ من بغداد وإن طال السفر وخشينا أن نلقى نفس التجربة التي لقيناها في دمشق .

من بيروت إلى بغداد :

قضينا في بيروت ثلاثة أيام في انتظار الطائرة التي تقلنا إلى بغداد . وكان موعد الطائرة اللبنانيّة يوم الثلاثاء ٧٣/٨/٧م وقد اتصلت السّفارة السّعوديّة في بيروت بالسفارة السّعوديّة في بغداد واتصل السَفير السّعودي بالجهات الرسميّة ، وأخبرنا أن الحكومة العراقيّة ترحب بالوفد ، وهي مستعدة لاستقباله وضيافته مدة خمسة أيام .

وتوجّهنا على بركة الله مساء الثلاثاء عند العشاء ووصلنا بغداد في منتصف اللّيل تقريباً ، وكان في استقبالنا سعادة الشيخ علي الصقير ، سفير المملكة العربيّة السعوديّة ، وسعادة الشيخ عبد الرزاق الفياض ، نائب رئيس ديوان الأوقاف العراقي ، ونفر من علماء بغداد وأعضاء السفارة السعوديّة وقضينا ساعة في قاعة الإستقبال في المطار حيث تعرفنا على أصحاب الفضيلة العلماء ، وأكثرهم موظفون في وزارة الأوقاف ، وأئمّة وخطباء في المساجد ، وأساتذة في المدارس ، ثمّ توجّهنا إلى فندق « أمبسادور » (Ambas sador) وهو فندق فخم واقع في شارع أبي نواس ، مواجه لدجلة ، وقد استقبلنا حرّاً شديداً وسموماً لافحاً ، وإن كان قد انتصف اللّيل ، ولكنّ الفندق مكيّف ، وقضينا اللّيلة في هدوء وراحة .

زيارات ومقابلات رسميّة :

وفي صباح اليوم الثاني : يوم الأربعاء ٧٣/٨/٨م بدأ الوفد نشاطه بزيارة ديوان الأوقاف ، حيث علمنا أن وزارة الخارجيّة ستتولى وضع برنامجنا الذي نسير في ضوئه ، وهي التي ستعين لنا اللقاءات والزيارات ، وقد عيّنت لنا مرافقاً ، وهو أحد الموظفين في وزارة الخارجيّة وأننا سوف لا نتحرك إلاّ في خفارته ومرافقته ، وشعرنا بعد بوجود شخصين معينين من قبل الحكومة يظلان بجانبنا ، ويرافقاننا ونكون دائماً « تحت رعايتهما » .

ومن هنا توجهنا إلى القصر الجمهوري ، حيث سجّلنا أسماءنا في سجل التشريفات ، وعلمنا من مرافقنا الرسميّ أنّه من الممكن أن يدعونا السيد رئيس الجمهوريّة الأستاذ أحمد حسن البكر للمقابلة ، فيحسن بنا أن لا نغادر بغداد خشية أن توجّه إلينا الدعوة ونحن في الخارج .

بدأنا بزيارة مسجد الإمام الأعظم حيث صلّينا الظهر ومسجد تلميذه الوفي النابغة وأحد أساطين مذهبه الإمام أبي يوسف ، وبعد العصر ذهبنا إلى – الحضرة القادريّة[1] لزيارة سيدنا عبد القادر الكيلاني وصلينا العصر في مسجده وزرنا المكتبة المنسوبة إليه ، وألممنا بالكاظميّة[2] إلماماً ،

---

١) المكان الذي دفن فيه الشيخ عبد القادر الكيلاني ، مشهور في بغداد بالحضرة القادريّة ، أو الحضرة الكيلانيّة .

٢) مدفن الإمام موسى بن جعفر الكاظم وحفيده محمد التّقى الجواد وهما من الأئمّة الاثني عشر عند الشيعة ، * والمكان يسمّى بالكاظمين كذلك

وصباح يوم الخميس خرجنا لزيارة بعض الوزراء الّذين نصّ على أسمائهم البرنامج الرسميّ ، منهم وزير التعليم الابتدائي والمهني الأستاذ أحمد عبد الستار الجويري ثم وزير التعليم العالي الدكتور حُسين الشاوي وكان قد عاد حديثاً من زيارة للهند ، ودار الحديث حول طبيعة التوجيه والتربية في بلد إسلاميّ عربيّ كالعراق كان مصدر الإشعاع الإسلاميّ والقيادة العلميّة في العالم الإسلاميّ كلّه ، وكان حديث الوزيرين حديثاً لبقاً فيه التحفّظ وفيه الدّقّة ، وقد تبدر كلمة تنمّ عن شعور بشخصيّة هذا الشعب وماضي هذا البلد العريق في العلم والدين ، إن محاولة القضاء على المشاعر والعواطف ، وزواسب العهد الماضي وواقع الحياة قد أخفقت حتى في روسيا ، إنها معاكسة للطبيعة ومغالطة للحقائق .

في حفلة تكريم ديوان الأوقاف :

أقام ديوان الأوقاف الذي كان يرأسه الشيخ عبد الرزاق الفياض نيابة عن رئيسه الذي كان في زيارة لموسكو ، حفل عشاء بجامع الشهداء تكريماً للوفد ، حضره عدد كبير من علماء بغداد وأئمّة المساجد والوّعاظ والمشايخ ، كان على رأسهم وفي مقدمتهم فضيلة الشيخ نجم الدين الواعظ مفتي العراق سابقاً ، والشيخ عبد الكريم أستاذ مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وقد ساد الصمت على أكثر الوقت ، وإذا تكلم أحد تكلم بالقدر اللازم ، وكان سكوتهم أبلغ من كلامهم وأدّل على الأمر الواقع ، وكانت أسارير وجوههم المضيئة ولمعان عيونهم الذكيّة تقول : « لقد كان لنا

معكم شأن لو اتّسع مجال الكلام ، وغاب الرقيب العتيد الذي يحسب علينا الأنفاس ، ويحصي علينا الألفاظ » وقد رأينا دمعة تترقرق في بعض العيون ، وكلمة تحشرج في الصدور ، ولسان حالهم ينشد بيت المتنبي :

الحزن يقلق والتجمّل يردع والدمّع بينهما عصيّ طيّع

أمانى لم تتحقّق :

زارنا وفد من علماء الرّمادي ، وهو مركز علميّ وديني كبير في العراق يدعوننا إلى بلدهم ليعبّروا عن عاطفتهم الإسلاميّة وشعورهم الدّيني ولنطّلع على نشاطهم العلمي والدينيّ ، ونزور هذا البلد الذي كان مركزا للعلماء الأفاضل ، وشكرنا روحهم الطيّبة وعاطفتهم النبيلة ، وقلنا لا مانع عندنا إذا وافقت وزارة الخارجيّة التي رسمت برامجنا وخطّت لنا خطّاً نسير عليه ، وقد شعرنا بتوقّهم الشديد لزيارتنا وتلهفهم للإجتماع بنا في بلدهم ، واتّصلوا بالوزارة فعلاً ، وقدّموا إليها طلباً يترجون فيه السّماح لنا بزيارتهم في بلدهم والسماح لهم بتكريم إخوانهم في العلم والدين ، ووفد لرابطة العالم الإسلاميّ يزور هذا البلد الإسلاميّ على فترةٍ طويلة من الزمان ، ومسافة بعيدة من المكان ، وقد مهّدوا لهذه الدّعوة وهيأوا لها بذكر أنّهم وجّهوا مثل هذه الدّعوة إلى فضيلة الشيخ ضياء الدين بابا خانوف كبير علماء روسيا عند زيارته للعراق ، وسمح لهم بذلك ، كأنهم يبررون بذلك موقفهم تجاه هذا الوفد الذي يمثل الرابطة ، ويستعطفون به قلوب ولاة الأمر الذين أذنوا لهم

بتكريم أحد العلماء من الخارج ، وقد فهمنا من هذا المثال من المعاني والمضمرات وطبيعة الواقع الذي يعيش فيه هذا البلد ما لا نفهمه من كتاب كبير وعبارة بليغة ، وعرفنا بعد أنّهم لم ينجحوا في مهمّتهم ، ولم توافق الخارجيّة على هذه الزيارة .

وطلبنا زيارة « النجف » بلد العلم والعلماء ، البلد الّذي يقيم فيه آلاف من طلبة العلم وعدد كبير منهم من الهند ويدرس فيه كبار علماء الشيعة في العالم الإسلاميّ ، وزيارة « كربلاء » والكوفة ، فقيل لنا : إننا نخاف أن يطلبكم السيّد رئيس الجمهوريّة للمقابلة فلا نجدكم في البلد ، وكان هذا هو الجواب والعذر ، كلما طلبنا زيارة مكان خارج بغداد باستثناء « سلمان باك » وزيارة معالم المدائن الأثريّة التي تبعد من بغداد بمسافة ١٣٠ (ك م) على الضفّة الشرقيّة من دجلة في جنوب بغداد ، وكانت زيارة خاطفة عابرة .

وزارنا وفد من علماء الشيعة فجلسوا معنا في الفندق جلسة قصيرة ، وعن يميننا رقيب وعن يسارنا رقيب ، وحثونا على زيارة النجف وكربلاء ، وذكروا ضرورة هذه الزيارة ، وقيمتها العلميّة والدينيّة ، وأنّ العلماء هناك في شوق إلينا ، فأبدينا استعدادنا لهذه الزيارة ، وقضاء بعض الوقت مع المشتغلين بالعلم هناك ولكنّنا قلنا إننا لسنا أحراراً في التنقل في هذا البلد ، وعذر الوزارة في بقائنا في بغداد أن يطلبنا السيّد رئيس الجمهوريّة ليكرمنا بلقائه ، ونكون بعيدين عن بغداد ، فلا نحظى بهذه الزيارة الكريمة .

في جامعة بغداد والمجمعين العلميّ العراقي والكرديّ :

وزرنا خلال هذه الإقامة القصيرة رئيس جامعة بغداد الدكتور سعد الراوي وجلسنا معه بعض الوقت يحدّثنا في موضوع التعليم ورسالة الجامعة ، ويحدثنا عن نشوء جامعة بغداد وتوسّعها وأقسامها واختصاصاتها ، فكانت الزيارة الرسميّة الأخيرة التي نصّ عليها البرنامج الرسميّ .

وحدانا الذوق العلميّ والأدبي إلى زيارة المجمع العلميّ العراقيّ والكرديّ الذي نقدر وجوده وانتاجه ، واستقبلنا فيه العالم البحاثة الدكتور ناجي معروف الذي استفدنا من آثاره وبحوثه قديماً ، والأستاذ عبد الرزاق محي الدين رئيس المجمع ، وأمينه العامّ الأستاذ فاضل الطائيّ ، وصديقنا القديم الأستاذ وليد الأعظمي ، واقترح علينا رئيس المجمع والدكتور معروف زيارة المجمع العلميّ الكردي كذلك ، وأتحفنا كلا المجمعين ببعض مطبوعاتهما .

تجارب جديدةٌ :

وزرنا بعض المكتبات الكبرى في شارع المتنبي وبحثنا عن بعض مؤلّفاتنا ، فلم نجد لها عيناً ولا أثراً ، وكانت هي المكتبة الوحيدة التي تجرّدت عن هذه الكتب الإسلاميّة ، وعرفنا أن غالبها ممنوعة في هذا البلد الذي هو في مقدمة المراكز الثقافيّة في الشرق العربي ، والذي يحكمه حزب يدافع عن حريّة الرأي والفكر والعقيدة والضمير ، ويقوم على التقدميّة .

عقدت السفارة السعوديّة حفل عشاء تكريماً للوفد ، اقتصر على أعضاء السفارة ، ولم يحضره إلاّ المعينون لمرافقتنا وكانوا وحدهم يمثّلون وزارة الخارجيّة والحكومة العراقيّة ، ولم يحضره أحد من العلماء رغم شدة حرصهم على الاجتماع بأعضاء الوفد وزملائهم في العلم والدّين .

انطباعات في المتحف العراقيّ :

زرنا يوم الجمعة : ٧٣/٨/١٠م المتحف العراقي ، كان مديره الفاضل المتخصّص في الآثار والحفريات ، وقد طاف بنا على العهود والمراحل التي مرّت بها حضارة هذه البلاد ، وتاريخها ومجتمعاتها وحكوماتها ، من زمن عريق في القدم إلى العهد الأكديّ ببضعة آلاف من السنين قبل الميلاد إلى العهد البابليّ ، إلى العهد الكشي ، إلى السّلوقي ، إلى العهد الفرثي ، إلى آخرها ، وعنينا بصفة خاصّة بالعهد الإسلاميّ والآثار الإسلاميّة على قلة بقاء هذه الآثار ، وكأننا نشاهد شريطاً من تمثيليّة تاريخيّة ، يأتي فيها حاكم ، ويذهب حاكم ، وتقوم حكومة وتنقرض حكومة ، وتزدهر مدينة وتبيد مدينة ، وتقوم قصور وتنشأ حدائق ، ثمّ تتحوّل إلى أطلال وخرائب ، يمرّ بنا كل ذلك ، وكأن التّاريخ رواية هزليّة ، لا جدّ فيها ولا حقيقة ، وكأنها مسرحيّة للأطفال يمثّل فيها بعضهم دور الملك ، وبعضهم دور الوزير ، وبعضهم دور القائد ، وبعضهم دور القويّ وبعضهم دور الضعيف ، وكأنّها قصّة « علي بابا » أو قصّة تاجر بغداد من قصص ألف ليلة

وليلة ، وعجبنا لكل من يدخل في هذه التمثيليّة ، يمثّل دوراً أسند إليه من واضع القصّة ، حاذق في صناعته ، قادر على إرادته ، يأمر أبطال القصّة فيطيعون ، وينهاهم فينتهون ، وحبلهم في يده يتحركون بتحريكه ، ويقفون بإشارته ، وكل واحد ينسى أنّه مسيّر لا مخيّر ، ومقيّد لا حرّ ، فَيَسْتَرْسِلُ في الخيال ويستغرق في الأماني ويعتقد أنّه يقوم بدوره أبداً ، وأنّه ملك دائم ، وحاكم دائم .

وقد اتخمت بهذه المعلومات التاريخيّة والتقلبات السريعة ، وزالت ثقتي بالقوة والقدرة ، والحكم والسلطان ، مهما طالت مدّتها واتّسعت رقعتها .

ذكريات عن مجالس الشيخ الإصْلاحيّة :

زرنا ضريح الشيخ الإمام عبد القادر الكيلاني ، وصلينا في مسجده أكثر من مرّة ، وهو من أعلام هذه الأمّة الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، وسارت بذكرهم الرّفاق ، وقد رزق من القبول والشهرة حظّاً لم يرزقه إلاّ القليل النّادر ، وتمثلت أمامي – وقد سعدت بترجمته والحديث عنه في كتابي « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » – أيامه الزاهرة ومواقفه المجيدة ، في مجال الدعوة إلى الإسلام ، والإقبال إلى الله ، والإقلاع عن المعاصي ، وتهذيب الأخلاق وتزكيّة النفوس ، والثورة على الآلهة الزائفة ، وتحطيم الأصنام المصطنعة ، وإخلاص الدين لله ، وإفراد الرجاء منه

والخوف[1] له ، وكيف كانت مجالسه تكتظ بالحاضرين والمستمعين ، وكيف كان يسلم فيها عدد كبير من اليهود والنصارى ، ويتوب قطاع الطريق ، وقاتلوا النفس ، والشطّارون ، والعيارون ، ويستأنفون حياة جديدة ، وكيف كانت القلوب ترق ، والنفوس تخشع ، والعيون تدمع ،

كيف لو عاش الشيخ عبد القادر ، ورأى بغداد في هذه الفترة التاريخيّة ؟

وقد عاش الشيخ عبد القادر في أوج الخلافة العبّاسية الإسلاميّة ، والإسلام في إقبال ، والدين له صولة ، والدنيا خاضعة للمسلمين ، والأعداء راغمون ، ولكنه لم يكن راضياً بالوضع الذي كان يسود في بغداد وفي العالم الإسلاميّ ، وكان يرى أنّ الإسلام قد تطرّق إليه الوهن ، والمسلمين قد تسرّب فيهم النفاق ، ودبّ فيّ المجتمع الإسلاميّ داء الأمم السابقة والمجتمعات الماضية من التقدير الزائد للمادة ، والانغماس في الشهوات ، والتكالب على حطام

---

١) ولكن من الغريب المؤسف أن دعوته للدين الخالص وقطع الرجاء من الخلق ودفاعه عن السنة المحضة لم يمنع الجهال والمسرفين في الحب والتعظيم أن يأتوا له بأعمال تنافي التوحيد ، وتعارض الإسلام ، من سجود وتمسح واستلام للقبر ، وطواف حوله ، وعن أن يتخذوا قبره عيدا ومسجداً ، وقد امتعضنا من مشاهدة هذه المناظر المخجلة ، ونبّهنا بعض المسؤلين على العناية بهذا الموضوع ، وعدم تمكين الجهّال من هذه المنكرات ، ونعتقد أن وزارة الأوقاف أو نقابة الأشراف ، قادرة على ذلك إذا صحّ منها العزم .

الدنيا وإجلال غير الله من الملوك والوزراء ، والأمراء والرؤساء ، والرجاء والخوف منهم ، وقلة العناية بالأخلاق والنفوس ولباب الدين وجوهره .

وقلت في نفسي كيف لو عاش الشيخ في هذا العصر ، ورأى المسلمين من أبناء بلده قد هووا لأصنام حديثة ، فعبدوها ، من دون الله ، وضاقوا بالإسلام ذرعاً ، وزهدوا فيه ، واستبدلوا به شرائع وديانات أخرى ، ونظما من صنع أيديهم ونسج خيالهم ، وكيف استوردوا مناهج الحياة وأساليب الحكم والنظم السياسيّة والاقتصاديّة من الخارج ، وكيف لو رأى – وكان ينكر على الخليفة المسلم الهاشميّ كثيراً من تصرّفاته وأخلاقه – قائداً مسيحيّاً أو زعيماً ملحداً لا يمتُّ إلى هذه البلاد بصلة من دين أو نسب ، يتربّع على كرسيّ هارون الرشيد وأبنائه ، ويسوق هذا الشعب المسلم العربيّ من الخارج بعصاه كما يسوق الراعي قطعانا من الغنم ؟

رثاؤه للإسلام وتوجّعه لحال المسلمين :

وتذكّرت أنّه قال في بعض خطبه وهو في بغداد القرن السادس الهجريّ الذي قويت فيه حركة العلم والإصلاح ، وقويت شوكة الإسلام في داخل البلاد وخارجها .

« دين محمّد ﷺ – تتواقع حيطانه ، ويتناثر أساسه ، هلمّوا يا أهل الأرض ، نشيد ما انهدم ونشيّد ما وقع ، هذا شيء ، وما يتمّ ، يا شمس ، يا قمر ويا نهار تعالوا .

ويا قوم ! الإسلام يبكي ويستغيث ، يده في رأسه من هؤلاء الفجّار ، من هؤلاء الفسّاق ، من هؤلاء أهل البدع والضلال ، من الظلمة ومن اللابسين ثياب الزور[1] »

هذا تألمه ممّا كان يشاهده في عصره الذي كان عصر خير وبركة ، فكيف لو أدرك هذا العصر ، ورأى جفاء المسلمين للإسلام وإقصاءهم له من الحياة وما اختاروه لهم واستبدلوه بما كان اللهُ أكرمهم به عن طريق محمّد بن عبدالله الهاشميّ القرشيّ ، وفي ظل نبوته وقيادته من علم صحيح ، وشريعة حكيمة عادلة ، وكتاب ناطق معجز نزل بلغتهم ، فنشرها في العالم وخلّدها وحفظها من التحريف ومن رئاسة وشرف وقيادة للأمم ومحبّة في النفوس ، فكانوا يحكمون من هنا نصف العالم ويجمعون بين سعادتيّ الدنيا والآخرة وبين السيطرة على القلوب والأجسام .

العراق قبل الثوره وبعدها :

كنا نخرج كل يوم في البلد نمرّ بشارع الرشيد الذي هو أقرب الشوارع إلى الفندق الذي كنا نازلين فيه ، ونتردّد بين « الرصافة » و« الكرخ[2] » فنستحضر تاريخهما والحوادث التي اقترنت بهما ، والأبيات التي قيلت فيهما ، ونمرّ بالجسر الّذي كان يصل هاتين

---

١) الفتح الرباني ، ص : ٦٦ .

٢) الجانب الغربي من بغداد يسمّى « الكرخ » وهو الذي يقول فيه أبو العلاء المعري :

المنطقتين إحداهما بالأخرى ، وما قيل فيه من شعر غزليّ ، وقد أحدثت عدة قناطر وجسور يعبر بها الإنسان دجلة التي تخترق هذا البلد العظيم .

وقد زرت بغداد في سنة ١٩٥٦ م في عهد الملك فيصل بن غازي ووزارة دولة نوري السعيد باشا ، انّه لا شك أنّه لم يكن عهداً مثالياً ولم يكن الحكم على المنهج الإسلاميّ ، لقد كانت هنالك مآخذ شديدة على سياسة البلاد وتصرّفات الولاة والأوضاع القائمة ، لقد كانت ثغرات وفجوات بين الشعب والحاكم ، لقد كان هناك استبداد وحيف وسوء تصرّف ، لقد كان ارتباط الحكومة العراقيّة بعجلة السياسة البريطانيّة موضع نقد شديد ، ومجالاً لنقاش طويل ، لقد كان من الممكن للبلاد وللأمّة أن تكون أسعد وأقوى وأهنأ عيشاً ممّا كانت عليه في ذلك العهد ، لو استقام الحكّام ، وصلح الراعي وطبقت الشريعة الإسلاميّة والمبادئ العادلة .

ولكن كنت أشعر وأنا أتجوّل في شوارع بغداد ، وأطالع وجوه

فيا برق ليس « الكرخ » داري وإنما رماني إليه الدهر منذ ليال
فهل فيد من ماء « المعرة » قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال .

وهو حيّ بغداد القديم ، ويسمّى الجانب الشرقي منها بـ« الرصافة » ، سماه بذاك هارون الرشيد ، وكان قد بنى فيه قصراً ، وفيها يقول علي بن الجهم :

عيون المها بين «الرصافة» والجسر ، جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أثرن لي الشوق القديم ولم أكن سلوت ولكن زدن جمرا على جمر .

الناس وأسمع حديثهم ، وفي ضوء تجربتي الخاصّة في هذه الزيارة الأخيرة أن البلاد كانت أكثر رخاءاً وسعادةً ، والأمّة أقوى ثقةً وأكثر حريّةً قبل الثورة التي قام بها عبد الكريم قاسم منها الآن ، لقد زرت بغداد في سنة ١٩٥٦ م فما شعرت بكبتٍ ولا ضغطٍ ولا رقابة ولا تقييد ، كنت أمشي حرّاً في بغداد وفي خارج بغداد وأنتقل من مكان إلى مكان ، وقد زرت من شئت زيارته ، وزارني من شاء زيارتي من غير أن نخشى رقابةً أو تساؤلاً ، وألقيت محاضرتي الّتي نشرت بعد بعنوان « أزمة إيمان وأخلاق » في دار جمعيّة إنقاذ فلسطين ، حضرها عدد كبير من الشباب والمثقفين ، وتكلمت فيها بحريّة ، وعلّقت على الأوضاع الخلقيّة السائدة في البلد وفي العالم الإسلاميّ وما يواجهه المجتمع المعاصر من أزمة إيمان وأخلاق ، وفقدان أصحاب الضمائر والمبادئ ، فلم يثر ذلك اهتماماً ولم يحدث ذلك لي مشكلةً ، وخرجت من بغداد كما دخلتها حرّاً كريماً راضياً مسروراً .

إنّ الإنسان مفطور على المقارنة بين الربح والخسارة ، وبين العطاء والحرمان ، وبين الكسب والخسران ، فما الّذي استفادته هذه البلاد يا ترى بعد الثورات التي قامت لإعادة الأمور إلى نصابها ، والحقوق إلى أصحابها ، وتخليص الشعب من الظلم والحيف والاستبداد وخنق الحريات وسلبها ؟ هذا سؤال نوجّهه إلى جميع المعنيين بقضيّة الأقطار العربيّة الإسلاميّة ، ولكل محبّ للحقيقة ، ورائد للحق .

حديثي في جامع الشهداء :

عين لنا ديوان الأوقاف جامع الشهداء لنصلّي فيه صلاة الجمعة ، وهو يبعد عن بغداد بعدّة كيلومترات ، ولا يصل إليه الناس في هذا الحرّ الشديد ، وفي وقت الظهيرة إلاّ بشق الأنفس ، ولست أدري كيف تسرّب هذا الخبر إلى العلماء والشباب والمتعطّشين إلى سماع الكلمة الحسنة وزيارة إخوانهم في الإسلام ؛ فقد امتلأ المسجد بالمصلّين وفوجئت بطلب كلمة ألقيها عقب الصّلاة ، فاعتذرت ، ولكن من غير جدوى ، فأحلّت الأمر إلى المسؤولين ، وخشيت أن أتورّط فيما لا يحمد ويؤثر على إخواني الذين طلبوا هذه الكلمة ، وحضروا الصلاة في هذا الجامع ، ووافق المسؤول .

وفكرت في موضوع الحديث الذي أتحدّث به فوجدت مجال الحديث ضيّقاً والموقف دقيقاً ، وهناك أسعفني القرآن – وهو دائماً يسعف الطالب الحائر وينير السبيل – وكان من الإلهام والتوفيق أنّ الأستاذ عبد الرزاق الفيّاض كان قد تلا سورة الأنبياء بصوته العذب الرنّان ، فتمسّكت بآية من آياتها ، وهي قوله تعالى : « لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ [1] » ، وفتحت لي هذه الآية الكريمة مجالاً واسعاً لحديث يمسّ القلوب ، ويتّصل بالحياة ، وينطبق على الواقع ،

فقلت : القرآن مرآة وضيئة يرى فيها الأفراد والجماعات وجوهها وتعرف مكانتها :

---

١) سورة الانبياء الآية ١٠

إخواني وسادتي ! لقد سمعت أخاً كريماً يتلو سورة الأنبياء ومرّت بي آية أثارت في نفسي معاني كثيرة ، وعبراً ودروساً عميقة ، وهي قوله تعالى :

« لَقَدْ أَنْزَلْنَآ اَلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ »

إنّ هذه الآية تنبّهنا إلى أنّ القرآن مرآة صافية وضيئة ، صادقة أمينة وفية ، يرى فيها كل إنسان وجهه ، وملامحه ، وسماته ، فيعرف مكانه من بين الناس ، وطبقته من بين طبقات الناس ، ويعرف مكانته عند الله ، فإنه كتاب يحدث عن أخلاق الناس وصفاتهم ومخايلهم ، ومجموع صور لجميع أنماط البشريّة ونماذج الإنسانيّة ، « لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ » يعني فيه حديثكم وخبركم كما فهمه كثير من العلماء ، وقد كان السلف ينظرون إلى القرآن ككتاب حيّ ناطق دافق بالحياة ، لا ككتاب تاريخيّ أثريّ يحدّث عن الّذين عاشوا في القرون الغابرة ، ومضوا لسبيلهم ، لا شأن له بالأحياء ، ولا بالحياة الإنسانيّة المتطورة والأنماط البشريّة الخالدة الموجودة في كل زمان ومكان .

وكانوا يعرفون نفوسهم وأخلاقهم جيّداً ، ولا يلتبس عليهم أمرهم ، فكانوا يستوحون هذا القرآن ، ويتلمسون وجوههم وأخلاقهم وتصويرهم الدقيق في هذا الكتاب العجيب ، وكانوا يجدون أنفسهم بسهولة في هذا الكتاب ويهتدون إليها ويعرفونها ، فيحمدون الله إذا وجدوا خيراً ، ويستغفرون الله إذا وجدوا غير ذلك ، ثمّ يقبلون على أنفسهم فيصلحونها .

تذكرت بمناسبة تلاوة هذه الآية قصّة كنت قرأتها لسيّدنا الأحنف بن قيس ، وهو من فضلاء التابعين ومن أخصّ أصحاب سيّدنا علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ، وبه يضرب المثل في الحلم فيقال : « أحلم من الأحنف بن قيس » وكان مع ذلك شديد الغيرة عظيم الحميّة ، إذا ثار وغضب ، فكان يقال : « إذا غضب الأحنف غضبت معه مائة ألف سيف » ، قرأت هذه القصّة في كتاب « قيام اللّيل » لأبي عبدالله محمّد بن النّصر المروزي (م ٢٧٥هـ) أحد كبار تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل ، والمرجّح أن هذا الكتاب ألّف في بلدكم : بغداد ، يقول :

« إنّ الأحنف بن قيس كان جالساً يوماً فعرضت له هذه الآية (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ ، أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟) فانتبه وقال : « عليّ بالمصحف لألتمس ذكرى اليوم حتى أعلم من أنا ومن أشبه ؟ » فنشر المصحف ، فمرّ بقوم « كَانُواْ قَلِيلاً مِّنَ ٱللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ، وَبِٱلأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ، وَفِيَ أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ[1] » ، ومرّ بقوم « تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ[2] » ومرّ بقوم « يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً[3] » ، ومرّ بقوم « يُنْفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّاءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ؛ وَٱللَّهُ

---

١) سورة الذاريات ١٧ – ١٨ – ١٩

٢) سورة السجدة ١٦

٣) سورة الفرقان ، ٦٤

يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ[1] » . ومرّ بقوم « يُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ ، فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ[2] » ومرّ بقوم « يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ ، وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ مَا غَضِبُوا۟
هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ، وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ[3] » .

قال : فوقف ، ثمّ قال : « اللّهم لست أعرف نفسي ههنا » ثمّ أخذ في السبيل الآخر ، فمرّ بقوم « إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ، يَسْتَكْبِرُونَ ، وَيَقُولُونَ : أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ[4] » ومرّ بقوم « إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ[5] » ومرّ بقوم يقال لهم : « ما إذا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ؟ قَالُوا۟ : لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ[6] » .

---

١) سورة آل عمران – ١٣٤ .
٢) سورة الحشر ، ٩ .
٣) سورة الشورى ، ٣٧ – ٣٨
٤) سورة الصافات ، ٣٥ – ٣٦ .
٥) سورة الزمر ، ٤٥ .
٦) سورة المدثر ، ٤٢ – ٤٣ – ٤٤ – ٤٥ – ٤٦ – ٤٧ .

قال : فوقف ، ثمّ قال : « اللهمّ ! إني أبرأ إليك من هؤلاء »
قال : فما زال يقلب الورق ، ويلتمس حتى وقع على هذه الآية « وَآخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ، عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ[1] » ، فقال : « اللهمّ ! هؤلاء[2] »

وتعالوا نلتمس ذكرنا وتصويرنا في القرآن بأمانة ودقّة وجدّ وعزم ، إنّ القرآن يقرن بين التبشير والإنذار ، ويأتي بوصف الصالحين والمنحرفين ، ويصوّر الجماعات كما يصوّر الأفراد ، فيقول « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ، وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ، وإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ؛ وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ، وإِذَا قِيلَ لَهُ : ٱتَّقِ ٱللَّهَ ! أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ، وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ[3] » ثم يعقب ذلك بقوله : « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ رَؤُفٌ بِٱلْعِبَادِ[4] » ، ويصف جماعة بقوله « يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ ،

---

١) سورة التوبة – ١٠٢ .
٢) كتاب « قيام الليل » طبع ملتان ، الهند – باكستان حاليا – سنة ١٣٢٠ ، ص ١٣
٣) البقرة – ٢٠٤ – ٢٠٥ – ٢٠٦ .
٤) البقرة – ٢٠٧ .

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ، ذَلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ[1] » ويصف جماعة بقوله « مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنْتَظِرُ ، وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً[2] » ، ويحث على الشكر وتقدير النعمة ، فيذكر الأنبياء وأتباعهم ، ويحذر من كفران النعمة وبطرها ، وتبديل نعمة الله كفراً ومعاملة الآحسان بالآساءة ، فيقول محذّراً منذراً « أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْراً ، وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ[3] » ، ويضرب مثلاً بقرية بطرت معيشتها وجحدت النعمة فقال : « وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً : قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ ، فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ[4] » .

إنّ النماذج الخلقيّة والمعنويّة التي عرضها القرآن باسم بعض الملوك الجبابرة ، كـ« فرعون » ، وبعض الأمراء والوزراء الطغاة ، كـ« هامان » ، وبعض الأغنياء الأثرياء الأشحّاء المتكبرين كـ« قارون » ، وبعض الأمم القاهرة العاتية الظالمة كـ« عاد » و« إرم » ذات العماد ، وبعض الأمم الحاذقة في الصناعات ، المتأنّقة في المدنيات كـ« ثمود » ، كلّها أنماط بشريّة خالدة لا تختصّ بزمان

---

١) المائدة – ٥٤ .

٢) الأحزاب ، ٢٣ .

٣) سورة ابراهيم ، ٢٨ .

٤) سورة النحل ، الآية ١١٢ .

دون زمان ، وهي تمثل نواحي من الفطرة البشريّة ، ومواضع ضعف وانحراف فيها ، وقد حدّث القرآن عن هذه الجماعات والأفراد ومصيرها الّذي صارت إليه ، وسيلقى كل من يسير على آثارها ويتّخذها إماماً وقدوةً ، نفس المصير ونفس العاقبة « سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً[1] »

فانهال الناس عليّ يصافحون ويعانقون ويقبّلون ، وهمس في أذني أحد الحاضرين فقال : « لقد كان الجمع عشرة أضعافٍ وأكبّت بغداد عليك ، لو كانت الأوضاع طبيعيّةً ، والناس في حرّيتهم .

أسف على عدم زيارة البصرة :

وطلبنا أن نزور « البصرة » بلد العلم والزهد والدعوة في التاريخ القديم وأكبر مدينة بعد دمشق في العهد الأمويّ ، ومركز سيّد التابعين الحسن البصريّ ، ولكن كان الجواب القديم : لعلّ السيّد رئيس الجمهوريّة يطلبكم فلا يجدكم ، وأردنا أن نعرّج على البصرة في طريقنا إلى الكويت ، ومن هنا نتوجّه إلى عمّان ، فلم يتفق لنا ذلك .

مغادرة بغداد :

وغادرنا بغداد مساء الأحد وفي النفس شوق إليها ، وتقدير لها .

---

٢) سورة الأحزاب ، الآية ٦٢ .

٣) قد تناول الكاتب هذا الحديث بشيء من التنقيح والزيادة والإيضاح حين أراد أن يسجّله في هذا الكتاب .

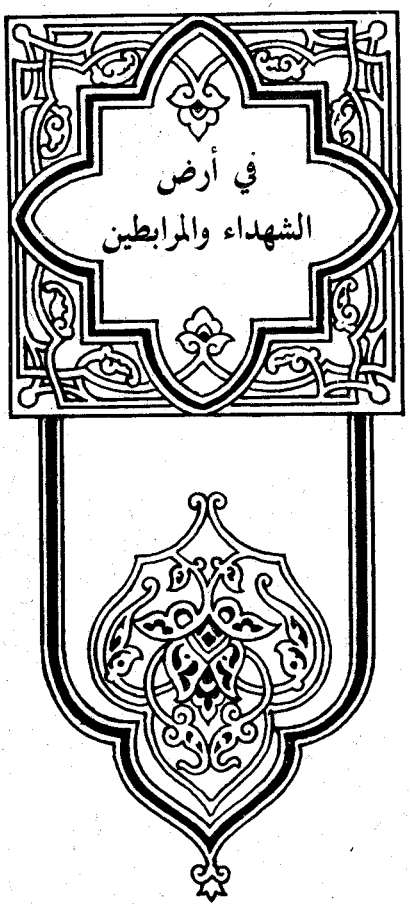
في أرض
الشهداء والمرابطين

بسم الله الرحمن الرحيم

من بغداد الى عمان :

كانت نهاية المطاف في هذه الجولة التي انتظمت أربعة أقطار عربية اسلامية ، شرق الاردن ، ولعل ذلك كان خيرا ، فقد كان في هذا القطر متنفس ومجال للحديث والتعبير عن العواطف لم نجدهما في الاقطار التي تحكمها الحكومات الجمهورية الشعبية ، وهي تتعير وتعاف أن تحكمها أسرة أو شخص وتعتبر ذلك رجعية وتخلفا لا مسوغ له في هذا العصر الراقي المتحرر.

غادرنا بغداد مساء ليلة الاثنين (٢ / ٨ / ٧٣ م) في الساعة التاسعة في الليل تقريبا ، وكان في توديعنا السفير السعودي وبعض أساتذة بغداد ممن يشتغلون بالتدريس في السعودية ، ونزلنا في مطار البصرة ، وقضينا هناك ساعة ، وقد أحيل بيننا وبين زيارة هذا البلد العلمي التاريخي الذي كان مدرسة مستقلة في الدين والعلم ، والادب والنحو، وفوجئنا في المطار بوجود القنصل السعودي . . . . وكان حريصا شديد الحرص على زيارتنا للبصرة ، وقضاء بعض الوقت فيها تحت ضيافته الكريمة ، وقد سررنا جميعا بهذه الزيارة المفاجئة ، وركبنا الطائرة للكويت حيث بتنا تلك الليلة ،

ونزلنا في فندق « شيراتون » وأكرمنا فضيلة الشيخ عبد الرزاق الصالح ، وصديقنا الدكتور عبد اللطيف خان ، والاخ العزيز ابراهيم الحسني بزيارتهم ، وجلسوا معنا قليلا ، ثم تركونا لنستريح .

وفي صباح يوم الاثنين (١٣ / ٨ / ٧٣ م) توجهنا الى عمان ، ووصلنا قبل الظهر ، واستقبلنا في المطار وكيل وزارة الاوقاف الاستاذ عبد خلف ، وسعادة الاستاذ كامل الشريف ، سفير الاردن في باكستان ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الاسلامي ، والقائم بالاعمال في السفارة السعودية الاستاذ محمد ميمش وآخرون ، وتوجهنا من المطار الى فندق الاردن « انتركونتيننتال » وذكر لنا الاستاذ كامل الشريف في الطريق أن جلالة الملك حسين لما علم قصد الوفد لزيارة المملكة الاردنية الهاشمية رحب بها ، وأبدى سروره ، وأنه من المتوقع ان يدعو اعضاء الوفد للمقابلة في ظرف اقامته في العاصمة ، وقد شكرناه بدورنا على هذه الروح الطيبة والكرم الذي لم يكن مستغربا من هذه الاسرة الكريمة .

ضيافة وزارة الاوقاف ومناسبة الموسم الثقافي :

نزلنا في الفندق في ضيافة وزارة الاوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية ، التي يتولاها ويشرف عليها معالي الدكتور اسحق فرحان ، وكانت هذه الوزارة تحتفل في هذه الايام بالموسم الثقافي ، وتنظم محاضرات ونوادي علمية لنشر الثقافة الاسلامية ، وايجاد الوعي الاسلامي ، وكان قد اتصل بنا وكيل الوزارة ونحن

في دمشق يدعونا للاسهام في هذا الموسم ، وكان معالي الوزير وجّه دعوة الى كاتب هذه السطور الى مقره في الهند ، فانتهزت الوزارة فرصة زيارة هذا الوفد للاردن وأنزلت أعضاء الوفد في ضيافتها الكريمة ، ونظمت المحاضرات والزيارات واللقاءات ونشرت برنامج الزيارة .

زارنا في الفندق معالي وزير الاوقاف ، وهو من رجال التربية والتعليم المعدودين في الشرق العربي ، ومن أصحاب الفكرة الاسلامية ، وكان يجمع في السابق بين وزارة التربية والاوقاف ، ثم فصل بينهما أخيرا ، وقد عرفناه من خلال كتاباته الاسلامية ، وكان بعض بحوثه حول منهج التربية والتوجيه في البلاد الاسلامية من احسن ما قرأناه في هذا الموضوع ، ووجوده في الوزارة مكسب كبير بالنسبة الى البلاد ، وان كان محله الطبيعي في وزارة التربية والتعليم ، وزارنا كذلك مدير الاعلام في الوزارة الاستاذ « علي فريج » والدكتور عبد الله عزام ، الذي عين مرافقا للوفد ، وهو من خيرة الاخوان الذين تعرفنا بهم في هذه الجولة التي ابتدأت من كابل وانتهت الى عمان ، دينا وتقوى ، وغيرة ونشاطا ، والاستاذ عز الدين الخطيب مدير عام الوزارة ، والاستاذ حسن التل رئيس تحرير « اللواء » الاسبوعية .

مع معالي الوزير وزملائه :

بدأ الوفد نشاطه يوم الثلاثاء ١٤ – ٨ – ١٩٧٣ م في الساعة التاسعة صباحاً بزيارة معالي وزير الاوقاف والشؤون والمقدسات

الاسلامية في مكتبه ، وبقي أعضاء الوفد ساعتين مع معاليه ، يتحدث اليهم عن نشاط وزارة الاوقاف ، ومجالات عملها وانتاجها وتطورها في العهد الاخير، وأنها كانت تخاطب الاموات أولا فأصبحت تخاطب الاحياء وتعني بشؤونهم اضافة الى مهمتها الاولى ، وتقوى الصلة بينهم وبين التعاليم الدينية ، والثقافة الاسلامية وتنميها ، وكان حديثه حديث واع ناضج ، قد فهم رسالة الاسلام ورسالة العلم وروح العصر ، ومرونة مؤسسة « الوقف » الاسلامية وصلاحيتها لمسايرة العصر ومجاراة المسلمين في حاجاتهم ومتطلباتهم في ضوء الكتاب والسنة ، والفقه الاسلامي الواسع ، واستعرض في حديثه الجهاز الاداري ، والمؤسسات التابعة لوزارته ، ومظاهر النشاط في المملكة استعراضا دقيقا شاملا ، استفدنا منه معلومات كثيرة في وقت قليل ، وأخذنا فكرة واضحة منسقة عن هذه الوزارة التي تستطيع أن تمثل دورا خطيرا في الاحتفاظ بالثروة الاسلامية القديمة مع الزيادة في الثروة الحديثة .

وخرجنا في الساعة الحادية عشرة لزيارة المعهد الشرعي واجتمعنا بمديرة الشيخ محمد ابراهيم شقرة ، وهو من خيار المربين والموجهين في هذا البلد الاسلامي وطاقة دينية تربوية ، يجمع بين الرسوخ في العلم ومتانة العقيدة ، واستنارة الفكر ، وقوة البيان ، اشتغل مدرسا في الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة مدة من الزمان ، وقد زار الوفد كذلك مدرسة القرآن الملحقة .

لقاء مع الملك حسين :

وكان المفروض أن نزور المركز الثقافي الاسلامي – فرع النساء – ولكننا فوجئنا – ونحن نستعد لصلاة الظهر في المسجد المجاور للمعهد الشرعي – بطلب مستعجل من جلالة الملك حسين للمقابلة في القصر، فصلينا الظهر، ثم قصدنا مكتب معالي وزير الاوقاف لنتوجه منه الى القصر في معية الاستاذ كامل الشريف الذي كان يرافق الوفد الى القصر كعضو في الوفد ودليل .

وصلنا الى القصر ووجدنا هناك سعادة الشيخ محمد أمين الشنقيطي سفير المملكة الاردنية الهاشمية في السعودية، وقد جاء في مقابلة للملك وزيارة للعاصمة قريبا، وتذكرنا بوجوده مقابلتنا الاولى لجلالة الملك المرحوم عبدالله بن حسين جد الملك الحالي قبل ٢٢ سنة في قصر « رغدان » يوم الثلاثاء ٦ – ١٠ – ٧٠ هـ ١٠ – ٧ – ٥١ م ومقابلته الثانية في يوم الجمعة ٩ / ١٠ / ٧٠ هـ ١٣ / ٧ / ٥١ م وها نحن نقابل اليوم حفيده الكبير، ولكن ما أوسع الفرق وما أضخمه بين الامس واليوم .

انها فترة قصيرة بالحساب الرياضي مدة اثنتين وعشرين سنة، وما أقصرها من مدة في تاريخ الامم والأشخاص، وفي تاريخ الأسر والحكومات، وقد تتوالى أعقاب وأجيال في مدة قليلة و تتداول الحكم، وتتربع على العرش، ولكنها فترة طويلة، اذا قيست بالحوادث والتطورات، والربح والخسارة،

والتغيير في خارطة العالم عموما وفي هذا البلد خصوصا ، السياسية والجغرافية .

ان الملك حسين قد وزث عن جده الكبير مملكة تواجه تحديات ومعضلات وتناقضات قلما تواجهها الحكومات والمملكات في هذا العصر ، وقد اختير للقيادة والحكم في فترة من أدق الفترات وأكثرها تعقدا ، ثقل لا ينوء به إلّا القادة العصاميون ، وقد آمنت بضعف الانسان وقصر هذه الحياة وسرعة التقلب حين كنت أمشي من غرفة الاستقبال الى غرفة الانتظار ، ومن غرفة الانتظار الى مكتب الملك ، وكأني أشاهد مسرحية أو أرى رؤيا ، فقد فوجئت وأنا في بيت مضيفي الكريم الشيخ قاسم الأمعري تاجر عمان ، وعلى مائدته بطلب مستعجل من جلالة الملك عبد الله ، وقيل لي : « ان سيدنا [1] يريدك » . فلبيت الدعوة مسرعا ، ثم فوجئت وقد انصرفت من صلاة الجمعة في الجامع الذي صلى فيه الملك ، وقيل لي : « ان سيدنا يريدك » وقد توجه هذا الطلب المفاجئ من حفيده العظيم وقيل لنا : « ان سيدنا في انتظاركم » ، فما أشبه الليلة بالبارحة ، ولكن ما أعظم الفرق بين الامس واليوم !

دخلنا في مكتب جلالة الملك ، فمشى بضع خطوات لاستقبالنا ، وفتح الباب ، وأبدي دماثة وتواضعا زائدا ، واعتذر أنه يقابلنا في

---

١) أهل الأردن يخاطبون ملكهم بهذه الكلمة ، وقد اقتبسوها من الحجاز ، وجروا على هذه العادة .

هذا الزي الذي كان فيه ، ثم جلسنا جلسة لا تكلف فيها ولا آداب ملوكية ، وتكلمنا بكل حرية وصراحة ، وتطرق الحديث الى وضع البلاد الدقيق المحرج الممتحن للذكاء والايمان القوي والعزم الصادق ، وانه تصوير لقوله تعالى : « حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه »[1] ، فقد شاهدنا بالعيان ، وجربنا عمليا أنه لا ملجأ للمسلمين وللعرب عموما ، ولهذه المملكة التي تقع بين فكي الاسد ، أو طبقي الرحا ، وتعيش على شفرة السيف وسنان الرمح خصوصا إلا إلى الله ، ولا عاصم لها اليوم الا الايمان بالله ، والاخلاص لهذا الدين ، والاعتماد على صلاحية الاسلام للبقاء والقيادة ، وتطهير الحياة من كل ما يبعد النصر ، ويثير الغضب ، ويزيد في الضعف ، والدخول في السلم كافة ، كما يقول القرآن ، وترك المحاربة لله والرسول والايمان بقوله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم »[2] . وذكرته بمسؤوليته العظيمة نحو اللاجئين الفلسطينيين وعقيدتهم ، وعقيدة أطفالهم وأجيالهم المقبلة ، وأن لا يتركوا تحت رحمة المبشرين المسيحيين ، وجمعية غوث اللاجئين ، تستغل وضعهم الشاذ المزري المغري الذي يعيشونه ، وقلت : « إنها أكبر مسؤولية في الدنيا والآخرة ، واننا جميعا موقوفون أمام الله ، مسؤولون عن هؤلاء البؤساء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله واعترفت ببعض مواقفه الحاسمة الحازمة ، والبطولة الفريدة التي ظهرت منه في بعض المجالات .

وقلت للملك : « ان بعض الصالحين في الزمن السابق كان يقول : « لو لم تكن لي الا دعوة مستجابة لجعلتها لولي الامر ، فان في صلاحه صلاح البلد ، وفي فساده فساد البلد » . واني وان لم أكن بهذه المكانة ولكني أتجاسر وأقولها للملك » .

ولم يكن من جلالته الا حسن الاصغاء والتواضع ، وقد شارك في الحديث الزميل المحترم سعادة الاستاذ أحمد محمد جمال ، وسعادة الاستاذ كامل الشريف ، وقد قال الاستاذ أحمد محمد جمال : « انني قلت في مناسبات كثيرة ، وما بقي لنا أمل الا في الفيصل والحسين » .

وانتهى المجلس ومشى الملك يودعنا ، وسلمنا عليه ، وعدنا الى محلنا في الفندق .

زيارة المؤسسات الاسلامية في البلد :

وفي يوم الاربعاء ٧٣/٨/١٥ م خرجنا في الساعة التاسعة صباحا ، وزرنا بناء المستشفى الاسلامي الخيري الكبير الذي تقوم بانشائه جمعية المركز الاسلامية الخيرية في عمان ، وهو مشروع عملاق ، اذا كمل كان من أكبر المستشفيات في هذه المنطقة الاسلامية العربية ، وسد حاجة كبيرة في البلد الذي نشطت فيه الجمعيات التبشيريّة ، والمؤسسات المسيحية الغربيّة في انشاء المستشفيات ، ودور الاسعاف الطبي ، وكانت مركزا كبيرا للدعوة الى المسيحية ، والدخول الى النفوس والعقول من جانب رقيق

ناعم حساس. وهو العطف على المريض وازالة ما يعانيه من وجع وسقم، أو التخفيف منه على الاقل، والكلمة الرقيقة اللطيفة التي تمس القلب، وتحل عقد النفس، ولا شك أنه أضعف جانب وأرقه في حياة الانسان.

وقد قطع هذا المستشفى شوطا كبيرا من البناء والتصميم، وقد طاف بنا الاستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ومساعده الاستاذ مشهور حسن حمود المدير العام للجمعية، وللمشروع المستشفى، وحكى لنا ما حققه هذا المشروع من النجاح، وكيف استطاع أن يستفيد ببراعة المهندسين الكبار، وحذاقة الاطباء أصحاب الشهرة العالمية، وهو مبنى على أحدث طراز، مؤثث بأرقى أثاث، وسيلحق به مسجد كبير، ومركز ثقافي، وقاعة محاضرات، ومكتبة اسلامية، ومنزل للممرضات، ومعهد تمريض وقبالة.

وزرنا مسجد الجامعة الاردنية، ولا يزال في دور البناء، ينبئ عن جامع كبير لائق بالمركز الجامعي الحساس، وزرنا مديرية أوقاف عمان، وقضينا بعض الوقت مع كبار المسؤولين، وزرنا مكتبة المسجد الأقصى وهي من احدى المكتبات الكبيرة التي زرناها في جولتنا، وهي غنية بالكتب الاسلامية، وجدت فيها أكثر مؤلفاتي المطبوعة في بيروت والقاهرة.

وزرنا مسجد أحمد قارة أحد المساجد الرئيسية في العاصمة، ومنه يذاع الاذان الموحد في أوقات الصلاة الخمسة، وهي فكرة طريفة لم تجدها في مكان آخر، والفكرة جديرة للنقاش والتفكير،

فقد يتعطل المذياع أو ينام المؤذن ، ويفقد أهل البلد الاذان ، هذا عدا أن هذا يفقد فضل الاذان وما وعد عليه من الثواب في مساجد أخرى من مساجد البلد ، وتجولنا في أنحاء هذا المسجد العظيم وقاعاته ، ومكتبته المنسقة تنسيقا حديثا ، وأعجبنا بجمال البناء وحسن النظام .

وزرنا أرض مشروع دار الأيتام ، وبجوارها مركز لاستقبال الحجاج القادمين من القرى والبوادي واستراحتهم .

نظرة على اللاجئين الفلسطينيين :

ومررنا في طريقنا بأحد الملاجئ الفلسطينية ، ورأينا اطفال اللاجئين – وهم ينحدرون عن أصول شريفة كريمة لها دور في تاريخ الفتح الاسلامي والدعوة الاسلامية – وما يعانونه من فقر وبؤس ، تتفتت له الاكباد ، وتدمع له العيون ، ورأينا مركز جمعية « شلنر » الالمانية ، وما تحتوي عليه من شعب ومكاتب واسعاف طبي ، وتموين وتغذية ، وتعليم وتربية ، فقلنا : « لقد رفع الحاجز بين الذئب والخروف وتركا وشأنهما ، فما بقاء الخروف المسكين الجائع الهزيل أمام هذا الذئب القوي السمين ، والفطرة هي الفطرة ؟

في جمعية المركز الاسلامي الخيرية :

زرنا في المساء جمعية المركز الاسلامي الخيرية ، وهي في الحقيقة مركز نشاط بقايا « الاخوان المسلمون » ودعاتهم ،

يقودهم ويشرف عليهم صديقنا القديم الزعيم الاردني المجاهد الاستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ، وهو من خيرة العاملين في حقل العمل الاسلامي الذين تعرفنا بهم في الخمسينات الاولى ، وكان أول لقاءنا به في دمشق عام ١٩٥٦ م يوم جاء الى دمشق ليحضر المؤتمر الاسلامي الذي دعا اليه صديقنا العزيز الدكتور سعيد رمضان ، ويدعو الضيوف لزيارة القرى الامامية ، وملاجئ الفلسطينيين في الاردن ، ثم جاءنا في الهند وزار قريتنا الصغيرة ليدعوني لحضور المؤتمر الاسلامي ، الذي أزمع على عقده ، وأراد ان يكون له السبق في تكريمنا ، فعقد حفلة تكريم وتعارف في مركز الجمعية ، حضرها عدد كبير من أعيان البلد والعاملين في الحقل الاسلامي وأصحاب الفكرة الاسلامية ، وكبار المثقفين وعلماء البلد ، وحضر معالي وزير الاوقاف ، والاستاذ كامل الشريف وغيرهما ، وتقدم الاستاذ محمد عبد الرحمن خليفة ، فألقى كلمة رقيقة متحمسة ، رحب فيها بالوفد ، وعرف أعضاءه الى الحاضرين ، وذكر صلته العزيزة القديمة ببعض أعضاء الوفد ، وذكر ما لهذا البلد من مكانة ومركز دقيق حساس في العالم الاسلامي والعالم العربي .

حديثي عن مسؤلية البلد الاسلامي المرابط :

وقمت بعده ، فألقيت الكلمة الآتية :

« الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ! أما بعد فاني اشكر الاستاذ محمد عبد الرحمن خليفة على كلمته الرقيقة الكريمة

التي تفضل بها ، ولا نستغرب فانها حديث أخ عن أخ ، ومحب عن محب ، يلتقيان على العقيدة والفكرة ، ويشتركان في العاطفة والشعور ، واشكره بصفة خاصة على اتاحته فرصة التعرف على هذه الصفوة المختارة من رجال الفكر والدعوة ، وللتحدث اليهم ، انها قيمة هذه المرحلة الطويلة ، فاننا لم نقم بهذه المرحلة لزيارة المعالم والآثار، بل قمنا بهذه المرحلة للاجتماع بالاخوان والحديث اليهم وتبادل الرأي معهم .

اخواني ! لقد كان المتوقع المطلوب من اخواننا العرب الساكنين في هذه الديار حمل الدعوة الاسلامية ، وحمل مشعل الاسلام الى الاقطار البعيدة ، ولا شك انهم قاموا بدورهم في العصر الاول ، ونحن في شبه القارة الهندية ، ندين لهم بهذا الفضل ، فقد أكرمنا الله بالاسلام عن طريقهم ، ولم تزل بلادكم مصدر الاشعاع الاسلامي ، ولم نزل نستمد من تاريخ هذه البلاد تاريخ الغزوات والفتوح ، والجهاد في سبيل الله ، وتاريخ البطولة الاسلامية ، الايمان والثقة والاعتزاز بالدين ، والصمود في وجه التيارات العنيفة التي كانت تغزو المسلمين بين حين وآخر ، وقوة المقاومة للدعوات المعارضة للاسلام ، بل الصبر على المكاره والمصائب ، ونستمد منه العزاء والسلوى في الحوادث ، فقد كان تاريخ فتوح الشام هو الملجأ الذي يلجأ اليه المسلمون ويستمدون منه الايمان والحماس وقوة المقاومة للنوازل والحوادث ، انني لا أزال أذكر أيام طفولتي حين كانت السيدات يجتمعن وتنشد احداهن ترجمة فتوح الشام للواقدي في الشعر الاردي ، هذه الملحمة الاسلامية

الكبيرة التي نظمها أحد أفراد أسرتنا نقلا من فتوح الشام للواقدي ، وكانت تحتوي على خمسة وعشرين ألف بيت ، وكنا ندخل في هذه المجالس في حاجة من حاجات الاطفال التي تكثر وتتجدد ، فنأتي الى أمهاتنا أو اخواننا فنرى العيون تذرف والدموع تهطل ، وسحابة من سكينة وايمان تحلق على رؤوس السيدات المؤمنات القانتات الصالحات ، وهن يسمعن أخبار هذه المعارك التي يخوضها الصحابة والتابعون ، ويكثر فيها القتلى أو الجرحى وتتناثر فيها الرؤوس وتسيل فيها الدماء ، ويفجع المسلمون في أعز اخوانهم وأحب أقاربهم فينسين حادثتهن الشخصية بجنب هذه الحوادث الاسلامية العامة ، وتغمرهن موجة من الحماس الديني ، والشوق الى لقاء الله ، والصبر على المكروه ، وهكذا كان الرجال يتناشدون هذه الملحمة ويستمعون اليها في شوق ولهف ، ويسري في عروقهم تيار كهربائي من الايمان والبطولة ، والحنين الى الشهادة ، وكانت عادة متبعة وتقليدا شائعا في الاسر الاسلامية الكريمة وأوساطهم .

أقول : لقد كان المتوقع المطلوب في ضوء هذه التجارب وفي ضوء هذا التاريخ المشرق الزاهر أن يقوم اخواننا العرب في هذه البلاد التي انطلقت منها قوافل الدعاة الى الله ، والدعاة الى دينه الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فينقلون هذه الرسالة الى أنحاء لا تزال بعيدة عن الاسلام ، ويفتحون للاسلام مناطق جديدة ، ولكن من المؤسف المحزن ، ومن عجائب الدهر أنه قد أصبح المطلوب المنتظر منكم اليوم أن تحافظوا على هذه

الارض التي هي مادة الاسلام ورصيده ورأسماله ، والعالم الاسلامي كله امتداد لهذا المركز الاسلامي ، وظل لهذا الاصل ، فأنتم في الصميم ونحن والمسلمون جميعا على الهامش ، نستمد منكم القوة والثقة والاعتزاز ، والشرف والكرامة ، وبقدر قوتكم يقوى العالم الاسلامي ، وبقدر عزكم وشرفكم يعز العالم الاسلامي ويشرف ، ان كل وهن يقع هنا يتجسم ويتضخم في عواصم العالم الاسلامي ومدنه ، ولا يستطيع المسلمون أن يمشوا رافعي رؤوسهم معتزين في دلهي اوكراتشي ، أو في جاكرتا أو في أي بلد اذا أصابكم ذلّ أو ضيم .

تعلمون جميعا أيها السادة أن هذه المنطقة كان يحكمها الرومان قبل الفتح الاسلامي ، وكانت المسيحية هي ديانتها السائدة وديانتها الرسمية ، وكانت من أعز ممتلكات الحكومة البيزنطية وأحبها اليها ، ومن أخصب البلاد وأكثرها خيرات وطيبات ، وكانت فيها مقدساتها الدينية ، ومولد المسيح ومنشأ النصرانية ، وأرادت حكمة الله ولطفه بعباده أن ينتشر فيها الاسلام وتدخل في وصاية المسلمين وحضانتهم ففتحها العرب ونشروا فيها الإسلام ، وانتشرت فيها حضارتهم ولغتهم ، وأصبحت وطنا اسلاميا وعربيا ، فكان طبيعيا ان تهتم بذلك أوربا المسيحية وأن يشغل ذلك خاطرهم ، انني لا أعتقد ان اهتمام القوى الكبرى في أوربا بهذه المنطقة ظاهرة طارئة ، وتحول جديد في تفكيرها وتاريخها ، انهم بالعكس ظلوا مستشرفين لهذه المنطقة ، طامحين اليها ، لم تمر بهم ساعة تناسوها فيها وصرفوا النظر عنها ، وقد كانت منهم محاولات

لاسترداد هذه المنطقة والاستيلاء عليها ، وكان من ضمنها الحروب الصليبية التي يعرفها الجميع ، وكانوا يستخدمون كل الطرق والوسائل لتحقيق هذا الغرض ، ولكنها تبوء بالفشل ، لأن الذين اختارهم الله للاحتفاظ بهذه البلاد والحكم عليها كانوا اقوياء أمناء أوفياء ، وكانوا فوق كل مساومة وأبعد من كل تنازل ومن كل استسلام ، ومن كل خذلان وخيانة ، أذكر منهم على سبيل المثال السلطان صلاح الدين الايوبي داحر الصليبيين ، ومعيد مجد المسلمين ، وكان حكام هذه البلاد وقادة المسلمين – على علاتهم واختلاف نزعاتهم – أمناء في قضية قدسية هذه البلاد وكرامتها ، واقول : إن الاتراك العثمانيين كانوا غيارى على هذه المقدسات والاماكن الاسلامية ، فقد استطاعوا أن يحرسوا هذه البلاد ويظلوا محافظين عليها طيلة خمسة قرون ، انني لا أتصل بهم بنسب ولا بوطنية ولا بقومية ، ولا لغة ولا ثقافة ولكنني أقوله تقريرا للواقع وانصافا للتاريخ ، وشهادة للحق ، فأخفقت هذه المحاولات كلها ، ومن الشواهد التاريخية على ذلك أن الدكتور هرتزل رئيس المؤتمر اليهودي الذي يعتبره كثير من الناس « نبي الصهيونية » قابل السلطان عبد الحميد خان وطلب منه أن يسمح بانشاء وطن قومي لليهود في ظل العرش العثماني ووعد في مقابل ذلك بتسديد ديون الحكومة العثمانية ، وكانت كثيرة باهظة وانشاء اسطول بحري للدولة على نفقة اليهود وقدم اضافة الى ذلك أموالا لانعاش الدولة العثمانية ، هذا عدا الهدايا الثمينة ذات قيمة كبيرة يقدمها اليهود « للذات الهمايوني » يعني شخص السلطان

عبد الحميد خان ، فكان جواب السلطان عبد الحميد خان رحمه الله على كل ذلك أن قال : ادخروا هذه الاموال لمصالحكم ، أما انا فكل أموال اليهود في العالم لا تساوي حفنة تراب في القدس الشريف وكان نتيجة ذلك أن اليهود أطاحوا بعرش السلطان عبد الحميد خان واضطهدوه وآذوه وهو معتقل ، وعرف الطامحون الاوربيون أنه لا سبيل لهم الى ذلك ، وكانت الدولة العثمانية على ما أصابها من ضعف ووهن صرحا كبيرا للقوة الاسلامية ، يهابه الاجانب ، وكانت كعود[1] ينصبه الفلاح في مزرعته ويلقى عليه ثوبا فيحسبه الطائر انسانا واقفا أو شبحا مخيفا فلا يقربه ، وحين يسقط العود أو يطلع غراب ذكي على أنه عود أو يراه ساقطاً على الارض تعينه فيه الطيور وتأتي عليه وهذه قصة هذه البلاد التي كانت تحكمها الدولة العثمانية تهابها الاعداء وابتعدوا عنها مهابة لهذه الدولة الحامية ، فلما انهار هذا الصرح ، وسقط هذا العود المخيف تجاسروا عليها وعاثوا فيها .

واجه الغرب بعد انسحاب الدولة العثمانية وبعد الحرب الاولى قادة وزعماء في هذه المنطقة ، قد أثرت فيهم الماديّة وأثرت فيهم الحضارة الغربية ، وأثر فيهم نظام التعليم الغربي الحديث ، ونخر فيهم كما ينخر السوس في الخشب فيكون أجوف لا تماسك فيه ، أو ترابا تذروه الرياح ، وأصيبوا بفقد الضمير والغيرة الدينية ،

---

١) المجدار.

والامانة والوفاء للبلاد ، والوطنية الصادقة ، فطمح الغرب في هذه البلاد وعرف أنه قد جاء دور المساومة وشراء الضمائر ، والاستحواذ على هذه المنطقة العزيزة اليهم في كل زمان ، فقد خضع قادتنا للقيم المادية خضوعا لم يعرف من قبل ، وصاروا ينظرون الى الدنيا العاجلة والحياة الفانية بغير العين التي كانوا ينظرون بها في السابق ، إن المسلمين كانوا يسمعون قول الله تعالى : « انما الحياة الدنيا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيواة لو كانوا يعلمون » . وقوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد » . وكانوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : اللهم لا عيش الا عيش الآخرة . وصاروا ينظرون الى الدنيا ومتاعها ، وفخارها وجاهها كأنها هي الغاية القصوى ، واستولت عليهم شهوة الحكم ولو كان ذلك على حساب المبادئ والاخلاق والكرامات والأعراض والمقدسات .

إن أول معركة أيها الاخوان تقوم في ضمير الانسان وفي قلبه قبل أن تقوم في ساحة حرب او ميدان قتال ، فاذا انتصر الانسان في هذه المعركة فالانتصار محقق في المعارك التي تقوم في الخارج ، ان معركة الضمائر تتقدم وتفوق على المعارك الحربية ، وقد انهزمنا في معركة الضمائر وأصبحت ضمائرنا معروضة للبيع والشراء ، مستعدة للمساومة والمقاولة ، فزالت كل عقبة في سبيل الطامعين والطامحين ، وأصبح الطريق مفتوحا مكشوفا للداخلين والسالكين ،

وحينئذ وقعت هذه البلاد تحت أقدامهم ، يتصرفون فيها كما يشاؤون وينفذون مخططاتهم ومشاريعهم وهي لا تدافع عن نفسها ، فانما يمنع عن الخيانة والغدر بالبلاد والشعوب اما دين متين وهو الجدير بكل اعتماد وثقة ، واما وطنية صادقة ، وهي التي تمنع قادة الشعوب الاوربية وبعض الشعوب الشرقية عن الخيانة وبيع البلاد بثمن بخس ، وماذا يمنع سادتنا وزعماءنا عن ذلك اذا كان لا دين ولا وطنية ، لذلك نسمع كثيرا أن بعض القادة وزعماء الاحزاب سلموا أجزاء ثمينة من الوطن العربي الاسلامي ، ومناطق استراتيجية للعدو ، أو أنهم وكلاء مصالحهم وأغراضهم السياسية ، وقد يبدو للناظر أنهم أشد اخلاصا لهم وحرصا على مصالحهم من أنفسهم .

انكم أيها السادة على أدق ثغر من ثغور الاسلام وفي آخر حصن من حصونهم وقد وصل الفيضان الى أسوار المدينة ، إذا تخطي هذه الاسوار فلا شيء يوقفه ، أنتم على خط الدفاع الاخير ، فاذا تخطى هذا الخط فالعالم الاسلامي كله مفتوح مكشوف ، وأنظار المسلمين كلهم عليكم ، وأنتم مقياس قوتهم وشرفهم ، ومصدر عزهم وكرامتهم ، وانني لا أقول لكم اتقوا الله في أنفسكم وبلادكم ، وفي شرفكم وكرامتكم . بل أقول اتقوا الله في اعراض المسلمين وكراماتهم ، وفي عز الاسلام وكرامته . اتقوا الله في الشعوب الاسلامية التي تنظر اليكم كمثل للمسلم الاول وحامل رسالة الاسلام الاولى ، اتقوا الله في النسمات والارواح التي لا تزال في أصلاب الآباء وأرحام الامهات ، التي لم تعرفكم

ولم تعرفوها ، وهي اما تحمد الله وتشكركم على حماية المقدسات والحرمات ، وتهيئة أسباب الشرف والكرامة ، والاعتزاز بالماضي والافتخار بالآباء ، واما تشكوكم الي الله من تضييع هذه المقدسات ، وتلويث ماضيها وتوريطها في العار والذل .

أن هذا الاجتماع وهذه الفرصة الكريمة قد أثارت في قلبي شجنا وأحزاناً ونكأت الجروح ، فانني أعتبر قضية الاسلام والمسلمين قضية واحدة ، وأعتبر البلد الاسلامي بلدا واحدا ، وأرى كل حادث يفجع المسلمين وكل شبر من العالم الاسلامي يتنازلون عنه رزيئة وفاجعة ، وأرى قضية فلسطين تتمثل في كل مكان ، فأقف عندها وقفة خاشع دامع ، وأنشد قول الشاعر العربي متمم بن نويرة :

لقد لامني عند القبور على البـــكا
رفيقي لتذراف الدموع السُـــوافك
فقال : أتبـــكي كـــل قبر رأيتـــه
لقبر ثـــوى بين اللـــواء فالدكادك
فقلت له ؛ ان الشجا يبعـــث الشجـــا
فدعني فهذا كله قبر مـــــالك

وقام بعدي الاستاذ يوسف العظم فألقى كلمة بليغة قوية في الترحيب بالوفد والشكر على زيارته ، تعرض فيها بما يقاسيه المسلمون بصفة عامة ، وهذا البلد بصفة خاصة من محنة قاسية ، وأوضاع شاذة ، وصراع فكري ونفسي .

في دار المؤتمر الاسلامي :

زرنا في الساعة السابعة مساء المؤتمر الاسلامي الذي يرأسه الاستاذ كامل الشريف ، وتعرفنا على مجموعة طيبة من أعضاء المؤتمر والمتصلين به .

تكريم من معالي الوزير :

أقام معالي وزير الاوقاف حفلة عشاء على شرف الوفد الضيف في مجمع النقابات حضرها لفيف من كبار الوجهاء والاساتذة ، كان من جملتهم صديقنا القديم والعالم الجليل الشيخ مصطفى أحمد الزرقاء ، وهو يشتغل الآن مدرساً في كلية الشريعة في عمان ، وعاكفا على وضع قانون اسلامي مدني ، من المؤمل أن يطبق في المملكة ويكون قانونها المدني العام .

لقاءات :

وفي يوم الخميس ١٦ – ٨ – ١٩٧٣ م أكرمنا بالزيارة واللقاء عدد من كبار العلماء والمثقفين ، منهم الاستاذ تيسير الظبيان رئيس رابطة العلوم الاسلامية ، وسعادة الشيخ محمد أمين الشنقيطي والمجاهد الكردي الشيخ أمين بروسك ، وقد قابلناه في زيارتنا الاولى سنة ١٩٥١ م وحفظنا له بيتا أبرق به الى الدكتور مصدق رئيس وزراء ايران يومئذ الذي استرعى انتباه العالم بتأمينه للبترول في ايران ومواقفه البطولية :

لقفت عصاك عصيهم فتصايحـــــوا

لا سحر بعد اليوم ، أنت مصـــــدق

ولم يزل يمتعنا بحديثه ، وحكايات كفاحه وأبياته ، ولم يزل يتردد الى الوفد مدة اقامته في عمان .

محاضرة في السلط :

كان اليوم موعد محاضرة لكاتب هذه السطور في السلط فتوجهنا في الساعة الرابعة في العصر وقد أيقظت فينا مناظر الجبال والاودية ، وانعطاف الطرق ووعورة المسالك ، الشعور بعلو همة العرب الفاتحين لهذه البلاد ، والحاملين لمشعل الاسلام ، وأوحت إليّ بأن يكون حديثي اليوم عن العرب الأولين الذين أكرمهم الله برسالة الاسلام فنفخت فيهم هذه الرسالة روحاً جديدة ، وحياة جديدة ، ونقلتهم من حياة محدودة مفصولة عن العالم ومن سجن مظلم ضيق إلى حياة أوسع ومجال أفسح ، وقارنت بين الجاهلية والاسلام ، وذكرت ما كان للاسلام من فضل في بعث العرب وبعث العالم من جديد ، وكان الحفل مشهوداً والمكان غاصاً بالمجتمعين ، ولقيت الكلمة حسن الاستجابة وحسن القبول .

في دار الاستاذ كامل الشريف :

أقام سعادة السفير السيد كامل الشريف حفلة عشاء في داره على شرف الوفد الضيف .

بين عمان واربد :

كان يوم الجمعة ١٩٧٣/٨/١٧ م مخصصاً لزيارة « اربد »

وهو البلد الاسلامي الرئيسي بعد عمان في الاردن ، عرف بوضوح السمة الاسلامية وقوة العاطفة والغيرة الدينية وهو يقع على الحدود الشمالية من الاردن – وكانت رحلة تاريخية أثرية غنية بالمشاهد والمناظر ، والآثار « والعادات » ، ومررنا في طريقنا بعد خروجنا من عمان بسهل يسمى البقعة ، وزرنا هناك مخيماً من مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، وهو عبارة عن بيوت حقيرة قامت على جدران رقيقة من قرميد أو صفائح من الاسمنت ، وفي القرية أسواق ودكاكين ، ويسودها جو من البؤس والفقر ، وبجوار هذه القرية مدرسة تبشيرية لتعليم الأطفال .

ونزلنا عند « جرش » وهو الآثار الرومانية العتيقة الباقية ، الناطقة بما بلغته المدنية في عهد الرومان من الزهور والاناقة والفن المعماري ، والولوع بالفنون الرياضية ، ومظاهر الفتوة حتى بلغت حد القسوة والوحشية ، والتفرج والتسلي بتعذيب الإنسان واهانة انسانيته ، ومناظر الاحتضار مما حدث عنه تاريخ الأخلاق وتاريخ المدنية في أوروبا ، ولا يزال مدرج الألعاب الرياضية آثار ظاهرة ومقاعد مرصوفة وأعمدة شامخة ، ومن المدينة طرق مرصوفة تؤدي الى الملعب المدرج ، وشوارع مبلطة تنبىء عن عناية بالنظام وذوق رفيع بالهندسة .

وبعد ما خلفنا جرش وراءنا استقبلنا سهل آخر ، وفيه مخيم اللاجئين الفلسطينيين يسمى : « سوف » ، ومررنا – قبل أن نصل الى اربد – بمخيم آخر يسمى بمخيمات الحسن .

ارتسامات الحدود الشماليّة :

تركنا « اربد » بجانب وواصلنا سيرنا الى الحدود الشمالية حتى وصلنا الى المنطقة الجبلية ، ووقفنا في قرية تسمى « أم القيس » وهنا استقبلتنا مرتفعات « الجولان » التي دوى اسمها في العالم في الأيام الأخيرة لأهميتها الاستراتيجية ، وما بيننا وبينها الا واد عميق نحن واقفون على رأسه ، وفي هذا الوادي يجري نهر اليرموك منعطفاً ملتوياً كأنه حية تلتوي وتنساب ، واستعرضنا قصة اليرموك وثارت الأحزان وهاجت الذكريات ، وتنكأت الجروح ، وأنشدنا بيتي الشاعر الاندلسي صالح بن شريف الرندي :

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ان كان في القلب اسلام وايمان

وتقع في هذا الوادي قريتان عامرتان إحداهما على جنوب النهر والاخرى على شماله ، وكانت لسوريا سيطرة وحكم في الجهة الشمالية من النهر ومن مرتفعات الجولان الى مسافة بعيدة ، وكان الاردن ولا يزال يحكم الجهة الجنوبية ، وأزال الحكم السوري من المنطقة الشمالية في سنة ١٩٦٧ م واستولت اسرائيل على الجولان .

ولما شاهدنا مرتفعات الجولان بعيوننا عرفنا من الحقيقة والواقع ما لم نكن نستطيع ان نفهمه ولو قرأنا خمسين كتاباً ، اننا وقفنا مشدوهين أمام هذه التحصينات الطبيعية التي أكرم الله بها بلاد الشام وحصنها تحصيناً لا يتطرق بفضلها ، وهن الى هذه البلاد التي ظهرت فيها العناية الالهية من طرق شتى ولا يدخلها عدو من

الجانب الا اذا جحد ابناؤها بهذه النعمة ، وهانت عليهم هذه الأرض التي تدر لبنا وعسلاً ، ومثلت دوراً رائعاً بنّاءً في الدعوة الاسلامية والفتح الاسلامي والحضارة الاسلامية ، وهانت عليهم ذممهم وأعراضهم ، انها قلعة تعطي ولا تؤخذ ، وتسلم خيانة ولا تنزع عنوة ، وهي الآن في يد اسرائيل وتستطيع مدافعها أن ترسل قنابلها الى اربد في جانب ، والى دمشق في جانب آخر .

وفي شمال جولان بحيرة طبرية وعلى ساحلها المدينة الاسرائيلية ، المعروفة بطبرية ، وهي تبدو واضحة جلية للواقف على قلل أم القيس ومن شاطىء نهر اليرموك الواقع في المنطقة الاردنية يستطيع الناظر أن يرى المنطقة السورية ، التي استولت عليها اسرائيل ، وهي لا تبعد عنها الا بضعة كيلومترات ، وفيها تقوم القرية المعروفة السورية « الحمة » مع منائر مساجدها الخالية ، وبيوتها الخاوية ، وقد أنشأت اسرائيل في تلك الجهة شوارعا وطرقاً كما اقتضت الضرورة .

رجعنا محزونين بهذه الزيارة وأدركنا صلاة الجمعة في أحد الجوامع المدنية الكبرى ، وقد خطب للجمعة خطيب كان بارعاً في خطبته ، ثم تغدينا في بيت أحد أعيان البلد ، واسترحنا قليلاً ، وصلينا العصر ، وخرجنا الى قاعة المحاضرات وهي غاصة بالمجتمعين ، وفيهم عدد كبير من السيدات المثقفات ، وتلقانا الحاضرون بتحيات اسلامية ، وهتافات حماسية ، وقلوب متلهفة دلت على روح البلد الاسلامية .

محاضرتي في إربد « نظرات الى الاسلام » :

وكان موضوع المحاضرة « نظرات الى الاسلام » ، وقد ذكرت أنواعاً من النظرات التي ينظر بها طبقات مختلفة من المسلمين الى الاسلام وقيمته ، ودوره ومستقبله ، فمنهم من ينظر الى الاسلام كدين ونظام لا محل لهما في هذا العصر « العلمي الذري » ، وأحسنهم من يعتقد أنه دين قد أدى رسالته ، وقام بدوره الاصلاحي في دنيا محدودة ، وعصر متخلف ، فأزال بعض العيوب الاجتماعية ، وحارب بعض العقائد الخرافية ، وأدخل بعض اصطلاحات طيبة ، وكان لا يخلو من الفائدة في عصر لم ينتشر فيه العلم ، ولم تتقدم فيه المدنية ، ولم تكتشف فيه الوسائل الحديثة ، فمنهم من يقول متسامحاً متنازلاً « كثّر خير ، » وقد ساهم في التقدم بالبشرية ، وأسدى معروفاً ولكنه الآن أشبه ببندقية فارغة قد أفرغت شحنتها وأطلقت رصاصتها ، ومن قبيل اضاعة الوقت واضاعة القوة أن نجربه في هذا العصر الذي بلغ القمة في المدنية والصناعة ، وفي العلم والسياسة والحكمة ، وهو عصر « الذرة » .

وناقشت هذه النظرة الخاطئة التي لا تنصف الاسلام ولا تفهمه ، ولا تفهم طبيعة هذا العصر وما يعاني من مشكلات وأزمات لا حل لها ولا مفتاح عند قادة الفكر وزعماء العصر ، ولا يعرف الدور الذي يستطيع الاسلام أن يمثله في أنقاذ الانسانية ، وحل المشكلات واعادة الأمور الى نصابها .

قلت : وفيما يختص بالعرب فقد أخفقت جميع تجاربهم للنظم والفلسفات التي آمنت بها الشعوب المعاصرة ، وجربتها ، ونجحت بعض النجاح ، أما العرب فلم يفلحوا ولم تستقم أمورهم حين تبنوا الحركة القومية أو النظام الاشتراكي ، أو الفلسفة الشيوعية ، وكانوا أسوأ حالاً من قبل ، وقد دل ذلك على أن الله ربط مصيرهم بمصير الاسلام وعقد بينهما صلة خالدة لا تنقطع ولا تنفصم ، ويدل على أنهم أمة مختارة ذات الرسالة المعينة ، والأهداف المعينة ، وأنهم قد اختيروا لحمل رسالة الاسلام والمحافظة عليها والاحتفاظ بها ، والغيرة عليها ، وايثارها على كل رسالة ، وأن مثلهم في ذلك كمثل التلميذ الحبيب المدلل الذي قد هيء لأن يكون معلماً حاذقاً ، وعالماً كبيراً كان فيه امارات النبوغ والعبقرية ، فتشتد به عناية المعلم فلا يسامح في الاهمال والتغيب عن الكتاب أو المدرسة ، ولا يترك حبله على غاربه ، ولا يتسامح معه ويغض الطرف عنه كما يتسامح عن التلاميذ الأغبياء ، والشباب الغرباء ، ولقطاء الطريق ، وشذاذ الآفاق ، بل يعاقبه اذا أخطأ ، ويطلبه اذا غاب ، وينبهه اذا غفل .

وقد دلت الحوادث الأخيرة ، وما تعيش فيه الأقطار العربية من قلق وذعر واضطراب ، أنه لا ملجأ لها الا الاسلام واخلاص الدين لله ، ونبذ النفاق والحياة اللاهية الساهية التي تكثر فيها المهازل والملاعب والرخاوة والرقة ، والاستهتار والمجون ، والايمان بفلسفة اللذة والمتعة ، وأن تعيش كما تعيش الشعوب والبلاد في حالة الطوارىء ، وعلى الحدود والثغور حياة تقوم على التقشف

والاقتصاد ، والجهد ، والتهيؤ والاستعداد ، واعداد العدة والعتاد لتحيا حياة شريفة كريمة ، وتستحق النصر من الله .

استقبلت الكلمة بالتأييد والتحسين وسجّلت . وخرجنا من اربد ونحن نسمع الكلمة المسجلة في الأسواق والبيوت .

وفاة القائد عبد الله التل وتعزية أسرته :

فوجئنا ونحن ندخل في عمان بنبأ وفاة القائد الاسلامي الكبير المجاهد الاستاذ عبدالله التّل ، وقد قابلته في ١٩٥١ م في بيت الاستاذ محمد علي الطاهر ، وكنا نسمع أخبار جهاده في ميدان فلسطين وحسن بلائه واستقامته في قضية فلسطين ، وهو كاتب مؤلف أيضاً ، وحزنا لهذا النبأ ، والقائد عبدالله التل من أبناء اربد ورأينا من حقه علينا وعلى كل مسلم يقدر جهاده ووفاءه لمبدئه وللاسلام أن نعزي أسرة الفقيد ، ونجلس مع اخوته ساعة فزرناهم في بيتهم وعزيناهم في فقيدهم الكبير وتحدثنا عن موقفه ، وأبدينا مشاعرنا نحوها .

وسائل الاضعاف المعنوي والخلقي :

رجعنا الى عمان ونحن نمرّ كّل مرة ذهاباً وإياباً بمدينة الملاهي الذي تقوم في احدى ضواحي العاصمة ، ونعجب بوجودها في هذا الظرف القاسي الذي آخذ فيه بخناق الشعب ، ويتوقع حالة حرب في كل وقت ، وسمعنا أن في المدينة سبعة أحواض للسباحة والاستحمام أو « مسابح » (Swiming pools) يختلط فيها الفتيان بالفتيات ، وكان أحد هذه الأحواض متصلاً بفندق

عمان » الذي كنا نازلين فيه ، وفي المدينة عدد كبير من دور السينما ، ومراكز التسلية الحرة ، والبلد واقف على فوهة بركان لا يدري أحد متى ينفجر ، وهذا وضع البلد السياسي والحربي والديني .

وقد علمنا أن القوة الخارجية الأجنبية تغذي هذا الوضع المنافي لروح الاسلام الجدّية المتقشفة ، وتشجع على استمراره وتوسعه ، وقد اقتنعنا بدراسة أوضاع الأقطار الاسلامية ، وما تجتاحها من موجات التحلل والانهيار الخلقي ، أن لأمريكا قسطاً كبيراً في اتجاه هذه الأقطار الى ما يجعلها فريسة لهذه الغزوات الفكرية والخلقية ، وتلجئها الى أن تعيش عيالاً على امريكا متطفلة على فتاة مائدتها ، وأن تبقى منافسة ضعيفة مهلهلة لاسرائيل الفتاة الدافقة بالحيوية والرجولة والنشاط ، وأن للفاتيكان كذلك مصالح في بقاء هذه الأوضاع واستفحالها .

في كهف أهل الكهف :

زرنا يوم السبت ١٨/٨/١٩٧٣م مغارة أهل الكهف في احدى ضواحي عمان في قيادة العالم الأثري الكبير الاستاذ رفيق وفا الدجاني المساعد الفني لمدير الآثار العامة في الاردن ، وهو مقتنع كل الاقتناع بأنه هو المكان الذي آوى اليه أصحاب الكهف الذين جاءت قصتهم في سورة الكهف ، وفي المصادر المسيحية ، وكتب التاريخ والأدب ، ولما كنت عالجت الموضوع في كتابي « الصراع بين الايمان والمادية » أو « تأملات في سورة الكهف »[1] ،

---

١) طبع دار القلم الكويتية ، سنة ١٣٩١ هـ .

ورجحت ما ذهب اليه الاكثرون أن هذه القصة وقعت في مدينة « أفسوس » أو « أفيسس » وهي احدى المدن الآيونية الاثنتي عشرة من الأناطول على الجانب الجنوبي من نهر قسيطرة ، على مسافة ٦٠ (كم) من أزمير في آسيا الصغرى ،[٢] وهي الآن في تركيا ، ويسمى : « طرسوس » ، وأن كهفهم الذي آووا اليه كان في نواحي هذا البلد في جبل قريب كان يسمى بـ(Anchilis) والاستاذ يلح على أن المكان هو كهف الرحيب الذي كنا نزوره ذلك اليوم ، وهو يبرهن على ذلك بدلائل وآيات لها قيمتها العلمية ، والأثرية الكبيرة ، وقد استقصاها في كتابه « اكتشاف كهف اهل الكهف » وقد أهدى الينا نسخة منه ، وطاف بنا الاستاذ الفاضل على هذه الغارة ووقف بنا على الآثار والشواهد التي تدل على أنه هو المكان الذي ينطبق عليه ما جاء في وصفه في القرآن ، وقد جعلنا بحثه العلمي واطلاعه الواسع على أن استعرض ما كتبته وأستأنف النظر فيه ، وأستفيد بمعلوماته ، والحق قديم والعلم دائما في حاجة الى تجديد وزيادة ، وكهف الرجيب يقع على مسافة ٨ كم جنوب شرقي عمان ، ويقول الاستاذ أنه ذهب الى ذلك المقدسي وياقوت والسائح الهروي والبيروني وغيرهم ، والله أعلم وعلمه أحكم ، ولا شك أن الاستاذ ثروة علمية غالية للمملكة ، يجب أن تقدر وتستثمر ، وهو من كبار المخلصين لفنه ، ومن كبار علماء الآثار في الشرق العربي .

---

٢) راجع الكتاب ص : ٢٦ .

تغدينا في ضيافة النائب المحترم الشيخ عبد الباقي جمو نائب الزرقاء في المجلس النيابي في بيته العامر بالزرقاء ، وقد حضر الغداء عدد كبير من العلماء وأعيان البلد وكبار الأساتذة .

في الندوة العلمية :

كان اليوم يوم ندوة علمية كانت أفضل ثمار هذه الجولة ، وقد انعقدت في ٣٠ ، ٥ مساء في قاعة الكلية العلمية الاسلامية ، وحضرتها نخبة من الاساتذة الكبار والمثقفين وفضلاء البلد ، والمعنيين بالثقافة الاسلامية . وأدارها الاستاذ محمد ابراهيم شقرة بلباقة ومقدرة ، وشارك كاتب هذه السطور ، والاستاذ أحمد محمد جمّال ، والاستاذ كامل الشريف ، وكان العنوان : دور الشباب المسلم في المجتمعات المعاصرة » والى القارىء الكريم الأسئلة التي وجهها المدير الفاضل ، ونص ما أجاب به كاتب هذه السطور .

أسباب حيرة الشباب وعلاجها :

وقد قدم الاستاذ محمد ابراهيم شقرة للندوة مقدمة قيمة صور فيها واقع الشباب ووقوعهم فريسة لحيرة تورطوا فيها ، وصور العالم الاسلامي من أقصاه الى أقصاه تصويراً دقيقاً شاملاً ، تعرض فيه للطاقات والفلسفات المتنافسة التي تتوزعه وتتحكم فيه ، ثم وجه السؤال الأول وهو :

« أستاذنا ! العالم الاسلامي بأسره اليوم يعيش حيرة مردية ، عقيدة وتصوراً وسلوكاً ، وأبرز ما تكون هذه الحيرة في الشباب

المسلم في بلادنا خاصة ، فنريد أن نعرف أولاً ، ما هي الأسباب التي خلقت هذه الحيرة أو ساعدت على وجودها ؟

وكان جوابي على ذلك كما يلي منقولاً من الشريط المسجل بعد تنقيح وتهذيب .

« يسعدني جداً أن أكون موضع ثقة في هذه الندوة العلمية ، وأن يوجه إلي والى زملائي هذا السؤال الذي هو في صميم الواقع ، وهو تصوير واقعي للواقع الذي نعيش فيه » .

اني أصارحكم أيها السادة ! اني كنت مستغرباً جداً اذا لم يكن الشباب الاسلامي في حيرة كما تجدونه وتشعرون به ، ان الشجرة لا تلام على ثمرتها ، ان في أمكان البستان أن لا يغرس شجرة من الشجرات ولكن ليس من المعقول وليس من الطبيعي أنه اذا غرس شجرة معينة ، ثم سهر عليها ، وغذاها ونماها ، وسقاها وأحيى ليالي متوالية ، وقف في وهج الشمس ، وفي البرد القارس ليحرس منها هذه الشجرة ، ولتؤتي أكلها بعد حين ، ثم اذا آتت أكلها الطبيعية لامها ونزل عليها غضباً وأنكر منها هذه الشجرة ، هذا شيء غير معقول وغير طبيعي ، لأن طبعية الشجرة هي طبيعة الشجرة منذ خلق الله هذا الكون ، ومنذ خلق هذه الشجرة ، فشجرة الزيتون هي ستعطي ثمر الزيتون وشجرة الرمان ستعطي الرمان ، وهكذا .

ان من أعظم الأسباب في هذه الحيرة التي يعانيها الشباب المسلم بصفة خاصة وشباب العالم عامة ، هو التناقض في التوجيه

والاعلام والتربية ، تناقض بين ما ورثوه وبين ما يعيشونه ، وبين ما يلقنونه تلقينا وبين ما يطلبه منهم علماء الدين ، هذا التناقض العجيب الذي سلط عليهم ومنوا به هو السر في هذه الحيرة ، هذه الحيرة المردية ، هنالك عقائد آمنوا بها كمسلم ولد في بيت اسلامي في أسرة اسلامية ، ونشأ على كثير من العقائد وتلقاها بوعي أو بغير وعي ، ثم إنه نشأ في بيئة دينية تؤمن بمبادىء الاسلام ، وقرأ التاريخ الاسلامي – اذا أكرمه الله بذلك وتسنت له هذه الفرصة الكريمة – وكان سعيداً بوجوده في بيئة واعية دينية ، ثم سيق – ومعذرتي الي اختيار هذه الكلمة ، لأنه لا يزال في سن مبكرة وليس له خيار – الى دور ثقافة يسمع فيها من أولئك الأساتذة الذين يجلّهم ، لأنهم أصحاب اختصاص وأصحاب زعامة في كثير من العلوم ، كل ما ينقض ما أبرمته البيئة ، وكل ما غرسته في قلبه وعقله من التربية الاسلامية . يسمع ويرى كل ما ينفي كل ذلك ، أو ما يقلل قيمته على الأقل ، فيقع في تناقض عجيب وفي سراع فكري عنيف ، وهذا الصراع الفكري يدوم معه الى أن يشاء الله ، أو تحدث معجزة ، أنها حقاً في هذه البيئة التي نعيش فيها ، صراع من أدق أنواع الصراع ومن أصعب أنواعه ، الصراع بين القوى المتعارضة ، أنه قد يواجه الصراع في ساحة القتال ، ومدة ساعة القتال قصيرة وان طالت ، ولكن هذا الصراع يعالجه دائماً ، أنه يعالجه في المسجد ويعالجه في المدرسة ، ويعالجه في البيت ، ويعالجه فيما بينه وبين نفسه ، هذا الصراع المرير الهائل العميق يتلقى من مؤسسة « الأعلام » ومؤسسة الصحافة بالمعنى العام ،

ومن التلفزيون الذي جاء حديثاً ، يسمعون اذاعات وأحاديث وبرامج تقضي على البقية الباقيه من آثار التربية القديمة ، وتحدث فيهم ثورة فكرية وقلقاً نفسياً ، والصحافة التي هي « صاحبة الجلالة » في نظر كثير من الناس تقدم اليهم في أول النهار الغداء الفاسد العفن ، والمواد المثيرة المهيجة للعواطف ، قبل أن يكسر الصفراء على تعبير اخواننا السوريين ، وقبل أن يتلو شيئاً من القرآن ، فأول ما يقع عليه نظرهم صورة عارية لفتاة ، وعناوين مثيرة للغرائز ، أو مقالات مثيرة للشكوك مزعزعة للايمان والثقة ، فيتلقون هذا في رغبة ونهاية ، وفي شوق واستجابة ، انه يقع في أيديهم كتب علمية لها عناوين هائلة ، وأسماء مرعبة صادرة من أناس آمنوا بفضلهم وعبقريتهم ، فيرون ما يشككهم في الدين ، يشككهم في التاريخ الاسلامي ، يشككهم في مصادر الشريعة الاسلامية ، وحتى في مصادر اللغة والأدب الأولى ، ويشككهم في صلاحية هذه الأمة ، وفي خلود الرسالة التي يحملونها يشككهم في صلاحية اللغة العربية ، فيتلقون هذا المزيج العجيب ، وهذه الخميرة العجيبة ، من أفكار ومبادىء واغراءات ومن نظريات علمية ، ويقعون من كل ذلك في حيرة لا تعدلها حيرة ، فخليق بكل هذا أن يوقع الانسان – وان كان ناضج الفكرة ، مختمر العقل حصيف الرأي – في حيرة ، فكيف بالشباب الغض الناعم ، وكيف لهذه البراعم الناعمة التي لم تتفتح بعد ، كيف يرجي منهم أن يقفوا أمام التيارات المتسارعة .

ان مثل ذلك أيها الاخوان السادة ! كمثل عجلة أو مركبة

ركب فيها فرس في الأمام وركب فيها فرس في الوراء وكلاهما قويان ، فكما أن هذه العجلة من المعقول جداً أن يكون ركابها في حيرة من أمرهم ، هذا يجرها الى الأمام ، وهذا يجرها الى الوراء فكذلك الشباب يتأرجحون في أرجوحة يميناً وشمالاً .

ان الأدب الذي لم يزل يواجهنا منذ خمسين سنة على الأقل من العواصم العربية الكبرى ، التي كان لها التوجيه ، وكانت لها الزعامة الفكرية والدينية ، وهذه غرست في قلوب الناشئة وفي قلوب الشباب ، بل في قلوب كثير من الكهول بذوراً من الشك والاضطراب ، تشككوا حتى في وجودهم ، تشككوا في كل ما تواتروا واستفاض وأصبح من قبيل البديهيات ، إن هذه الكتب التي أريد من ورائها رزق أو شهرة ، أو زعامة فكرية ، أو هتاف وتصفيق حاد ، ان هذه كلها غرست في قلوب شبابنا الشك والحيرة والتناقض ، فأنا لا أستغرب هذا الوضع ، وهذا هو السبب الرئيسي والسر في حيرة الشباب .

ثم وجه الاستاذ سؤالاً ثانياً وهو « ما هو العلاج الصحيح لهذه الحيرة التي يقع فيها الشباب » ؟ وكان جوابي على ذلك : « انني أعتقد أن أول خطوة نخطوها نحو انقاذ الشباب من هذه الحيرة المردية هي توحيد نظام التعليم ، ولستم في حاجة الى شرح هذه النقطة إن المعسكر التعليمي موزع قسمين ، المعسكر الديني ، والمعسكر اللاديني أو العلماني ، أو المعسكر القديم ، والمعسكر الجديد ، وهذه الثنوية أو الازدواجية في التعليم هو السبب الأكبر

في خلق هذه الحيرة التي يعيشها الشباب ، فأول خطوة نخطوها الى الغاية الصحيحة لإزالة هذه الحيرة ، هو تنسيق غايات التعليم ومولد التعليم ، فهنالك كما قلت تناقض في المواد الدراسية فالذي يبنيه تعليم يهدمه تعليم آخر ، فكذلك العلوم التي لم تكن لها صلة بالعقائد هي كذلك لها اتصال بالعقائد ، وما أصبح التعليم مجرداً ، ان اعتقاد أن من التعليم ما هو محائد وما هو نزيه كل النزاهة ، وما هو بعيد كل البعد عن التأثير في العقيدة قد أصبحت نظرية قديمة ولا نصيب لها من الصحة ، فالخطوة الأولى الخطوة الثورية الجذرية هي إحداث تنسيق في نظام التعليم . فلا قديم ولا جديد ولا ديني بالمعنى اللاهوتي ، وبالمعنى الكهنوتي المسيحي الأوروبي ، لا بالمعنى الاسلامي الصحيح ، فلا تعليم لاهوتي ولا تعليم دنيوي أو زمني أو علماني ، بل التعليم وحدة لا تتجزأ ، انما ينقسم بين غايات ووسائل ولا بد أن تكون بين هذه الوسائل وحدة تربطها وتخضعها للغاية الأساسية .

ثم ازالة النفاق يعني هذا التناقض الذي يعبر عنه لسان الشريعة ، ولسان القرآن بكلمة : « النفاق » لا أعني بالتنسيق التنسيق بين تعليم قطر وبين تعليم قطر آخر ، انما أعني به التنسيق في تعليم القطر ، ان هذا يحتاج الى قلب نظام التعليم رأساً على عقب ، يعني احداث نظام تعليمي كوحدة متكاملة متناسقة ، وهذا يحتاج الى ثورة عارمة ، الى ثورة جريئة ودقيقة وشاملة ، ويحتاج طبعاً الى أناس عندهم الاصالة الفكرية ، لا يعيشون متطفلين على مائدة الغرب . انه يحتاج الى الاجتهاد في المواد

الدراسية ، وهذا يحتاج طبعاً الى مشاريع عملاقة ، والى جهود كبيرة واسعة النطاق عميقة الجذور ، وتحتاج كذلك الى أن تتبناها الحكومات الاسلامية والمجامع الاسلامية الكبيرة فاذا نجحنا في تطوير نظام التعليم تطويراً جديداً ، وإذا نجحنا في ازالة النفاق عن هذا المجتمع الذي نعيش فيه اذن من المؤمل أن ننقذ الشباب من هذه الحيرة المردية

ثم وجه الاستاذ سؤالاً ثالثاً وهو : « لعل أستاذنا أبا الحسن يبين لنا الدور الايجابي الذي ينبغي للدولة أن تقدمه لهذه المؤسسات حتى يتم التناسق الصحيح بين هذه المؤسسات كلها » .

وكان جوابي على ذلك :

في الحقيقة أن دور الدولة عظيم وحاسم في ازالة هذه العوامل الهدامة وفي رد المجتمع الى حياة سليمة لا صراع فيها ولا حيرة ، ولكن هذا يتوقف على أن تكون عند الدولة فكرة واضحة – لست أعني دولة دون دولة ، ولا أعرّض بدولة ، انما هو موضوع علمي – فكرة واضحة عن الدين الذي تؤمن به وتدين ، وعن الأهداف التي تتبناها وتريد أن تعيش هذه الأهداف ، ولا تعيش فقط بل تنموا وتزدهر واذا آثرنا التعبير الاسلامي الديني ، قلنا : « الايمان والعقيدة » ايمان راسخ ، وعقيدة جازمة بفضل الاسلام أو بفضل الأهداف التي يدعو اليها ويعيش لها ، وأن تكون متمسكة بمبدأ الهداية لا الجباية[1] .

---

١) وتمثل هذه الفكرة خير تمثيل جملة مأثورة عن سيدنا عمر بن عبد العزيز

ثم الاخلاص والعزم الصادق والتضحية التي لا غنى عنها ، هذه كلها عوامل لوجود بيئة مناسبة أو الاجواء المناسبة لنمو الشخصية الاسلامية واكمالها ووصولها الى الغاية المطلوبة .

ثم ختم الندوة بالسؤال الأخير وهو : « ونترك في الختام التعليق على هذه الخطوة الأخيرة الاستاذ أبي الحسن صاحب التجارب الكثيرة التي مر بها في دور الشباب والكهولة ، وهو الآن في دور الشيخوخة ، ولا بد أخيراً من نصيحة فيها الى الشباب بارك الله فيـــه » .

قلت : لست متشائماً ولا يائساً من دور الشباب ومن صلاحيتهم ومن حضهم على أن يعملوا شيئاً في مجال الدعوة الاسلامية ، والفكرة الاسلامية ، وفي أن يمثلوا دورهم كشباب مسلم في هذا المعترك الفكري الذي لم يشاهد تاريخ الانسانية معتركاً فكرياً مثله ، ان الشباب طبقات وأقسام كثيرة وليس هناك طراز واحد من الشباب ، اننا شاهدنا عدداً كبيراً من الشباب يتلهفون شوقاً الى أن يلعبوا دورهم ، وهم في استعداد تام وعندهم التألم الشديد مما هو واقع حولهم ، ان هؤلاء الشباب هم أمل اليوم وجيل المستقبل ، وفي الحقيقة ان الشباب هم الذين يستطيعون أن يحولوا هذا التيار ، وعندي من المعلومات ما تؤكد لي أن في الشباب مجالاً واسعاً للعمل الاسلامي والفكر الاسلامي ، وعندهم

يخاطب بها أحد عماله الذي شكا اليه انتشار الاسلام والنقص في الجزية : « ويحك ! ان محمدا ﷺ انما بعث هاديا ولم يبعث جابيا » .

قلق والقلق أول خطوات النمو والتقدم والتحصن ، ان الشباب قلقون اليوم ، وان الحضارة الغربية قد عجزت عن تسليتهم وارضائهم ، وأن هنالك فراغاً لم يملأ ولا يمكن أن يملأ كما تفضل الاستاذ كامل الشريف ، ان هنالك دينا واحداً يستطيع أن يملأ الفراغ الهائل الذي أحدثته أوروبا بين القلب والروح والجسم والمادة ، وهذا من خصائص الحضارة الغربية التي لها تجارب خاصة ، ومراحل معينة مرت في رحلتها الطويلة ، ولكن مع الأسف الشديد ومن سوء حظ الانسانية لما آلت القيادة الى أوروبا آثرت هذه التجارب في تفكير الامم التي كانت في عزلة عن هذه التجارب ، تجارب مجتمع خاص ، كانت لدينه طبيعة خاصة ، وقد حدث فيه صراع بين الكنيسة والحكم ، وصراع بين تعليم الدين ، وصراع بين الكهنوت والعقل السليم والعلم الحديث ، هذا كله من تجارب الغرب وكان الشرق غنياً عن هذه التجارب لم يكن منها في عير ولا نفير ، لكن فرض الغرب وفرضت الثقافة الغربية هذه التجارب وانطباعات هذه التجارب ، ومردود هذه التجارب ، وقيمة هذه التجارب ، فنظرية « الدين قضية شخصية » و « الفصل بين الدين والسياسة » ، هذه كلها تجارب الامم الاوروبية لظروف خاصة ، وأجواء خاصة وللطبيعة المسيحية التي دانت بها أوروبا ولكنها قد أشركت فيها الشعوب الشرقية من غير سبب ومن غير مبرر ، فهذا الفراغ موجود في الشباب ، والشباب بدءوا يشعرون بهذا الفراغ إن ما نشاهده من انحرافات وشذوذ ومن مبالغات ومن تطرف في حياة الشباب ، وكل ذلك شعور لهذا الفراغ ،

وانني أستطيع أن أقول في ضوء تجاربي ومشاهداتي في الشرق وفي آسيا إن الشباب فيهم قابلية واستعداد كبير ليكونوا قادة حركة جديدة ، وليخوضوا هذه المعركة

ولكننا نعيش في عزلة عن الشباب وعندنا كثيْر من سوء تفاهم ، ومن اساءة ظن ومن جهل للوضع الذي يعيش فيه الشباب ، فإذا ملئت هذه الفجوة بين الكهول والشباب ، وبين الدعاة الى الدين وبين الشباب الجامعيين والشباب المثقفين بالثقافة الغربية ، يمكن أن نجرد عدداً كبيراً ونجعلهم مقتنعين مستجيبين لهذه الدعوة متحمسين لها ، ولكن ذلك يحتاج الي مخططات دقيقة عميقة ، مخططات علمية مدروسة ، يحتاج ذلك الى مكتبة جديدة ، يحتاج ذلك الى أسلوب جديد في الحديث مع الشباب ، يحتاج ذلك الى الحكمة التي أشار اليها القرآن بقوله : « أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » يحتاج ذلك الى أن تكون عندنا أقلام قوية بليغة ، وأن تكون عندنا تلك المقدرة البيانية والطلاوة الأدبية ، وحلاوة التعبير التي لا يمكن لدعوة أن تشق طريقها الى الاسلام وأن تنفذ في عقول الشباب وفي نفوسهم عن غير هذا الطريق .

اننا نرى مع الأسف الشديد أن كثيراً من علمائنا الأفاضل يعتبرون التضلع من آداب اللغة والحصول على تلك المقدرة البيانية والأسلوب البليغ الذي يدخل الى قرارة النفوس من فضول واجبات العلماء وعلى هامشها ، وقد يعتبرون ذلك ابتعاداً عن وظيفتهم

وانحرافاً عن جادتهم ، مع أننا نرى أن القرآن نوه بهذه الحقيقة ، وكلنا نؤمن أن الله سبحانه وتعالى هو أغنى الأغنياء ولكنه أنزل كتابه في أسلوب معجز ، وفي لسان عربي مبين ، ولم ينزله في لسان عربي مبين فحسب بل نوه بهذه الناحية في غير موضع من مواضع القرآن . فقال : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين » « انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » فمعنى ذلك أن ناحية اللفظ وناحية الاسلوب وناحية البلاغة ناحية مهمة ، واذا رجعنا الى تاريخ الاصلاح والتجديد رأينا أن الذين كانوا على قمة الاخلاص وعلى ذروة الانقطاع الى الله والى الربانية الصادقة ، كانوا لا يستهينون بهذه الناحية انما كانوا يهتمون بها كل الاهتمام فلا نضرب المثل بالنبي ﷺ في هذه المناسبة لأنه ﷺ أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء من غير شك وهذا معروف عند الجميع ولكنا نضرب المثل بسيدنا علي بن أبي طالب انه كان في قمة من البلاغة ونواصل سيرنا الى آخر القرون الاسلامية ، فنرى أن من تبوأ القيادة أو الزعامة في الدعوة الاسلامية كانوا على جانب عظيم من البلاغة ومن فهم نفسية المخاطبين ، إنني في الحقيقة أوخذ بالحيرة اذا قرأت خطب سيدنا عبد القادر الكيلاني فانا أرى أن هذا الرجل الذي اشتهر في العالم كله ، وفي جميع العصور بزهده وبقناعته ، وبربانيته ، وباشراقه وتبتله ، انه يخاطب الجيل المعاصر والمجتمع الذي كان يعيش فيه في بغداد البلد الذي ولد فيه الحريري وولد فيه ابن الجوزي ، ووولد فيه الصابي وولد فيه هؤلاء

الشعراء وتغني فيه البحتري ، والشريف الرضي ، والمتنبي ، وأبو تمام ، والمعري .

كانت بغداد عاصمة عالم الاسلام ومركز الخلافة العباسية كانت محطة كل عبقري من جميع الأصناف ، فسيدنا عبد القادر الكيلاني نراه يخاطب الجيل المعاصر في بغداد بلسان يحلق في البلاغة ، ويخاطبهم بأسلوب ساحر ، بأسلوب يبلغ الى الأعماق ، بأسلوب لا تزال له الصولة الى الآن ، واذا قرأنا خطبه التي دونها المدونون ، وحرصوا على نقل اللفظ الصحيح لاعتقادهم أن ما يصدر من القلب يدخل في القلب ، وهذا كان من دواعي الحرص على نقل الكلام بالحرف .

وهذا كله يعطينا الفكر عن أهمية الأدب والاسلوب اننا اذا أردنا أن نوجه الشباب التوجيه الاسلامي العميق ، فعلينا أن نتسلح لذلك وأن نعد له عدته وأن نستوفي تلك الشروط التي كانت لكل زمان ومكان ، وهي لا تزال لها قيمتها وأهميتها ، وتأثيرها وهو إحداث مكتبة اسلامية علمية ، تلائم عقلية الشباب وتؤثر فيها ، ويتقبلها الشباب بقبول حسن بل يتشوقون اليها ويمدون اليها يدهم ، فإذا وفينا هذه الشروط فاني واثق بأن الشباب مستعدون ليكونوا لا مؤمنين بهذه الفكرة فحسب ، بل دعاة متحمسين لهذه الفكرة والدعوة ، متفانين فيها ، متهالكين عليها لا يعدلون بها شيئاً » .

ومساء هذا اليوم حضر الوفد حفلة العشاء التي أقامها سعادة الأستاذ محمد ميمش القائم بالاعمال في السفارة السعودية في

عمان ، تكريما للوفد حضرها عدد كبير من الاعيان والفضلاء والشخصيات الاسلامية ، ورجال السلك السياسي .

من عمان الى الكرك :

كان يوم الاحد ١٩٧٣/٨/١٩ م من أزخر الايام في الاردن بالزيارات والتنقلات ، وأغناها مشاهدات أثرية وتاريخية .

توجهنا في الساعة السادسة والنصف ٦,٣٠ صباحا الى الكرك ، يرافقنا الاستاذ عبد خلف وكيل الوزارة ، وله خبرة فائقة ، واطلاع واسع على المشاهد والآثار ، والسيرة والتاريخ ، وهو كثير التردد الى هذه الأمكنة ، لأن قريته تقع بجوار هذه الامكنة ، وزادت هذه الزيارة قيمة علمية وأثرية مرافقة الاستاذ رفيق وفا الدجاني العالم الأثري الكبير الذي سبق ذكره في زيارة الكهف ، فكانت زيارة تجمع بين المتعة والتسلية ، والدراسة والعبرة ، فسّرت لنا شيئا كثيرا مما قرأناه في كتب السيرة والتاريخ ، وكتب الجغرافية والآثار لم نكن لنعرف حقيقته وما اكتنفه من أجواء وحوادث ، لو لم نشاهد هذه الأمكنة التي تتصل بهذه الحوادث والحروب والمعارك مشاهدة عيان تحت قيادة أصحاب الاختصاص ودلالتهم ، ولو قرأنا خمسين كتابا في هذا الموضوع فضلا عن تأثير المكان في النفس والقلب وما يوحيه من معان ويبعثه من شعور ، وقديماً قالت العرب : « ليس الخبر كالمعاينة » .

حديث الى الجنود المرابطين :

بدأنا بزيارة مركز القوات المسلحة لاحدى الدول الاسلامية

الكبيرة وقد طلب منا ونحن في عمان أن نزور هذه الثكنة ، ونخاطب الجنود المرابطين في ثغر كبير حساس ، وقد شكرنا هذه الثقة الغالية والتقدير الكبير من قادة هذه المنطقة ، وكانت أول تجربة لي في حياتي أزور فيها القوات المسلحة لحكومة اسلامية كبيرة ، وأخاطب فيها المجاهدين المرابطين الذين وهبوا نفوسهم وأجسامهم للدفاع عن الاسلام ، والبلد الاسلامي ، وللذوب عن حرمات المسلمين والمقدسات الاسلامية ، ولمواجهة أي خطر يأتي من قبلهم .

ولما اصطف الشباب المسلحون ، وحيونا بتحية اسلامية ، وكان أول منظر رأيته في حياتي غمرتني موجة من سرور وإيمان ونشوة لم يكن لي عهد بها قبل هذا اليوم ، وأخذتني هزة لم أعرفها من قبل ، فأدمعت عيني وفتقت قريحتي ، وتكلمت بلسان القلب قبل أن أتكلم بلسان الفم ، فقلت :

« انني نشأت في بيئة دينية علمية ، نشأت بين العلماء وقادة الفكر وحملة الاقلام ، وحضرت حفلات ونوادي يكثر فيها عدد العلماء والخطباء ، وتزينها شخصيات فريدة ، تتزعم العلم وتقود المسلمين ، ولكنني لم أر كاليوم تهتز نفسي ولم ترق ولم تخشع ، ولم أشعر بسعادة ولذة كما شعرت بها اليوم ، وانني لو استطعت – ولو سمح لي – لحاولت أن أقبل يد كل جندي منكم ، فانها اليد التي تناضل عن الاسلام ، وتأخذ السلاح لتذود عن الاسلام والمسلمين ، وقد قال الله تعالى : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضّل الله

المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة[1] » ، وأنتم مرابطون حارسون للبلاد الاسلامية ، حارسون لكرامات المسلمين وأعراض نسائهم وحياة أطفالهم ، وقدسية مساجدهم ، وهدوء مدارسهم ، ومؤسساتهم الدينية التي يشتغلون فيها بعبادة الله وذكره ، والدعوة الى الله ، ونشر العلم ، وتعليم الفرائض والسنن ، وتزكية الاخلاق ، وتهذيب النفوس ، فلولا أنتم أيها المرابطون على الثغور الاسلامية ، ولولا رباطكم ومخاطرتكم بنفوسكم وأرواحكم ، ولولا فتوتكم وفروسيتكم لما تمكن المؤذنون برفع صوتهم بالآذان ، ولما سعى المصلون لأداء الفريضة الى بيوت الله في هدوء وأمان ، ولما كان لنشر العلم ونقل الامانة من جيل الى جيل مركز ومكان ، ولما استطاع الشيوخ والنساء والضعفاء والعجّز أن يناموا نوماً هادئاً ، وأن يشتغل التجار بتجاراتهم ، وأهل الصنائع بصنائعهم ، فلكم فضل على كل شعار ديني ، واشتغال علمي ، وعمل مدني ، عرف الناس ذلك أم جهلوا ، وشكروه أو كفروا ، لذلك جاء في حديث أن رسول الله ﷺ قال : « عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله[2] » . وجاء في حديث آخر : « رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها[3] » . وجاء في حديث آخر : « ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار[4] » .

---

١)

٢) رواه الترمذي عن ابن عباس مرفوعاً .

٣) متفق عليه .

٤) رواه البخاري والترمذي والنسائي عن أبي عبس مرفوعاً .

وفي حديث آخر : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها[1] » وقد سمى النبي ﷺ الجهاد ذروة سنام الاسلام ، فقد جاء في حديث صحيح أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل : « ألا أدلك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه ؟ قلت : بلى يا رسول الله ! قال : « رأس الأمر الاسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد[2] » .

وحكيت لهم قصة من تاريخ الجهاد الاسلامي في شبه القارة الهندية ، لقائد دعوة التوحيد والجهاد في القرن الثالث عشر الهجري ، السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد ، وهي أنه لما رجع المجاهدون – تحت قيادة أميرهم « السيد أحمد » – من ساحة القتال في احدى المعارك الكبرى ظافرين منتصرين ، وقد اغبرت وجوههم وثيابهم بالنقع ، حتى تقنعت وجوههم وتنكروا .

وقام الرئيس بهرام خان من كبار المجاهدين بالمنديل لينفض النقع عن وجه السيد الامام ، فقال السيد : « مهلا يا أخا الأفغان ، فان هذا النقع هو الغبار الذي قال فيه النبي ﷺ : « لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم[3] » وما جئنا الى هنا ، وما تحملنا المشاق

---

١) متفق عليه .

٢) أخرجه الترمذي وأحمد وابن ماجة عن معاذ بن جبل مرفوعا في حديث طويل ، قد ذكرت معنى هذه الاحاديث لضعف ذاكرتي ولما جاء دور تقييد هذه الكلمة رجعت فنقلتها بحرفها وزدت اليها بعض أحاديث في معناها .

٣) في السنن .

الا لأجل هذا الغبار ، فمهلاً يا أخا الأفغان مهلا » .

ومكث المجاهدون ، ولم ينفضوا هذا الغبار ذلك الحين[1]

ثم لفت نظر هؤلاء المرابطين الى نقطتين هامتين ، احداهما اخلاص النية ، والتركيز على اعلاء كلمة الله ، وعلى أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، ولا يكون من ورائه غرض الا أن تكون كلمة الله هي العليا ، وذكرتهم بالحديث المشهور الوارد في الصحاح : « سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءا ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[2] » .

والنقطة الثانية هي التحرز من المعاصي وعن كل ما يغضب الله ويمنع من نصره ، وقد جاء في كتاب وجهه الخليفة الراشد سيدنا عمر بن عبد العزيز الى أحد قواده : « وأمره أن لا يكون من شيء من عدوه أشد احتراساً منه لنفسه ومن معه من معاصي الله فان الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم[3] » الى آخر ما حضرني وفتح الله به عليّ في هذا الموقف الرائع المثير .

---

١) اقرأ القصة بتفصيلها ، وأخبار هذا الجهاد العظيم في كتاب المؤلف الحديث « اذا هبت ريح الايمان » . طبع « دار عرفات » . رائى بريلي ، الهند ١٣٧٩ هـ .

٢) حديث متفق عليه .

٣) راجع الكتاب « رجال الفكر والدعوة في الاسلام » صفحة ٤٥ – طبع جامعة دمشق سنة ١٩٦٠ م .

وكان تأثير الحديث عميقا في نفوس المجتمعين ، وقد سجل هذا الحديث ، وأعتقد أن قواتنا المسلحة في كل بلد اسلامي في حاجة ملحة الى اثارة هذه المعاني ، والوعي الديني ، وما للجهاد من مَكانة عند الله وعند رسوله ، وما للشهادة والشهداء من ثواب وفضل ، وما وعد الله عليه من الاجر الجزيل ، وقد كانت خسارة الاسلام والمسلمين فادحة باهمال هذه الطاقة ، التي ليست فوقها طاقة ، وأصبحت الحكومات الاسلامية ، وقوتها الدفاعية والحربية ، والحكومات غير الاسلامية وقوتها الدفاعية والحربية في منزلة سواء ، اذ كان الفارق الأكبر بينها وبين حكومات الدنيا ، وما كان يمتاز به المسلمون من الإيمان والاحتساب ، والطمع في الأجر والثواب ، لذلك يقول الله تعال مخاطباً للمسلمين الأولين : « ولا تهنوا في ابتغاء القوم ، ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ، وكان الله عليما حكيما[٤] » .

وجاء دور الأستاذ الكبير أحمد محمّد جمال وهو يمتاز باستحضار الآيات القرآنيّة ، وحسن الاقتباس منها وحفظ متون أحاديث كثيرة ، فأيد كلمته وزينها باستشهاد بالآيات المناسبة للمقام ، والاحاديث الواردة في فضل الجهاد والرباط ، والشهادة في سبيل الله ، وتلقيت كلمته الفاضلة المؤمنة باستجابة من النفوس ، وحسن استماع وقبول ، وانصرفنا الى مائدة الفطور ، وغادرنا المركز معجبين بكرم الضيافة ، مأخوذين بالروح الطيبة الاسلامية التي كانت تحلق على هذا المكان والسكان داعين لأخواننا المرابطين بنصر الله وتأييده .

وقفة عند شهداء موته :

واصلنا سيرنا الى الامام فوصلنا الى مؤته ، مكان المعركة الاسلامية الكبيرة المنسوبة اليها ، ونحن نقرأ أخبارها وقصص البطولة الفائقة ، التي تجلت في هذه الغزوة ، وهي على بعد اثني عشر كيلومترا جنوب الكرك ، وسط سهل فسيح ، وكانت هذه الغزوة في السنة الثامنة من الهجرة النبوية[1] . وكان عدد جيش المسلمين في هذه الوقعة ثلاثة آلاف رجل ، وعدد جيش الروم مع العرب المنتصرة ما يقرب مائتي ألف رجل ، واستشهد في المعركة زيد بن حارثة قرب المكان المعروف الآن بالمشهد ، فحمل الرأية جعفر بن أبي طالب ، فقطعت يده اليمنى ، فأخذ الراية بيده اليسرى ، فقطعت ، فاحتضن الراية بعضديه ، واستمر يقاتل حتى استشهد ، وبذلك لقب « بجعفر الطيار » ، و« ذي الجناحين » . فأخذ الراية سيدنا عبد الله بن رواحة ، وتقدم بها ، فقاتل حتى قتل ، ثم اصطلح المسلمون على خالد بن الوليد ، فأخذ الراية ، وقاتل قتال الابطال ، حتى دخل الليل ، وانسحب الروم نحو الشمال ، وانسحب المسلمون نحو الجنوب ، « حتى أرخى الليل سدوله ، وحتى وضع الجيشان السلاح الى الصباح ، وأثناء ذلك أحكم خالد تدبير خطته ، فوزع عدداً غير قليل من رجاله في خط مؤخرة جيشه ، أحدثوا

---

١) اقرأ القصة بنصها وفصها والاسباب التي دفعت اليها في سيرة ابن هشام صفحة ٣٧٣-٣٨٩ ج-٣ طبع مصطفى البابي الحلبي مصر ، الطبعة الثانية ، وفي كتاب المغازى والسير .

اذا أصبح الناس من الضجة ما أدخل الى روع عدو، أن مددا جاء من عند النبي ﷺ ، واذا كان ثلاثة آلاف قد فعلوا بالروم الافاعيل في اليوم الأول ، وقتلوا منهم خلقا كثيراً ، وان لم يستطيعوا أن يصمدوا ، فما عسى أن يصنع هذا المدد الذي جاء لا يدري أحد عدته ! لذلك تقاعس الروم عن مهاجمة خالد وسروا بعدم مهاجمته اياهم ، وكانوا أكثر سرورا بانسحابه ومن معه راجعين الى المدينة بعد معركة لم ينتصر فيها المسلمون ، وان كان حقا كذلك أن عدوهم لم ينتصر عليهم فيها[1] » .

وقد وقفنا خاشعين أمام هذه الوقعة ومكانها ، مؤمنين بعلو همّة هؤلاء الابطال الذين جاءوا من المدينة الى مؤته ، في منطقة مؤاب ، في بلد تحكمه أقوى دولة في الأرض ، وأغناها جيوشا وميرة ، ووسائل حربية ، والمسافة بين المدينة وموته (١١٠٠) كيلومتر تقريباً ، وقد قطعوها على ظهور الابل والخيل ، وانقطع عنهم المدد والميرة والخبر بعدما خرجوا من بلدهم ، وهم يدخلون في لهوات العدو وفي فكيه يفعل بهم ما يشاء ، وقد جاء في سيرة ابن هشام ، « ثم مضوا حتى نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغ الناس هرقل قد بلغ مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم ، وانضم اليهم من لخم وجزام ، والقين ، والبحراء وبلّى مائة ألف منهم .... فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون أمرهم وقالوا :

---

١) العبارة بن العمودين مقتبسة من كتاب « حياة محمد » للدكتور محمد حسين هيكل صفحة : ٣٧٧

نكتب الى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا ، فاما أن يمدنا بالرجال ، واما أن يأمرنا بأمره فنمضي ، قال : فشجع الناس عبدالله بن رواحة ، فقال : يا قوم ! والله ان التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانما هي احدى الحسنيين ، اما ظهور واما شهادة ، قال : فقال الناس : قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس[1] » .

وكان ما كان من أمر القتال وشهادة قادة المسلمين الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبي طالب ، وعبدالله بن رواحة ، رضي الله عنهم وارضاهم ، وأجزل مثوبتهم ، وهذا نموذج من العقل المؤمن ، والتفكير الإيماني ، تحلى به المسلمون الأولون ، وتجرد عنه المتأخرون والمعاصرون ، فكان ما كان من الفرق الواسع الواضح الذي نكتوي بناره ونستقل بعاره .

وقد زرنا قبور القادة الثلاثة ، وهم دفنوا في مواضع شهادتهم ، وزرنا مسجد سيدنا جعفر بن أبي طالب ، وقفنا على قبره نستحضر بطولته الفريدة في تاريخ البطولات والشجاعة ، وقد بني هذا المسجد والقباب العالية فوق الأضرحة في العهد الهاشمي ، ولهذه المشاهد تاريخ يطلع عليه الزائر في النشرات التي تقدمها مصلحة الآثار ، وزرنا قبر رفيقيه ، وزميليه في البطولة والشهادة ، ودعونا لهم ، وصغرت في عيوننا نفوسنا واحتقرناها .

---

١) سيرة ابن هشام الجزء الثالث صفحة : ٣٧٥

الآثار التاريخية في مؤته :

وبجوار سيدنا جعفر وبمدخله متحف اسلامي لا يزال في دور التكوين ، وفي حالة بدائية ، عرضت فيه آثار ومخطوطات اسلامية ، أنشأته وتديره وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية ، وقيل ان عمارة هذا المتحف يرجع تاريخها الى زمن الملك الناصر بن قلاوون ، قد بناه نائب السلطنة في الشوبك والكرك بهادر البدري المالكي الناصري في عام ٧٢٧ هـ وفي المتحف معروضات اسلامية من مجموعة الاستاذ محمود الافغاني وغيره .

في طريق الى البتراء :

خرجنا من منطقة موته متوجهين الى « البتراء » و« معان » فمررنا في طريقنا بقرية « لحظة » وبها عين ماء معدني للرمل وإصلاح الجهاز الهضمي ، ومررنا بقرية « ضانة » ، وقضينا في الشوبك بعض الوقت ، وزرنا المدرسة الثانوية الزراعية فيها ، ومررنا بوادي « عربة » .

استرحنا بعد الغداء ساعة ، وصلينا العصر لنستعد لجولة أثرية سياحية تحتاج الى نشاط وهمة ، ثم توجهنا الى البتراء[1] المدينة

---

١) هكذا ينطق بها الاردنيون ، وقد ضبطها المؤرخون والجغرافيون القدامى « ببطراء » و« بطرة » وذهب بعض المحققين إلى أنه الموضع الذي سماه العبرانيون بـ« سلع » وورد ذكره في أشعيا ١-١٦ وملوك ثان ١٤-٧ . وانها القصة العربية الصخرية المشهورة عند الرومانيين واليونانيين ، وقد أنشأها الأنباط ، وهم من أصل عربي قبل آلاف من السنين وقد بلغوا في المدنية والصناعة شأوا بعيدا ، وكان بينهم الشعراء والاطباء والتجار الكبار الذين كانوا يرحلون الى مصر والشام وبلاد الفرات وروما ،

القديمة التي يرجع تاريخها الى آلاف من السنين ، وهي من انشاء الانباط العرب ، وهي مدينة محفورة في الجبال ، كالحجر ومدائن صالح ويلاحظ بعض الأثريين انها أرقى صناعة ، وأبدع حفرا ونحتا وأكثر تنظيما من آثار ثمود .

وقد سارت بنا سياراتنا في نفق طويل غير مسقف يرى فيه الانسان السماء ، وفي طريق محفورة في الجبل يمتد على عدة كيلومترات ، وينعطف ويلتوي مرارا ، ووقف بجانبيه جبلان شامخان ، ثم دخلنا في مدينة منسقة تحتوي على جميع مظاهر المدنية من قصور وايوانات ، ومحكمة وسوق ، وشوارع مبلطة ، وكلها حفر ونحت في الجبل ، ونحن نمشي في قيادة الاستاذ رفيق وفا الدجاني ، يشرح لنا الآثار وهندستها ، والغايات التي أنشأت لها ، ولولا هو لما استفدنا من هذه الجولة الأثرية ، وشعرنا بأننا نمشي في نفق مظلم لا ضوء فيه .

ولم نستوعب هذه المدينة الواسعة ، ولم يكن ذلك بوسعنا في هذا الوقت الضيق ، فان مساحة البتراء ٣٠ كيلومتر مربعا ، فرجعنا وقد جمعنا بين العلم والعبرة ، واستحضرنا قوله تعالى وتمثلناه بأعيننا : « وينحتون من الجبال بيوتا فارهين[1] » .

وكانوا مع ذلك وثنيين ، يعبدون الاصنام منها اللات التي استوردها أهل شمالي حجاز وجعلوها في أصنامهم الرئيسية .

رجعنا الى عمان في الليل ، وقد قطعنا مسافة طويلة من أطول مسافة قطعناها في السيارات في يوم واحد وقد اتخمنا من المعلومات والانطباعات والذكريات .

مغادرة عمان :

كان يوم الاثنين ١٩٧٣/٨/٢٠ م هو اليوم الأخير الذي نغادر فيه عمان قافلين الى الهند ، وكان موعد اقلاع الطائرة الساعة الرابعة ونصف ساعة عصرا تقريبا ، وقد أكرمنا الاصدقاء والاخوان بالزيارة والتوديع ، كان من بينهم الشيخ أسعد الحسيني خطيب المسجد الاقصى سابقاً ، وجلس معنا ساعة ، وتحدث بحديث أثار الشجون ، وأدمع العيون ، وزارنا الاستاذ تيسير ظبيان رئيس رابطة العلوم الاسلامية في جماعة من أهل العلم والثقافة ، وزارنا وفد تركي من قبرص ، شرح لنا الوضع الحالي في هذا البلد ، الذي يمر بمرحلة قاسية انتقالية ، يكافح فيه المسلمون الاتراك للاحتفاظ بشخصيتهم الاسلامية ، وكيانهم القومي .

وكان الاستاذ كامل الشريف اقام حفلة غداء باسم المؤتمر الاسلامي في المجمّع تكريما للوفد ، فحضرناه واجتمعنا ببعض الشخصيات العلمية والدينية ، التي لم نحظ بلقائها في هذه الأيام المعدودة المحدودة المزدحمة بالبرامج ، مثل الشيخ عبد العزيز الخياط عميد كلية الشريعة وغيره .

وشرف معالي الدكتور اسحاق فرحان مضيفنا الكريم في الفندق للتوديع ، وحضر بعض الاساتذة والسادة ، وتوجهنا بعد

استراحة قصيرة الى المطار ، وكان في تشييع الوفد الصديق الفاضل والمرافق الحبيب الذي ترك في نفوسنا أثراً عميقا وارتسامات طيبة ، الدكتور عبدالله عزام ، وصديقنا القديم الدكتور اديب صالح ، رئيس تحرير مجلة « حضارة الاسلام » الدمشقية ، وأستاذ كلية الشريعة في الجامعة السورية وهو يشتغل أستاذا زائرا في كلية الشريعة في عمان ، وقد تقابلنا على فترة طويلة ، وسعادة الأستاذ محمّد ميمش القائم بالاعمال في السفارة السعودية ، وسعادة الاستاذ كامل الشريف ، جزى الله الجميع عنا أفضل الجزاء ، وجمعنا على أحسن حال .

فهرست

كلمة بين يدي الكاتب ٥
في أرض الغزاة والفاتحين ٩
في أرض النوابغ والشعراء ٦٣
في لبنان ملتقى الشرق والغرب ١٠٧
زيارة خاطفة لدمشق ١٣٣
في عاصمة الرشيد ١٤٩
في أرض الشهداء والمرابطين ١٧٥